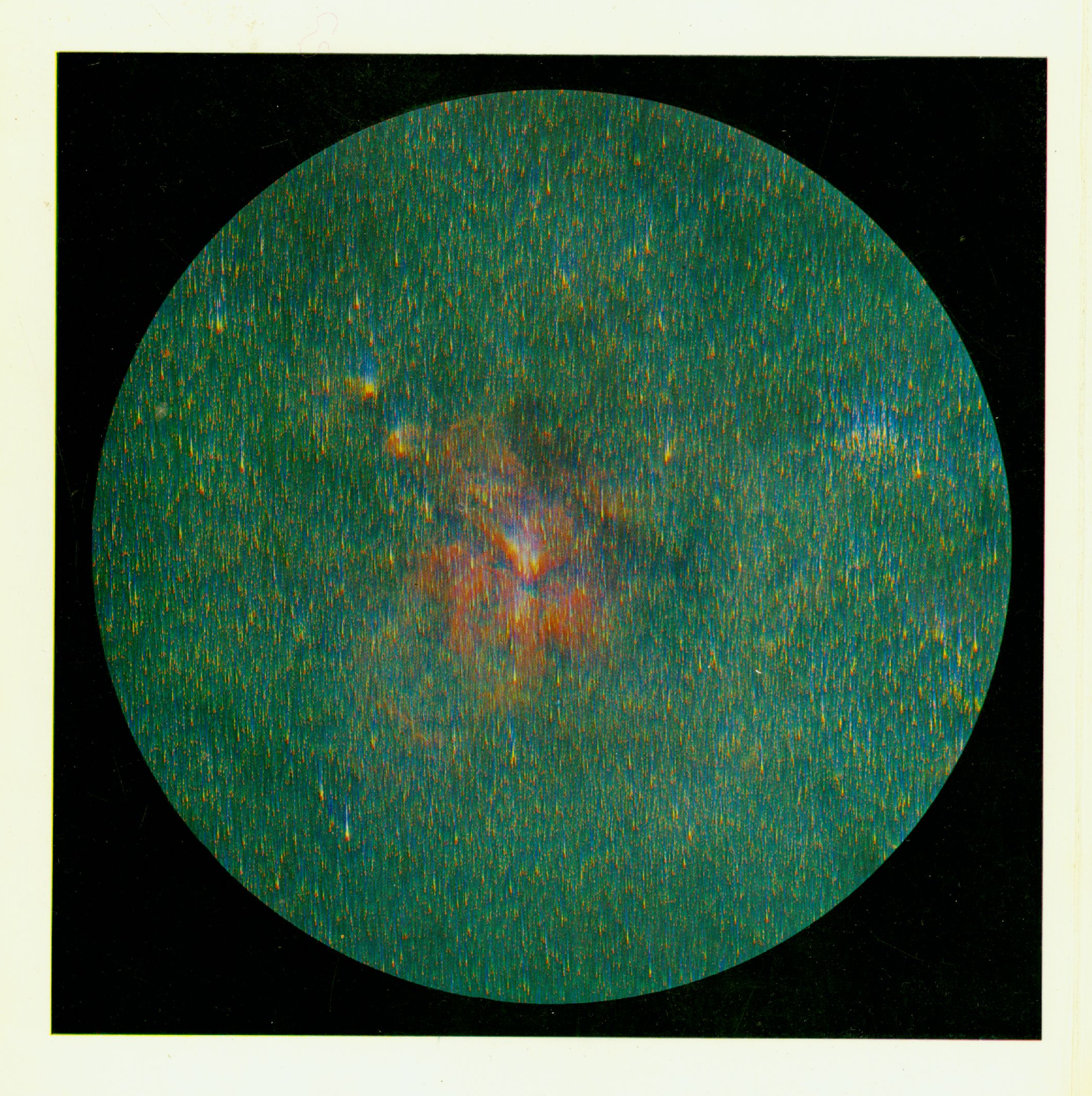
فِكْرٌ وَفَن

١١



يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ
ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

«الجُمُعَة ١»

ES PREISET GOTT,

WAS IM HIMMEL UND AUF ERDEN IST –

DEN KÖNIG, DEN HEILIGEN,

DEN MÄCHTIGEN, DEN WEISEN.

SURA 61, VERS 1



العدد الحادى عشر ١٩٦٨ العام السادس

يصدرها: البرت تايلا و اناماری شيمل

الفهرست

يقدم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من شرفهم بمعونته فى إعداد هذا العدد
وبدون مساعدتهم كان من المحال ان تحصل هذه المجلة على شكلها الحالى الجميل
نناشد القراء الكرام ان يداوموا فى ارسال معاونتهم وآرائهم القيمة ونحن لهم من الشاكرين

ترجمات: Dr. Muhammad Ali Hachicho, Köln; Dr. Arnold Hottinger, Beirut; Magdi Youssef, Bonn.

Nr. 11 1968 6. Jahr

FIKRUN WA FANN

Herausgeber:
Albert Theile und Annemarie Schimmel

الفهرست

صورتا الغلافين:

سديم كوكبة الجؤجؤ فى جنوبى قبة السماء. ويعد هذا السديم من أغرب ظواهر مجرتنا. فقد كان منذ أربعمائة عام جرما من الحجم الرابع، ثم سطع فجأة فى مطلع القرن التاسع عشر بقوة تماثل نور «كلب الجبار». واليوم صاريرى بالكاد، بعد أن أصبح جرما من الحجم الثامن.
وتحيط به سحب من الهيدروجين تمتد كحجاب من الضباب حتى تكاد أن تبلغ حواف الصور المنشورة فى هذا العدد. وهى علاوة على ذلك تبين فى أعلى اليمين مجموعة كواكب NGC ٣٥٣٢، وأيضا من جهة اليسار، فوق كومة الأجرام NGC ٣٢٩٣، تشكيلة كثيفة من الكواكب الحارة الحديثة النشوء، وقد تناثرت حولها هى الأخرى سحب الهيدروجين.

التقطت صورة الغلاف الأول فى هذا العدد بواسطة منشور ثلاثى يكسر الضوء، وهى لسديم كوكبة الجؤجؤ. ومن خلال هذا المنشور نشأت خطوط ما هى إلا طيف النجوم. ويظهر سديم الجؤجؤ على شكل بقع، أما اللون الأحمر فهو الوحيد الذى يحتفظ بصفائه. ويبعد عنا سديم النجم بمقدار ٣٥٠٠ سنة ضوئية.
عن كتاب: الكون فى صور (أطلس صادر فى عام ١٩٦٧).

Das Weltall im Bild. Photographischer Atlas. Unter Beratung und Mitarbeit von Hans Haffner, herausgegeben von Albert Eisenhuth. Verlag Styria, Graz, Wien. Köln 1967.

نشكر دار النشر لانعامها علينا بكليشيهات هذه اللوحات وسماحها لنا بنشرها.

دار النشر: Übersee-Verlag, Hamburg 36, Neue Rabenstr. 28, Bundesrepublik Deutschland
تظهر مجلة "فكر وفن" العربية موقتا مرتين فى السنة – الاشتراك: ١٥ مارك ألمانى. – النسخة الواحدة: ٧,٥٠ مارك ألمانى؛ ثمن الاشتراك المخفض للطلبة: ٣ مارك المانى، النسخة الواحدة: ماركان. – تقدم طلبات الاشتراك إلى دار النشر
تصنع الكليشيهات: Chemiegraphische Kunstanstalt Friedrich Heitgres, Hamburg
الطباعة: Druck: J. J. Augustin, Buchdruckerei, Glückstadt ·
ادارة التحرير: Adresse der Redaktion: Albert Theile, CH 6314 Unterägeri, Zug, Switzerland



إن أشهر ما اكتشف من حفريات متحجرة فى العالم عثر عليه فى جنوبى ألمانيا، وعلى وجه التحديد فى ناحيتى آيشتيت Eichstätt وزولنهوفن Solnhofen بين مدينتى نورنبرج وآوجسبورج. وهنا أيضا وجدت معالم أول طير عاش على سطح الأرض، لم يميزه عن سائر الحيوانات الزاحفة سوى أن كان يغطيه ريش يمكنه من الطيران.

وتتميز هذه الحفريات بالتنوع. فلا يتوفر فى منطقة أخرى من العالم ما يماثل هذه التشكيلة الواسعة من الزواحف الطائرة وأنواع السرطان والحشرات.

وتقدم الصور التالية عرضا يبين مدى تنوع هذه المكتشفات الحفرية.

إيجر تيبولاريوس Aeger tipularius حشرة سرطان عثر عليها فى الطبقات الجيرية بـ«آيشتيت»، ويبلغ طولها ١١،٥سم، وطول قرنيها : ٢١سم.



آثار إحدى الزواحف الطائرة التى عثر عليها فى «آيشتيت» وهى قصيرة الذيل ، وتدعى Pterodactylos cf. scolopaciceps



الحقيقة العلمية فى تنوعها ووحدتها

بقلم كارل اولمر

مع أن الكثير من القضايا الفلسفية المعاصرة لا يزال معلقا إلا أنه فى إمكاننا أن نذكر بعض النقاط التى منها تتجلى لحظات ربط الحقيقة :

١ — تظل مكانة الحقيقة فى الذروة حتى لو لم يكن لها صفة الخلود أو الجزم الحاسم القاطع. فمنذ أن حقق الاغريقيون تلك النظرة الحرة إلى العالم — باعتباره كلا — صارت هذه النظرة جزءا لا يتجزأ من وضع الانسان فى العالم، بحيث لم يعد بدوره قادرا على النكوص عنها. ومعنى هذا أنه لا مناص للانسان من أن يتعرض بلا حدود للواقع بكل أعماقه وأبعاده كيما يتسنى له أن يحيط بتنوعه وأن يسبر أغواره. فهذا هو سبيله الوحيد الذى يهيىء له أن ينتزع مكانته ومركزه فى العالم، وأن ينهض على صيانة هذه المكانة وذاك المركز. غير أنه لا تعتمل فى نفس المرء هذه الحاجة الأولية إلى الحقيقة فحسب، وإنما كذلك ما يقابلها من رغبة تستهدف مراوغة الواقع وتجنب الحقيقة، ومن ثم البقاء فى حالة هائمة غير محددة. ويناظر ذلك من جهة الواقع جبروت المظهر، والخداع، وتيار النسيان المستمر الذى يتعرض له الانسان.

فإذا ما اختار المرء لنفسه ألا يتجه سوى نحو الحقيقة، مثلما يحدث فى مجال العلم، كان سلوكه هذا متميزا، لاسيما وأنه يمضى فى عكس التيار الذى يمضى فيه العنصر الأولى للكيان البشرى والعالم نفسه، ومن ثم يصير ضروريا أن يستخرج دوما هذا السلوك من ذلك التيار. وإنه ليكمن فى هذا المسلك ما ينفرد به استهداف الحقيقة من مكانة مرموقة. وكما أنه من سمات العلم دهشة غامرة بالسعادة تسرى فى لحظة التقاء مع الواقع كذلك صار يضاف إليها اليوم شجاعة احتمال الوجود المؤقت للحقيقة، والثبات فى مواجهة زوال اليقين.

٢ — قد يكون للحقيقة فى مجملها وحدة ونسق عام، حتى لو لم يعد لهذه الوحدة وذلك النسق طابع النظام System بمفهومه الفلسفى. وعليه صارت تتألف اليوم وحدة العلوم، وهى التى لم يسبق لها أن رأت النور، كما أنها

تشير إلى منبع مختلف. وهى – أى هذه الوحدة – لا يمكن أن تكون قد وجدت من قبل لأن شطرا كبيرا من المعارف الانسانية لم يتخذ صيغة العلم سوى أثناء القرن الماضى.

وقد بدأ يرافق هذه المرحلة الأخيرة تداخل بين مختلف فروع المعرفة التى نمت وتطورت متجاورة مستقلة عن بعضها البعض؛ حيث تم هذا التعاشق أولا بين العلوم فرادى، ثم بين مجموعاتها منذ القرن الحالى. وهكذا أصبحت تتبلور اليوم بازدياد مضطرد علاقة متبادلة بين الحقائق العلمية تنهض على استيحائها لبعضها البعض، واعتمادها على بعضها الآخر. أما وحدة العلوم بهذا المعنى فلا زالت فى طور النمو. وإن مواصلة هذا التطور لمسئولية كبرى يضطلع بها العلم الحديث، حتى يناظر التداخل الحى فى العالم ككل. ذلك العالم الذى لم تقف الفلسفة حتى اليوم على بنيته الجديدة.

٣ – وإن كانت الحقيقة العلمية لا تعطى الانسان معنى جازما قاطعا لحياته، إلا أنها تلعب اليوم دورا حاسما فى تشكيل وضعه فى العالم، بمواجهتها الدائمة التجدد للعالم ككل. وإنها لتقدم للانسان الأسس المناسبة لسلوكه فى مختلف ظروف حياته وعالمه. حيث تتزايد القيمة المباشرة للعلم فى كافة أمور الحياة. وإن كان لا يعنى هذا أن العلم قد يسلب الانسان قدرته على اتخاذ قراراته بشأن أهدافه، والعمل على تنفيذها، بقدر ما يقدم له فى ازدياد مضطرد، الأسس التى يقيم عليها هذه القرارات. ويتفق هذا مع زوال أهمية الصورة التقليدية عن الحقيقة الأبدية، وهى القائلة – من قديم – بالفصل بين الحقيقة النظرية وشقيقتها العملية. إذ أن المعرفة النظرية قد صارت اليوم، فى مجال التجربة مثلا، وثيقة الصلة بما يؤديه الانسان من فعل، وعكس ذلك أيضا صحيح، فالتعرف على إمكان الفعل صار ينبىء اليوم أيضا عن الواقع.

٤ – كأساس وقاعدة فى أمور الحياة تستخلص الحقيقة وتصان، باعتبارها ممثلة لعامة البشر. ولهذا فإن من معالم الحقيقة توصيلها للآخرين. إلا أن نشر الحقيقة يخضع لوجهتى نظر شديدتى التباين. فهى تعنى من جهة محاربة الجهل والزور والخطأ. وعليه يتعين على كل علم أن ينشر كافة حقائقه وبلا حدود. وطالما أن لغة العلم لا يفهمها الجميع فمن واجب العلم أيضا أن ينشر حقائقه فى هذا العصر بصيغة تختلف عن لغته الأصلية. وعندئذ تحتفظ عملية نشر الحقيقة وتوصيلها فى صورتها المعدلة بقدرها وأهميتها.

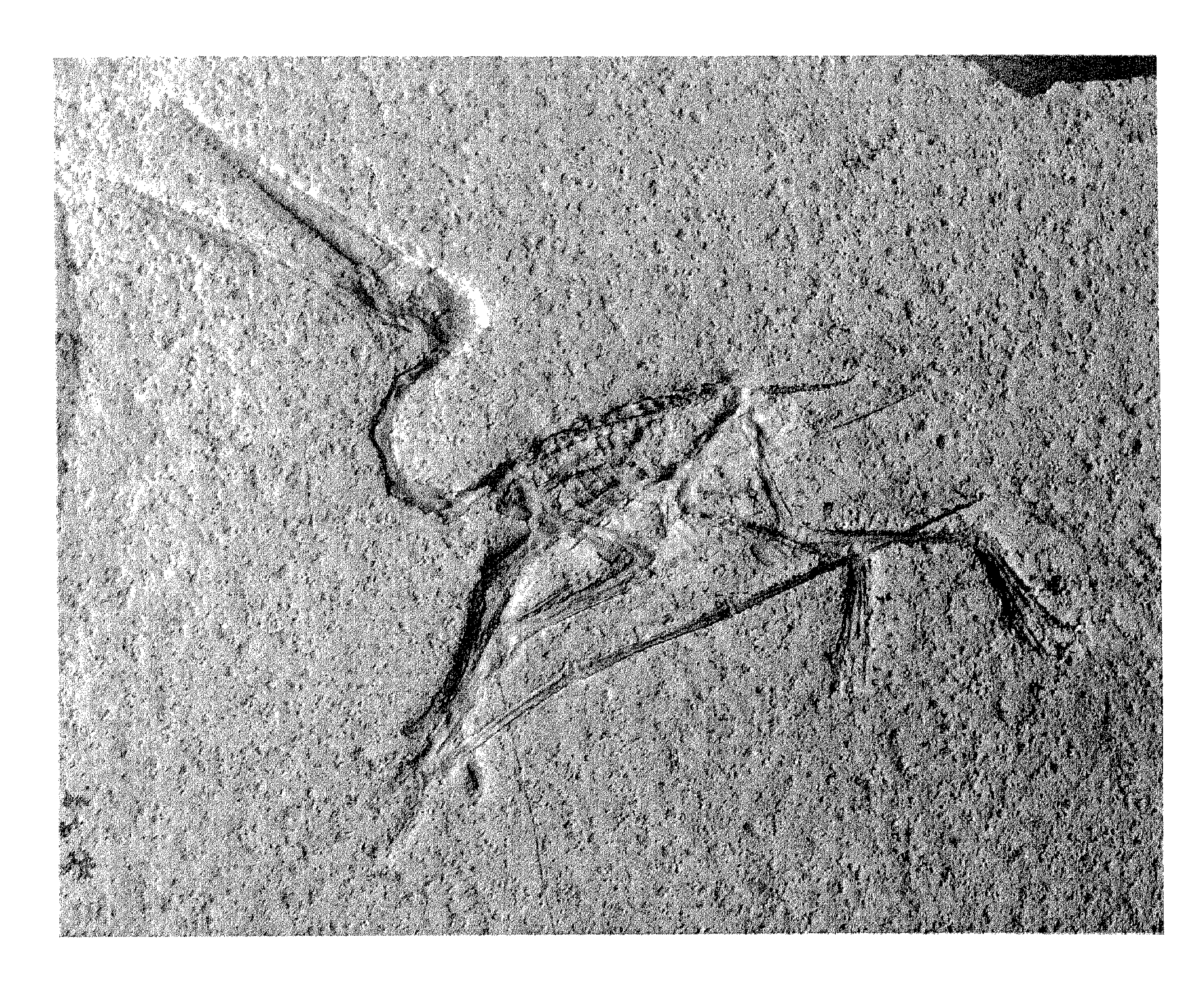
إلا أن توصيل الحقيقة يخضع كذلك لوجهة نظر تقول بدفع الحياة نحو ما هو أفضل. فلإن أخذنا فى اعتبارنا أن وجود الحقيقة يرتبط دوما بتوفر الطاقة، فقد يكون فى تجنب الحقيقة عند الانسان معنى حماية الحياة. وعليه يسأل كل نشر للحقيقة عما إذا كان يفيد الحياة أو يصيبها بالأذى، وبأى مقدار. ولابد من اعتبار نقاط ثلاث عند توصيل الحقيقة: لمن نوصلها، ومتى، وإلى أى حد يصح أن نوصلها. وإن ذلك يتضح بصورة جلية فى حقائق العلوم الطبية، وإن صح على كافة ما عداها من حقائق. لذلك كان من أعباء العلم المعاصر أن يضع من بين ما يضع فى حسابه عواقب حقائقه بالنسبة للانسان.

إذا ما تمسكنا بهذه الجوانب المشتركة التى تجمع بين العلوم فى علاقتها مع الحقيقة لما استطعنا أن ننكر ذلك الطابع الجديد للغاية الذى صار يميز الحقيقة وصلة الانسان بها. أى بعبارة أكثر تحديدا : إن قدرا هائلا من الحرية والمسئولية صار يقع اليوم على عاهل الانسان فى علاقته بالحقيقة، وبقدر لم يسبق أن أتيح له خلال تاريخه بأكمله. إذ لم يحدث قط فى الماضى أن خاطر الانسان بكل هذا القدر الذى يخاطر به اليوم لبلوغ الحقيقة. وإن هذه هى المسئولية الكبرى التى تجمع وتربط بين كافة العلوم.

من أجل ذلك لم يسبق قط أن كانت الحاجة ملحة، بمثل ما هى عليه اليوم، للتذكير بالقاعدة المشتركة بين مختلف العلوم والتأكيد عليها. إذ أنه على هذه القاعدة وحدها يمكن أن يقوم التفاهم والتعاون بين العلوم جميعا، خاصة وأنه لازم لنهوضها بأعبائها الكبرى.

أما عبء بلورة هذه القاعدة فى صورتها الكاملة فيقع على الفلسفة، التى لن تعود لتثبت حقها فى أن تصير الحقيقة الأسمى والأعمق طرا إلا بعد أن يتسنى لها تحقيق هذا المطلب.

ترجمة : مجدى يوسف



عثر على بقايا الزواحف الطائرة من نوع Pterodactylos (قارنها بـ Scolopaciceps) فى الطبقات الجيرية بناحية آيشتيت.
وهى تتميز بقصر ذيلها، كما أنها تعد أقدم كائنات فقرية. ويبلغ طول رأسها: ٨،٤سم، وطول جزعها ٦،٤سم.

المناقشة الدائرة حول نشوء الحياة على سطح الأرض

عن كورت فالخهلدر

يجب على الانسان أن يكون قادرا على التمييز بين الحى من الكائنات وبين الجماد، وذلك قبل أن يحق له أن يتساءل عن الطريقة التى كانت الحياة قد نشأت بها على سطح الأرض، فى الأزمان الغابرة، وقبل أن يعتبر فهم هذه الطريقة معضلة كبرى.

ولم يكن هذا هو الحال فيما مضى، إذ كان الناس ينظرون إلى كل الكائنات على أنها مخلوقات حية أو كانوا يتصورون — على الأقل — أن كل شئ يمكن أن يصبح كائنا حيا، بدون أدنى صعوبة، فى يوم من الأيام. وما شذ أحد من السابقين عن غيره فى هذا، بما فى ذلك الفيلسوف الأغريقى أرسطوطليس (Aristoteles). إذ كان هذا العلامة الكبير يتصور أيضا، أن الحيوان بما فى ذلك بعض ما أرتقى منه، مثل الضفادع وثعابين البحار، تنشأ من الطين أو من الوحل، فجأة وعلى حين غرة.

ولقد أستمر هذا التصور، بعينه، قائما طوال القرون الوسطى، بل إنه بقى قائما حتى بعد أن تعلم الناس كيف يميزون بين الحى وبين الجماد، وبعد أن ظهر لهم ما بينهما من فروق. ويرجع ذلك إلى أن الناس كانوا لا يعتقدون فى وجود فاصل واضح، لا يمكن التغلب عليه بين ما هو حى ومالا حياة فيه، بل إن ما تصوروه كان على العكس من ذلك تماما، إذ لم يقتصروا على الاعتقاد بأن نشوء الحى من الجماد أمر ممكن فحسب، بل كانوا، علاوة على ذلك، على يقين من نجاح تجاربهم فى هذا الشأن، فى يوم من الأيام. أو لم يدأب كيميائيو العصور الوسطى على خلط ما راقهم من مواد فى بوادقهم، وعلى معالجة ما خلطوه بشتى الطرق، سعياً وراء تحقيق حلمهم الكبير، لا بتحضير أكسير الحياة، ذو الفاعلية اللامحدودة فقط، بل تعدى ذلك الى خلق الهومنكولوس (Homunculus) أى خلق الأنسان الحى، أرقى الكائنات قاطبة، فى تلك البوادق؟!

ولقد ظهرت، أثناء تجارب القرون الوسطى الكيميائية، فكرة أساسية عرفت، فيما بعد، بما يقال له «قضية بداية الحياة الأولى». ثم إن هذه القضية مالبثت أن تبلورت حتى أصبحت واحدة من نظريتين علميتين أساسيتين، تبحثان فى كيفية بداية الحياة على سطح الأرض، فى الأزمان الغابرة. وتسمى هذه النظرية، «نظرية بداية الحياة الأولى (Urzeugungslehre)»، كما أنها تتلخص فيما يلى:

إذا ما تواجدت الظروف الفيزيقية الكيميائية الملائمة لنشوء الحياة، فأن هذه الظروف، وحدها، كافية لنشوء الحياة ذاتيا، كافية لنشوئها فجأة، وعلى حين غرة، كما أن ذلك يتم بفعل داخلى تمليه القوانين الطبيعية العامة وحدها، دون الحاجة إلى قوة خارجية خالقة.*) هذا، ونشوء الحياة فى مثل هذه الظروف أمر محتوم، ولذا فلابد وأن تكون الحياة قد بدأت على كوكبنا بهذه الطريقة، يوما ما.

ولا جدال فى أن تعديلات عديدة قد أدخلت، مع مرور الزمن، على الصيغة التى أوردناها بعاليه. ويتلخص أول تعديل، من هذه التعديلات، فى القول بأن الكائنات الحية لا تنشأ، بصورها الكاملة، من المواد غير العضوية مباشرة، كما انها لا تنشأ أيضا، من هذه المواد، فجأة. وزاد أنصار هذه النظرية على ذلك، ففرضوا وجود مواد عضوية وسيطة على سطح الأرض، قبل بداية الحياة الأولى، أى أنهم فرضوا وجود مواد وسيطة من نفس النوع الموجود فى جميع الكائنات الحية، وفى كل ما له صلة بهذه الكائنات، مواد من نوع لا وجود له أصلا فى الطبيعة غير العضوية، وإن شئت، من نوع لا وجود له أصلا فى عالم الجماد.

---

*) لا يتفق المؤمنون بالكتب المنزلة، ومن بينهم مترجم هذا الكلام، مع أنصار هذه النظرية فيما يدعون، ولسوف نبين فى هذا المقال مبلغهم من العلم، أن شاء الله، ويعلم الخالق جل شأنه، أنهم ما أوتوا منه إلا قليلا.

وفى خلال القرن الثامن عشر، قام بعض مشاهير العلماء مثل نيدهام (Needham) البريطانى، وبوفن (Buffon) الفرنسى بغلى محاليل غذائية عضوية غليا تاما كافيا لقتل كل ما فيها من أحياء، ثم إنهم تركوا هذه المحاليل فترة طويلة من الزمن تبينوا بعدها نشوء أحياء جديدة فى هذه المحاليل، فاستنتج هؤلاء العلماء من ذلك، أن نشوء هذه الأحياء الجديدة كان نتيجة تحلل ما فى بقايا الأحياء المغلية من مواد عضوية، وأن هذا التحلل قد حدث بفعل شبيه بالتعفن. ثم إن هؤلاء العلماء فرضوا، بعد ذلك، أن جزيئات عضوية مماثلة تنتشر فى كل مكان على سطح الأرض، واستنتجوا من ذلك، قياسا على تجاربهم، أن أحياء ميكروسكوبية كانت قد نشأت من جزيئات مماثلة، فى الأزمان الغابرة، على سطح الأرض. وزادوا فقالوا أن تكرار مثل هذا النشوء، أمر يمكن حدوثه، فى كل زمان وفى كل مكان، وأن الميكروبات، التى تسبب الأمراض المعدية وتنقلها من مكان إلى آخر، أى ما يسمى اليوم بكتيريا (Bakterien) كانت، هى الأخرى، قد نشأت أيضا، بطريقة مماثلة، أى أنها نشأت من تحلل مواد عضوية بفعل شبيه بالتعفن.

ولقد تطلب إثبات خطأ هذه الفروض، وما بنى عليها من استنتاجات، عملا مضنيا خلال قرن كامل من الزمان، إذ تبين، بعد ذلك، بما لا سبيل الى الشك فيه، أن علماء القرن الثامن عشر كانوا قد خلطوا بين سبب ماذهبوا اليه ونتيجته. أما الحقيقة فهى أن البكتيريا (Bakterien) والأنفوزريا (Infusorien) أى النقيعيات، وما شاكلها من الأحياء الميكروسكوبية، لا تنشأ عن تحلل المواد العضوية، بل أن عكس هذا هو الصحيح، أى أنها هى التى تسبب تحلل هذه المواد وتعفنها. والعالم مدين بهذا الكشف الهام للعالم پاستور (Pasteur) الذى أثبت أن أية تربة غذائية، سواء فى ذلك ما احتوى منها على مواد عضوية أو غير عضوية، لا تتعفن ولا تتكون فيها أية أحياء ميكروسكوبية، حتى ولو تركت عشرات السنين، وذلك طالما حرص الأنسان على أن لا تصل اليها مثل هذه الأحياء من الخارج، أى مما حولها من الكائنات.

ولم يسلم الذين يؤمنون «بنظرية بداية الحياة الأولى»، على الرغم من ذلك، بهزيمتهم، إذ ادعى هيكل (Haeckel) فى نهاية القرن الماضى، بمنتهى البساطة، أن پاستور كان قد أجرى تجاربه فى ظروف غير طبيعية، وبذا فأن نتائج هذه التجارب لا تضحد هذه النظرية بحال من الاحوال، كما أعلن، بمنتهى البساطة أيضا، أن «نظرية بداية الحياة الأولى» تعتبر، فى الواقع، ضرورة فكرية. وادعى هيكل، علاوة على ذلك، أنه وجد فى المركبات المخاطية اللزجة المنتشرة فى قاع البحار، تلك الحلقة المفقودة التى تربط ما بين الحى والجماد. ولقد أثبتت الأيام خطأ هيكل للمرة الثانية، إذ اتضح، فيما بعد، أن هذه المركبات المخاطية، ما هى إلا مركبات جيرية.

ولابد لنا الآن، من العودة مرة ثانية، الى ذلك الوقت البعيد، الذى بدأ اهتمام الناس ينصب فيه، على البحث عن كيفية بداية الحياة الأولى على سطح هذه الأرض، وذلك لأن هذه القضية كانت قد عولجت، فى ذلك الوقت، من ناحية أخرى غير تلك، التى أوجزناها بعاليه، ونعنى بذلك بحث هذه القضية من أساسها، أى معالجتها من الناحية الكيميائية.

ولعل القارئ يذكر، أن نيدهام وبوفن كانا قد فرضا فى بحوثهم انتشار جزيئات عضوية فى كل زمان وفى كل مكان على سطح هذه الأرض، وأنهما لم يتعرضا فيما ذهبا إليه، الى مسألتين جوهريتين، تدخلان فى صميم النظرية، التى نحن بصددها، ونعنى بذلك:

أولا: عما إذا كان تكوين المواد العضوية، أى المواد التى تدخل فى تركيب الكائنات الحية من مواد أخرى غير عضوية، أمرا ممكنا من حيث المبدأ؟

ثانيا: واذا كان هذا التكوين ممكنا، فكيف كان تكوين هذه المواد العضوية، على وجه التحديد، وقت بداية الحياة الأولى؟

وغير خاف، أن الأجابة على أسئلة من هذا النوع، لم تكن ممكنة فى عصر هذين العالمين. ولقد مضى على هذا العصر زمن طويل انتهى العلماء فيه، إلى أنه نظرا لوجود جميع العناصر، التى تدخل فى تركيب الأحياء الكيميائى، فى الطبيعة غير العضوية، أى فى عالم الجماد، فليس هناك ما يمنع من تكوين مواد عضوية من أخرى غير عضوية، كيميائيا. ويقتصر الفرق بين ما هو عضوى وما هو غير عضوى، على أن ترتيب هذه العناصر لتكوين الجزيئات العضوية، يختلف عن ترتيبها لتكوين الجزيئات غير العضوية، وأن كان التكوين، فى حد ذاته، يخضع فى كلتا الحالتين إلى نفس القوانين.

ولقد كان العالم الألمانى بفليجر (Pflüger)، هو أول من حاول عام ١٨٧٥، أن يجد بالتجربة العملية ما عسى أن يكون قد حدث على سطح الأرض فى الأزمان السحيقة،

أى عند بداية الحياة الأولى، وذلك بالبحث عن طريقة تكوين الجزيئات العضوية من عناصر كيميائية غير عضوية. وبالرغم من أن أخطاء قد ظهرت، مع مرور الزمن، فى تجربة بفليجر، إلا أن الفضل فى توجيه البحوث إلى هذه الناحية، يرجع إليه وحده، إذ كان هو أول من نبه إلى ضرورة إجراء تجارب كتجربته، لكيما يتسنى أن تؤخذ «نظرية بداية الحياة الأولى» على محمل الجد. ومجمل القول أن أنصار هذه النظرية فشلوا مرتين، حتى ذلك الوقت، فى تقديم دليل عملى يعززها، كما أن فشلهم الأول كان على يد بفليجر، وفشلهم الثانى كان على يد هيكل، كما أسلفنا.

ثم كانت، بعد ذلك، محاولة ثالثة لدعم هذه النظرية، محاولة بنيت على أسس علمية أكثر جدية عما سبقها بكثير، ونعنى بذلك تلك المحاولة التى قام بها رختر (Richter)، عام ١٨٧٠، ثم استكملها هلمهولتز (Helmholtz)، من بعده، بالبحث والتنميق، وبيان ذلك فيما يلى :

بدأ هلمهولتز بحوثه من فرض تقره العلوم الحديثة اليوم، ألا وهو أن الكرة الأرضية كانت، فى أول أمرها، كرة ملتهبة، ولقد استمر لهيبها فترة من الزمان، انعدمت خلالها جميع أنواع الحياة، بطبيعة الحال، فوقها. ولابد وأن تكون حرارة هذه الكرة الملتهبة قد انخفضت، بعد ذلك، إلى القدر الذى يسمح بسيولة الماء على سطحها، على الأقل، وذلك قبل إمكان نشوء أى نوع من أنواع الحياة على هذا السطح. أما سبب ذلك فيرجع إلى أن وجود الماء هو الشرط الأساسى لوجود الحياة، فالماء يدخل فى تركيب كل كائن حى بنسبة الثلثين تقريبا، كما هو معلوم. ثم يستطرد هلمهولتز، قائلا بأنه إذا كانت جهودنا، لخلق الأحياء من الجماد، قد فشلت، حتى الآن، فأنه يجب علينا أن نتساءل عما إذا كانت الحياة قد نشأت بالفعل على سطح الأرض، فى أى وقت مضى؟ وأن نتساءل أيضا عما إذا كانت الحياة ليست قديمة قدم المادة نفسها؟ وأخيرا أن نتساءل : «ولم لا تكون للحياة بذور أو جراثيم، تتنقل بين كواكب السماء، بحيث لا تزدهر الحياة إلا فى تلك الكواكب، التى تتوافق ظروفها الطبيعية مع ما للكائنات الحية من مطالب؟»

يظهر مما تقدم أن ما تصوره هلمهولتز لا يتفق، فى جوهره، مع ما تنص «نظرية بداية الحياة الأولى» عليه، إذ يرى هذا العالم النابه أن الكواكب العامرة بالحياة تلفظ ما يسمى كوزموزات (Kosmozoen)، أى بذور الحياة أو جراثيمها فتهيم هذه فى الكون على وجوهها، حتى تلتقى بكوكب ما، تتوافق ظروفه الطبيعية مع ما للأحياء من مطالب، فتنزرع هذه البذور على سطحه، وتنبت حياة جديدة على هذا الكوكب. وبعد ازدهار الحياة عليه، يلفظ هو الآخر بذورا جديدة، لا تلبث أن تنبت الحياة على كوكب مناسب آخر، وهكذا دواليك.

ولعله من المفيد أن نقارن الآن بين «نظرية بداية الحياة الأولى» وبين رأى هلمهولتز، فى عبارة سهلة مبسطة. فبينما تنص هذه النظرية على أن الحياة كانت قد نشأت على كوكبنا من الجماد، وذلك بعد أن توافرت الظروف المواتية لذلك، يرى هلمهولتز أن استمرار الحياة فى هذا الكون، هو نتيجة لنوع من التناسل بين كواكب معينة، يحدث فى مدد أزلية فى طولها. وبذا، فليست الأرض إذن، هى أم الحياة، التى ازدهرت على سطحها، بل هى لا تعدو أن تكون مرضعة، تعهدت بذور الحياة، التى وصلت إليها من كوكب آخر، بالغذاء، وذلك دون أن تلد الأرض هذه البذور، فى أى وقت مضى.

وعلى أساس ما تقدم، يصبح تبرير هيكل «لنظرية بداية الحياة الأولى»، على أنها ضرورة فكرية تبريرا لا قيمة له. غير أن ذلك لا يعفينا، بحال من الأحوال، من بحث أقوال هلمهولتز بحثا علميا معززا بالتجارب، وذلك لكى نعرف نصيب هذه الأقوال من الصحة، إذ أنها أقوال بنيت على تصورات يعوزها الأثبات، ولنبادر بذلك فيما يلى :

نعلم من دراساتنا للكون، حتى الآن، أنه يتعين على بذور الحياة أو جراثيمها، أن تتعرض، أثناء انتقالها فى الكون، لظروف أقل ما يمكن أن يقال فيها، هو أنها ظروف شديدة العداء لأى نوع من أنواع الحياة، ولذا فإن أول سؤال يواجهنا، فى هذا الصدد، هو عما إذا كانت هذه البذور قادرة على المحافظة على حياتها أثناء تلك الفترات الزمنية الطويلة، التى تتعرض فيها لظروف الكون الشديدة العداء لحياتها؟ والجواب على ذلك أنه قد ثبت منذ أمد بعيد، أن جميع الأحياء تقريبا، فيما عدا الحيوانات الفقرية والأنسان، تمتلك قدرة عجيبة، ألا وهى تلك القدرة على إيقاف كل ما تتطلبه حياتها من تفاعلات كيميائية وعمليات تنظيمية حيوية، فى باطنها، وذلك بصفة مؤقتة، أو بعبارة مبسطة، أن هذه الأحياء، قادرة على إيقاف ساعة حياتها مؤقتا، وذلك عندما تتعرض لظروف طبيعية خارجية لا تلائم حياتها. كما أنه من

الثابت أيضا، أن هذه الأحياء قادرة كذلك على تسيير ما تتطلبه حياتها من تفاعلات كيميائية وعمليات تنظيمية في باطنها، مرة ثانية، وذلك بمجرد تحسن الظروف الخارجية المحيطة بها، الى درجة تجعلها ملائمة لحياتها. ومجمل القول أن هذه الأحياء لها قدرة التظاهر بالموت، لفترات زمنية معينة، أو كما اصطلح العلماء على تسمية مثل هذه الحالة، قادرة على الحياة «حياة كامنة» تمكنها من عبور الفترات، التى تتعرض حياتها فيها للخطر، بسـلام.

ولقد تبين أيضا، أن لهذه الأحياء القدرة، على أن تحيا حياة كامنة، عندما تتعرض لدرجات حرارة الكون الشديدة الانخفاض، على أن يكون ذلك خلال فترات زمنية قصيرة فقط. أما الدليل على صحة ما نقول، فهى تجارب أجريت على ميكروبات السل لهذا الغرض، عرضت فيها هذه الجراثيم لدرجة (٢٧٢ —) مئوية، أى لتبريد يكاد يصل فى شدته إلى الصفر المطلق، وكان ذلك لفترات تتراوح بين بضع ساعات وبضعة أيام، ثم استنبتت وربيت سلالات قوية، بعد ذلك، من الجراثيم المبردة، وكان ذلك بعد تدفئتها بحذر.

ولا تقوى الجراثيم على احتمال درجات الحرارة المرتفعة، وبذا فقد أخطأ هلمهولتز الصواب، عندما تصور أن جراثيم الحياة أو الكوزموزات، كانت قد وصلت إلى كوكبنا مع ما وصل اليه من نيازك، فى الأزمان الغابرة، إذ أن النيازك تتوهج، كما هو معلوم، عندما تسرع فى غلاف الكرة الأرضية الجوى، بفعل الجاذبية. ومن جهة أخرى، فإنه لا يمكن، أن تكون جراثيم الحياة قد وصلت إلى الكرة الأرضية، قبل تكوين غلافها الجوى، أذ أن مصير كل كائن حى كان قد وصل إلى سطح الأرض، قبل تكوين غلافها الجوى، لهو الفناء العاجل المحقق، وذلك بفعل الأشعاعات الكونية الشديدة، التى تمتصها طبقات الجو العليا، منذ أن كان للأرض غلاف جوى. وهذه قاعدة عامة، إذ لا يمكن أن تزدهر الحياة على أى كوكب سماوى، بدون وجود غلاف جوى حوله، يمنع الاشعاعات الكونية من الوصول الى سطحه، وذلك بامتصاصها.

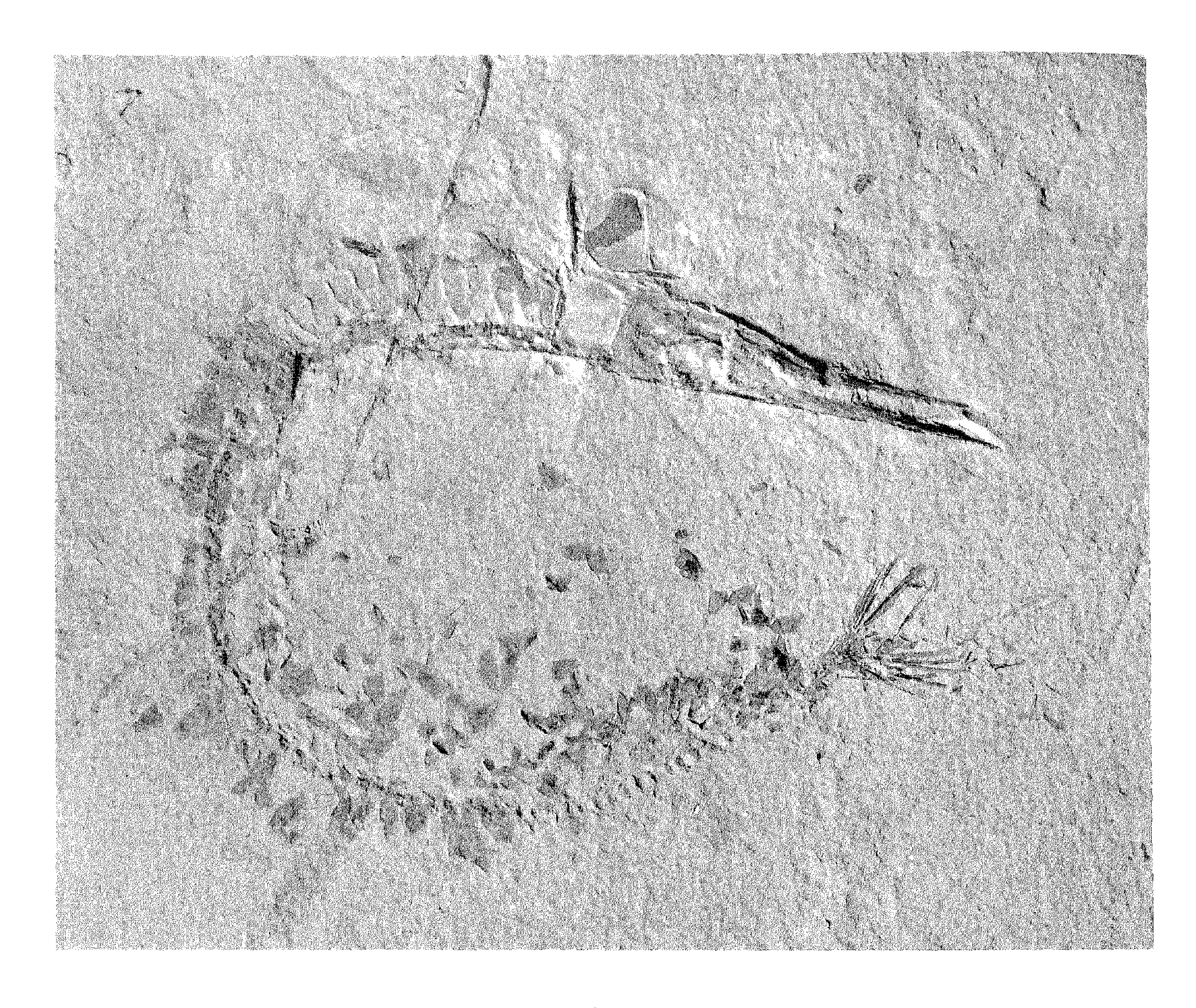
وينتج عن هذه القاعدة العامة صعوبة ثانية تقف عثرة فى سبيل إثبات صحة نظرية الكوزموزات، ألا وهى عدم وجود كواكب تقرب من الأرض قربا كافيا، ولها أغلفة جوية، وتسمح ظروفها الطبيعية، فى الوقت نفسه، بازدهار الحياة على سطوحها. ويمكن، مع التساهل، استثناء بعض كواكب مجموعتنا الشمسية مما تقدم، غير أن هذه الكواكب كانت، هى الأخرى، فى ظروف طبيعية غير ملائمة للحياة، فى نفس الوقت الذى كانت الأرض فيه كذلك، ولذا فلا يمكن اعتبار هذه الكواكب صالحة لأثبات تصورات هلمهولتز. لما تقدم، لا يبقى أمامنا، سوى أن نفرض أن جراثيم الحياة كانت قد انتقلت الى الكرة الأرضية من كوكب بعيد، لا ينتمى إلى مجموعتنا الشمسية. غير أن هذا الفرض يثير، بدوره، مشكلة جديدة، ألا وهى طول الفترة الزمنية اللازمة لأنتقال جراثيم الحياة من هذا الكوكب البعيد إلى الأرض، وذلك حتى مع الفرض، بأن هذه الجراثيم أو البذور كانت قد انتقلت فى الكون بسرعة الضوء، كما فعل لبدوف (Lebedew)، وهذا نظرا لأن فترات حياة الأحياء حياة كامنة، ليست سوى مددا قصيرة جدا، بل هى مدد متناهية فى القصر، إذا ما قورنت بالمدة اللازمة لانتقال جراثيم الحياة، على أساس الفروض السابقة. ولقد بقيت نظرية الكوزموزات (Kosmozoentheorie)، وهى النظرية الثانية لنشوء الحياة على كوكبنا، بناء على ما تقدم، مجرد تصورات مشكوك فى صحتها للغاية، وذلك كما كانت فى أى وقت مضى.

ولقد كان لما أوجزناه من بحوث، بعاليه، أثره، فصرف الناس النظر عن «نظرية الكوزموزات» وعادوا، حديثا، إلى «نظرية بداية الحياة الأولى» مرة ثانية، ولكنهم عادوا، فى هذه المرة، مسلحين بكل المكاسب العلمية، التى أحرزت، أثناء القرون الماضية، فى علوم الكيمياء والفيزياء وعلم الحياة. وإنا لا نجادل فى قيمة المنجزات الجدية العلمية، التى تحققت أخيرا، كما أننا لا نجادل، أيضا، فى قيمة التجارب العملية، التى أجريت، حديثا، بنجاح، ونقصد بذلك، تلك المنجزات والتجارب، التى تمت تعزيزا لهذه النظرية، غير أن ما يعنينا، فى المحل الأول هنا، هو التساؤل، بحق، عما يلى :

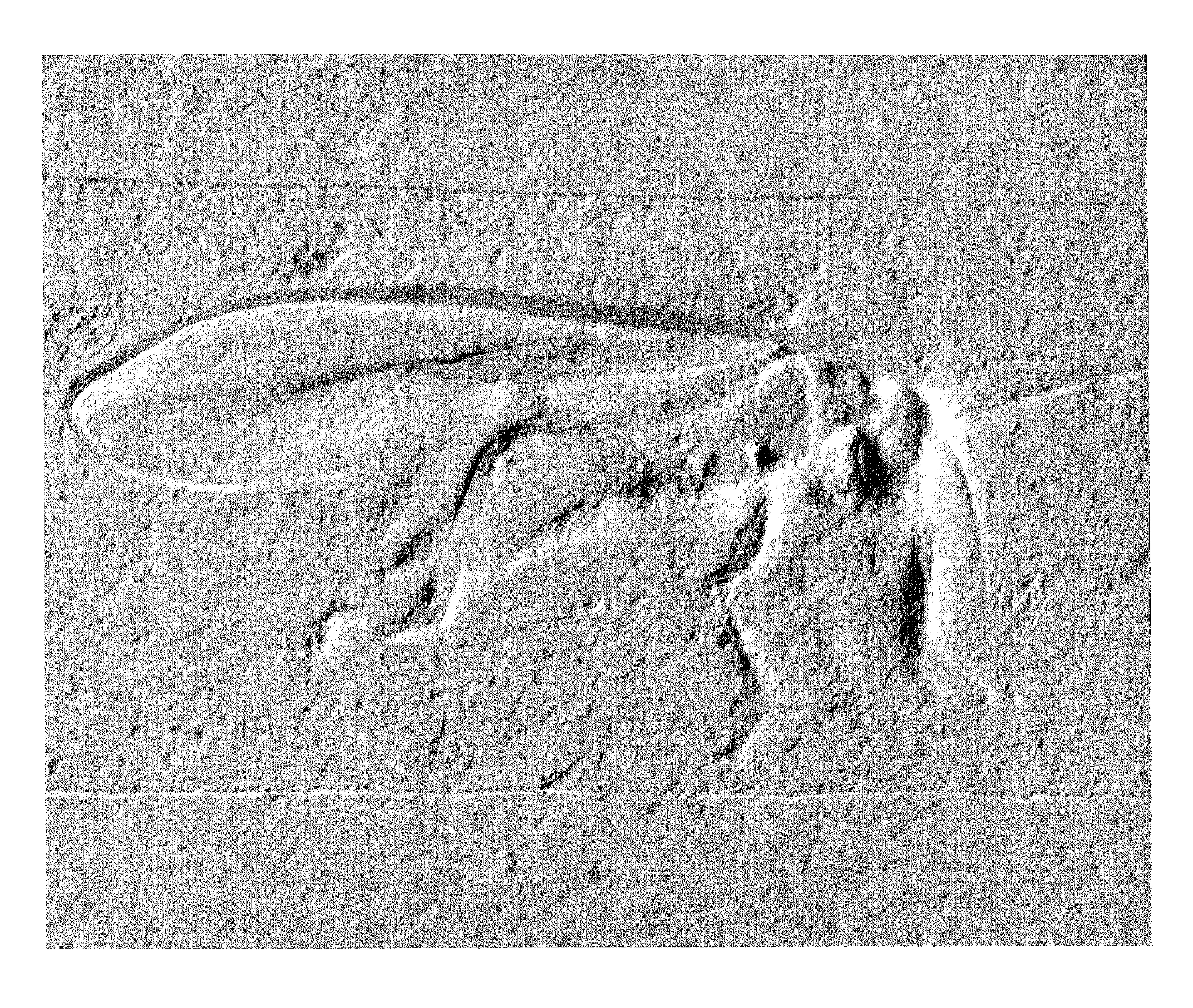
هل تكفى الانجازات العلمية والتجارب العملية، التى نجحت حتى الآن، لكيما يحق لنا القول، بأن «نظرية بداية الحياة الأولى» كافية لحل معضلة بداية الحياة الأولى على كوكبنا، حلا شاملا ناجزا لا يتطرق اليـه أى شك؟

وللإجابة على هذا السؤال، ذو الأهمية العظمى، نبدأ بتلخيص بعض ما قام به العالم الروسى أپارين (Oparin) من بحوث، وذلك لسببين :

الأول : هو أن ادعاء البعض بأن معضلة بداية الحياة الأولى قد حلت بالفعل يعتمد، فى جوهره، على نتائج هذه البحوث.



البولونوستوموس سبيك .Belonostomus spec نوع من الأسماك القديمة عثر عليه فى الطبقات الجيرية بـ«سولنهوفن»، ويبلغ طوله ٣٤سم.



البيكنوفليبيا سبكيوزا Pycnophlebia speciosa عبارة عن صنف من الجراد عثر عليه فى الطبقات الجيرية ب «آيشتيت»، وكان طول هذه الجرادة ١٤سم.

الثانى : أن دراسة هذه البحوث تعد طريقة مثلى، لكيما يتسنى للأنسان ٱلتمييز بين الأحياء والجماد، تمييزا علميا صحيحـا.

وليس من شك، أن أپارين كان فى بحوثه هذه فى غاية الحذر، إذ أنه حرص فيها، أشد ٱلحرص، على فصل كل خطوة من خطوات تحول ٱلمواد غير ٱلعضوية، أى ٱلجماد الذى لا حياة فيه، إلى مواد عضوية، تدب ٱلحياة فيها، فصلا تاما. ثم انه عكف، بعد ذلك، على دراسة إمكانيات حدوث كل خطوة من هذه ٱلخطوات، على ضوء أحدث ما توصل العلم إليه، وقت القيام بهذه البحوث. وفى رأى أپارين، أن أولى الخطوات، عند بداية ٱلحياة ٱلأولى، كانت تكوين مواد كيميائية عضوية بسيطة فى تركيبها نسبيا، أى مواد عضوية صغيرة ٱلجزيئات، كتلك ٱلتى يصادفها الباحث، فى ٱلأحياء مفردة، فى بعض ٱلأحيان، أو يصادفها كوحدات، قائمة بذاتها، تدخل فى تركيب ٱلمواد ٱلمعقدة، أى فى تركيب ٱلمواد العضوية كبيرة ٱلجزيئات، كما هو الحال فى الزلاليات، على وجه ٱلخصوص. فأذا ما أخذنا فى ٱلأعتبار، أن ٱلزلاليات من أهم ٱلمواد، التى يتركب الكائن الحى منها، لوجدنا أن أول خطوة حدثت، عند بداية ٱلحياة ٱلأولى، كانت تقتصر على تكوين ٱلأحماض ٱلأمينية (Aminosäuren)، وهى مركبات عضوية صغيرة ٱلجزيئات نسبيا، تدخل فى تركيب ٱلزلاليات، كما أنها تتكون، كما هو معلوم، من ترتيبات كيميائية معينة من جزيئات ٱلأيدروجين والكربون وٱلأكسوجين، كما أنها تحتوى أيضا على جزيئات من ٱلآزوت.

ولقد فرض أپارين، أن ٱلكرة ٱلأرضية كانت قد بردت بقدر يسمح بتكوين محيط من ٱلماء فوق سطحها، وكذا بتكوين غلاف جوى بدائى، به بخار ٱلماء، فوق هذا ٱلمحيط، وذلك لتمكين ٱلخطوة ٱلأولى من ٱلحدوث، أى لكيما يمكن تكوين أحجار بناء الزلاليات، من مواد غير عضوية. وهذا الفرض يختلف عما ذهب اليه بفليجر، من أن تكوين ٱلأمينيات، وإن شئت، تكوين أحجار بناء الزلاليات، كان قد حدث وٱلأرض مازالت كرة ملتهبة. ويستطرد أپارين فى بحثه قائلا، أن ٱلمنبع، الذى كانت هذه ٱلمركبات العضوية البسيطة قد استمدت طاقة تكوينها منه، لم يكن إلا تفريغات كهربائية، بالأضافة الى طاقة ٱلأرض ٱلحرارية نفسها، التى كانت، وقت بداية ٱلحياة ٱلأولى، لا تزال كبيرة جدا. ومن ٱلطريف أن نسجل هنا، أن ذلك الذى كان أپارين يظن، منذ بضع سنوات فقط، أنه شىء فى حيز ٱلأمكان فحسب، قد ثبت فعلا على يد البحاثة ٱلأمريكى ستانلى ملر (Stanley Miller) وذلك بالتجربة العملية، التى أجراها عام ١٩٥٣، والتى تتلخص فيما يلى :

خلط ملر فى جهاز كروى مغلق معقم، خليطا بنسب معينة، من غاز ٱلمناجم (الميثين) ومن النوشادر ومن ٱلأيدروجين ومن بخار ٱلماء، وهى نفس ٱلمواد، بنفس النسب، التى يرجح علماء ٱلفلك أن غلاف الكرة ٱلأرضية كان يتركب منها، فى ٱلأزمان الغابرة. ثم جعل ملر جهازه هذا، بما فيه من خليط، يدور حول محوره، ثمانية أيام، دأب فيها على تسخين جهازه ثم تبريده، وعلى تفريغ شحنات كهربائية فى محتوياته. وبعد هذه ٱلأيام الثمانية، اكتشف ملر وجود مواد عضوية صغيرة الجزيئات نسبيا، فى الخليط، من بينها كثير من ٱلأحماض ٱلأمينية، أى كثير من أحجار بناء الزلاليات.

ونظرا لما حققه ملر من نجاح، بتجربته، يحق للأنسان أن يفرض صحة ما ذهب أپارين اليه فى تفكيره، من أن خليطا من عدد كبير من ٱلمركبات العضوية، صغيرة ٱلجزيئات نسبيا، كان قد تكون فى المحيطات والبحار البدائية، ومن أن هذه ٱلمركبات كانت ذائبة فى مياهها.

ومع التسليم بما عسى أن يكون للنتائج، التى توصل ملر اليها من فوائد، فى المستقبل (إذ قد يصبح لها شأن كبير فى صناعة ٱلأغذية مثلا)، إلا أنه لا يصح، بحال من ٱلأحوال، أن تعتبر هذه النتائج إثباتا قاطعا ناجزا «لنظرية بداية ٱلحياة ٱلأولى»، إذ لازال إثبات هذه النظرية، يتطلب نجاح تجارب عملية أخرى، وذلك لأثبات خطوات عديدة تالية لخطوة ملر.

ونظرا إلى حالة اللاتكون (ٱلفوضى)، التى نشأت عليها ٱلمركبات العضوية صغيرة ٱلجزيئات، فى جهاز ملر، فى رأينا أن تكون ٱلخطوة التالية لذلك، هى إجراء تجارب عملية تهدف الى التخلص من اللاتكون، أى تهدف إلى تجميع ما صلح من هذه المواد مع بعضه، تجميعا كيميائيا، وذلك بحيث يتكون منها، فى النهاية، مركبات عضوية كبيرة ٱلجزيئات (ذات ماكرو جزيئات). وكبر ٱلجزيئات هو ما تتميز به المواد العضوية، التى تدخل فى تركيب الكائنات ٱلحية، عن غيرها، وما تتميز به الزلاليات، على وجه التحديد.

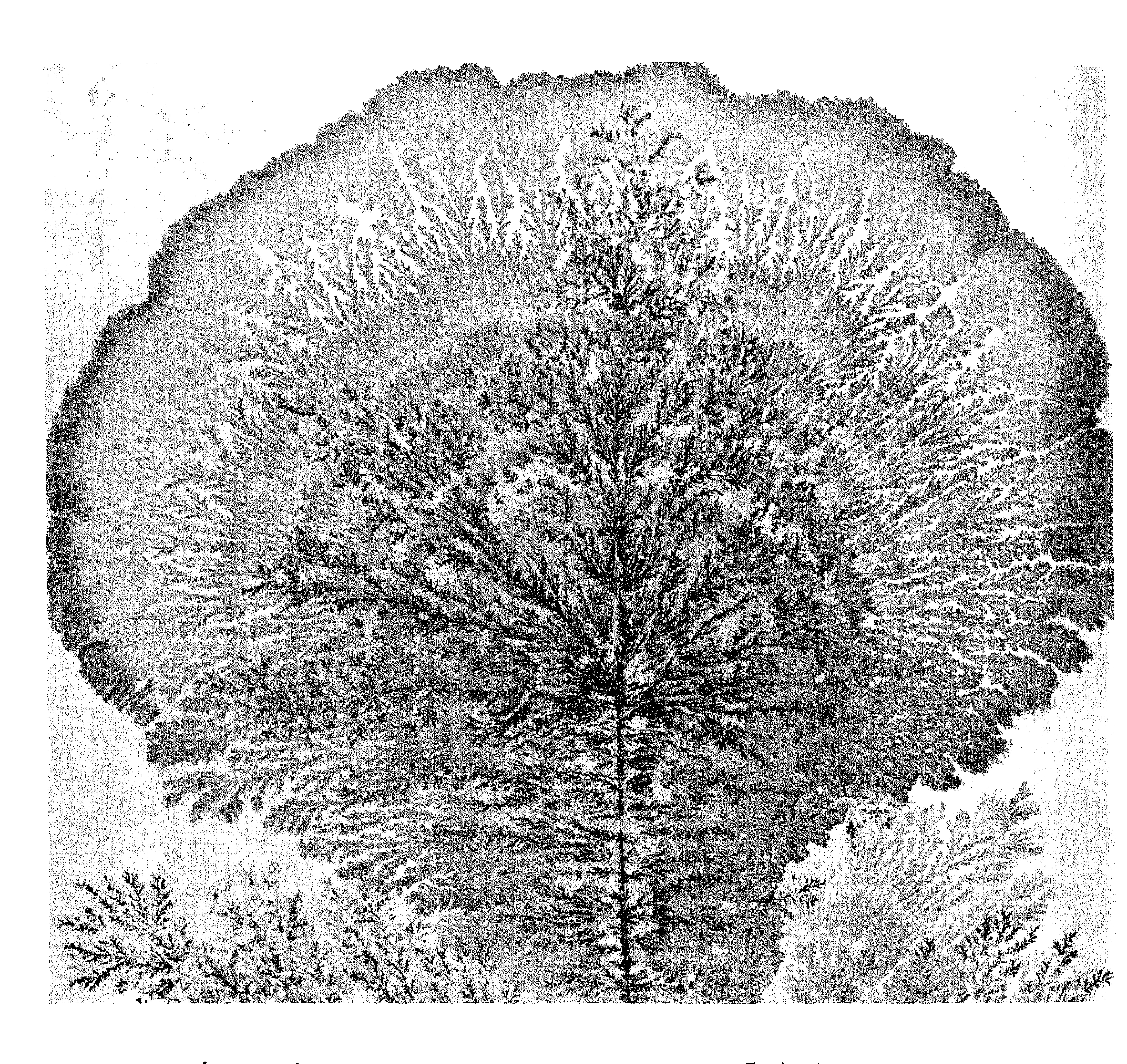
وجدير بالذكر، أنه من العسير أن تكون الطاقة ٱللازمة لتكوين الزلاليات، من مواد عضوية صغيرة ٱلجزيئات، كانت قد نبعت، عند بداية ٱلحياة ٱلأولى، من تفريغات

كهربائية أو من حرارة ما كان حولها من مواد وكائنات، وذلك نظرا لأن ما ينشأ من زلاليات، بهذه الكيفية، لا يكون مستقرا، ولا يبقى على حاله. غير أنه من الجائز، أن تكون هذه الطاقة قد وجدت فيما بعد، أى بعد أن انخفضت درجة حرارة الأرض انخفاضا كافيا لانطلاق هذه الطاقة من تحلل ما زاد عن الحاجة من مواد عضوية، صغيرة الجزيئات، كانت ذائبة فى المحيطات والبحار البدائية. وجدير بالذكر أن الطاقة تنطلق بهذه الكيفية فى الخلية الحية، وبذا فأن تكوين ماكروجزيئات (أو زلاليات) ممكن، فى الواقع، طالما استمدت الطاقة اللازمة لذلك من تحلل مواد عضوية صغيرة الجزيئات. ويهمنا أن نشير هنا إلى أن الصناعة لم تنجح حتى اليوم فى تركيب الزلاليات تركيبا اصطناعيا، ولكنها نجحت، كما هو معلوم، فى تركيب ماكروجزيئات مواد ليفية معينة، تركيبا اصطناعيا، وعلى هذا الأساس تقوم بالفعل صناعات ضخمة، فى الوقت الحاضر.

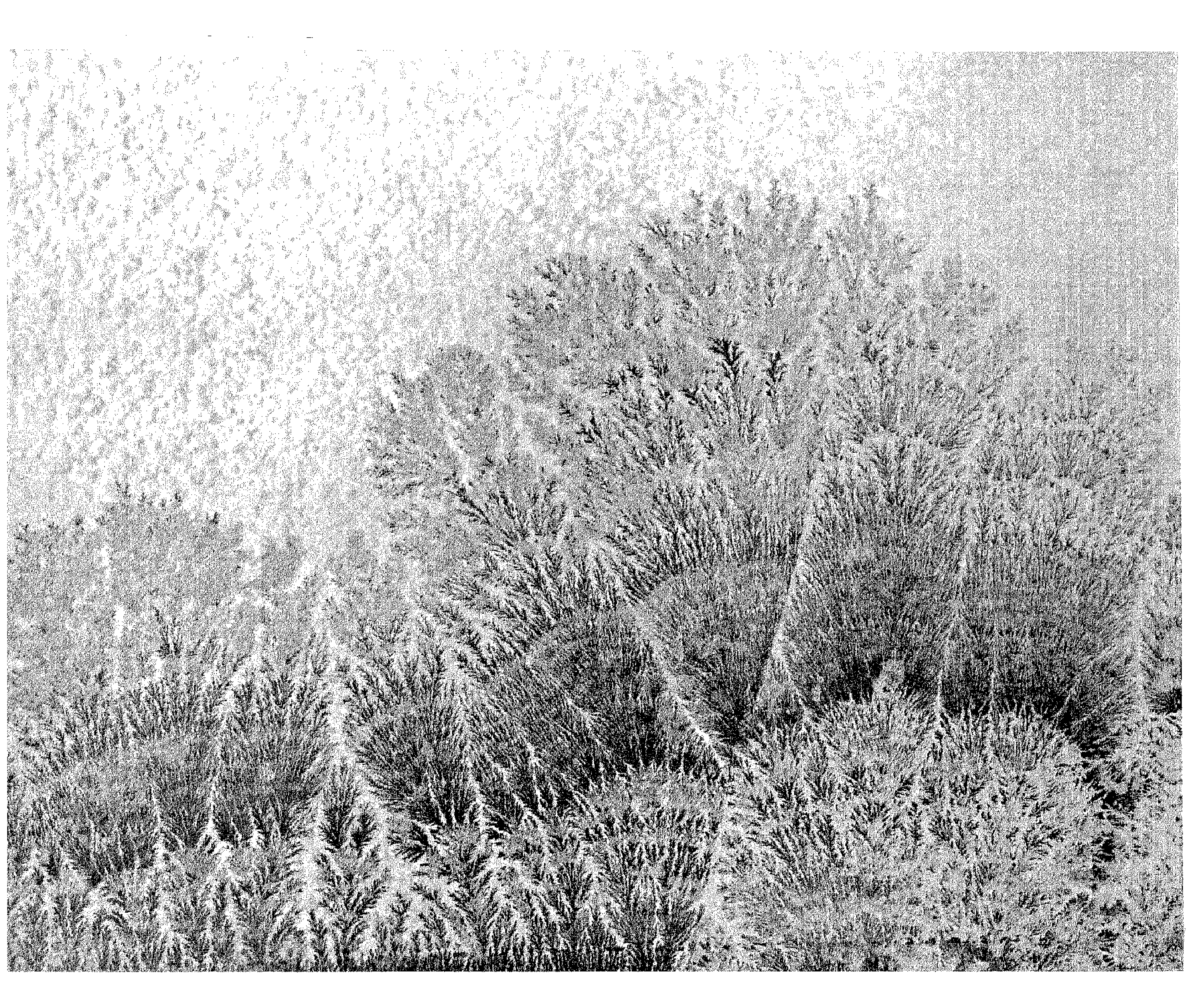
وهناك فرق أساسى هام بين ما يركبه الأنسان من مواد ليفية، تركيبا اصطناعيا، وبين الألياف، التى تتكون فى الكائنات الحية بفعل الطبيعة، إذ ينقص جزيئات الألياف الصناعية أنظمة خاصة، انفردت بها جزيئات الألياف الطبيعية، وأصبحت مميزة لها. هذا، ويزداد الاعتقاد، يوما بعد يوم، أن أنظمة تكوين الماكروجزيئات، هى الفيصل، الذى تتميز بـه الكائنات الحية عن الجماد، إذ تخضع ماكروجزيئات الأحياء لقواعد تنظيمية خاصة بها، لا توجد فيما عداها، وبيان ذلك فيما يلى :

يتركب كل ماكروجزئ من عدد معين من الوحدات، ملضومة مع بعضها مثل حبات العقد أو مثل حلقات سلسلة طويلة، فأذا ما شبهنا ماكروجزئ الألياف الطبيعية مثلا، بسلسلة منمرة الحلقات، لوجدنا أن الاحماض الأمينية المختلفة تدخل فى تركيبه بنظام إيقاعى معين، أشبه ما يكون بالأيقاع الموسيقى، ففى سلاسل كهذه تتكون كل حلقة رقمها ٢ من حمض أمينى بذاته، كما تتكون كل حلقة رقمها، من حمض أمينى من نوع ثان، وكذلك كل حلقة رقمها ١٦ من حمض أمينى ثالث، وأخيرا كل حلقة رقمها ٢١٦ من حمض أمينى رابع. هذا ولازالت كيمياء الألياف الصناعية، حتى اليوم، عاجزة عن صنع مواد يتميز بناء ماكروجزيئاتها بنظام مماثل لهذا النظام الأيقاعى، الذى يتحكم فى بناء ماكروجزيئات الألياف الطبيعية. زد على ذلك، أن تكوين الزلاليات، التى تشترك بالفعل فى إنجاز التفاعلات الكيميائية والعمليات التنظيمية الحيوية، يخضع لتنظيمات فراغية، أشد تعقيدا من النظام البسيط، الذى تحدثنا عنه بعاليه. ولذا، فلازال العلماء عاجزين، حتى الآن، عن مجرد تصور الطريقة، الفيزيقية الكيمائية، التى عسى أن كانت المركبات العضوية، المنظمة فى بناءها تنظيما معقدا كهذا، قد تكونت بها من تلك المركبات العضوية، صغيرة الجزيئات، التى لا شك كانت موجودة فى المحيط البدائى، فى حالة لا تكون، أى فى حالة من الفوضى ومن عدم النظام. ولقد تبين أپارين ذلك، فما بقى له سوى، أن يهرع إلى «مبدأ بقاء الأصلح»، الذى تقوم نظرية داروين (Darwin) عليه، وذلك لكى ينقذ بـه ما عسى أن يتاح له أن ينقذه من «نظرية بداية الحياة الأولى»، متبعا فى ذلك نفس الخطوات التى اتبعها داروين من قبله. فبينما حاول داروين، أن يعلل نشوء أنواع جديدة من الكائنات الحية بما ادعاه من «تنازع البقاء» بين أنواع كثيرة من الاحياء، ومن بقاء النوع الأصلح منها، فقط، للحياة فى الظروف المحيطة به، حذا أپارين حذوه قائلا، بأن ماكروجزيئات الزلاليات، بترتيب أحجار بنائها الحالى، كانت قد بقيت دون غيرها، لأنها كانت هى الأصلح للبقاء من بين ترتيبات أخرى، لا حصر لها، تكونت من الاحماض الأمينية، التى كانت موجودة فى المحيط البدائى.

وأهم اعتراض على نظرية داروين، التى تقوم على اختيار الأصلح، هو أنها لا تتمشى مع الاحتمالية (Wahr-scheinlichkeit) بحال من الأحوال. ويمكن بل يجب توجيه هذا الاعتراض الهام، وهناك غيره، بنفس القوة، بل أشد، الى محاولة أپارين تطبيق نظرية داروين على تكوين الزلاليات، وقت بداية الحياة الأولى. وإنا وإن كنا لا نعلم، إلى اليوم، كيف كانت الزلاليات قد نشأت، عند بداية الحياة الأولى، بهذا الترتيب المعقد المميز لها، فأن حل هذه المشكلة لا يعتبر مستحيلا، من حيث المبدأ، بل إننا قد نصل بالبحث، يوما ما، إلى أكثر من ذلك، أى أننا قد ننجح فى تركيب الزلاليات صناعيا، فى المستقبل. وحتى إذا ما كتب هذا النجاح لنا، فأننا نؤكد، أن معضلة الحياة الأولى سوف تبقى، على الرغم من ذلك، بدون حل، كما كانت، إذ ليست الزلاليات حياة قط، كما أنها لا تقوى على الحياة بمفردها، بما فى ذلك الزلاليات النووية أو النيوكليوپروتيدات (Nucleo-proteide)، وهى أرقى أنواع الزلاليات الطبيعية، التى نعرفها (أى أن تنظيم ماكروجزيئاتها هو أرقى تنظيم معروف للزلاليات). وتلك حقيقة ثبتت من أحدث



رسوم متفرعة على الحجر فى «آيشتيت» بمقاطعة باڤاريا. وهى ليست عبارة عن نباتات الخنشار كما يتراءى لأول وهلة، وإنما نجمت عن رواسب محاليل مكونة إما من ثانى أكسيد المنجنين أو أكسيد هيدرات الحديد. وفى الحالة الأولى يكون لون الراسب أسود، وفى الثانية بنيا.



رسوم متفرعة على الحجر من «آيشتيت»، بمقاطعة باڤاريا.

التجارب، التى أجريت على الفيروسات (Viren)، أى على أضأل الكائنات، التى تثير الأمراض المعدية.

وتتكون أبسط أنواع الفيروسات، التى تسبب مرض بعض النباتات، كشجرة التبغ مثلا، من الزلاليات النووية دون غيرها، ومع ذلك تتبلور فيروسات التبغ، فتصبح شبيهة بملح من الاملاح، دون أن تفقد قدرتها على العدوى. ولما كانت الفيروسات تتكاثر بشدة، فى حالة العدوى، وكانت القدرة على التكاثر إحدى الخواص، التى تتميز الأحياء بها، عن الجماد، فلا غرو، أن اعتقد بعض الناس، ولا زال قليل منهم يعتقدون، أنهم وجدوا فى هذه الفيروسات المتبلورة، تلك الحلقة الوسيطة، التى تربط ما بين الحى والجماد، تلك الحلقة، التى طال البحث عنها بجهد كبير، دون جدوى. على أنه يهمنا أن نشير هنا، الى أن بعض العلماء النابهين، وعلى رأسهم بوتناندت (Butenandt)، قد تحولوا، أخيرا، عن هذا الاعتقاد تحولا ظاهرا.

أما سبب تحول هؤلاء العلماء عما كانوا يعتقدون، فيرجع الى ما نعلمه، الآن، من أن الفيروسات لا تقوى على القيام، ذاتيا، بعملية حيوية واحدة من العمليات، التى تتميز الأحياء بها، وهذا فى حين أن الأحياء تنجز كل هذه العمليات، بنفسها، دون الحاجة الى وسيط. وبعكس الخطأ الشائع، لا تقوى الفيروسات على التكاثر ذاتيا أيضا، أذ أن وجود خلية حية، هو شرط أساسى لكيما تتمكن الفيروسات من التكاثر، ولا يمكنها أن تتكاثر بدونه. وبيان ذلك، أن الخلية الحية لا تأوى سوى الأحماض النووية (Nucleinsäuren) الموجودة فى جزئ الفيروس، كما أن زلاليات هذا الجزئ تبقى خارج الخلية الحية. ثم تتحكم أحماض الفيروس النووية، بعد ذلك، فى عملية التحول الغذائى (Stoffwechsel) للخلية، وذلك بحيث لا ينتج هذا التحول الزلاليات اللازمة لحياة الخلية نفسها، بل ينتج، عوضا عن ذلك، زلاليات الفيروس، التى لا تمت للخلية بصلة. ثم تتكاثر الفيروسات بالخلية، نظرا لوجود أحجار بناء الفيروسات بداخلها، مما يؤدى الى موت الخلية، بطبيعة الحال، وبذا تنطلق هذه الفيروسات لكى تتكاثر، من جديد، فى خلايا حية أخرى.

فليست الفيروسات، إذن، هى ما يصح، أن تعتبر حلقة وسيطة تربط ما بين الحى والجماد، وذلك لمجرد إسناد خاصة القدرة على التكاثر إليها، وهذه الخاصة ليست سوى واحدة من خواص ومنجزات عديدة، تكون القدرة عليها، مجتمعة، ما نسميه كائنا حيا، كاملا فى تكوينه. بل لقد ثبتت، بما ذكرناه بعاليه، حقيقة كثيرا ما ظهرت صحتها، فى كثير من المناسبات الاخرى، ألا وهى أن الخواص والمنجزات الحيوية، مثل التكاثر، والتحول الغذائى، ومعدل توليد الطاقة، وما شابهها، تكون فى مجموعها وحدة متكاملة، لا سبيل إلى الفصل بينها، كما أن كل واحدة منها تتوقف على الخواص والمنجزات الأخرى، وتؤثر عليها.

نستخلص مما تقدم، أن الكائنات الميكروسكوپية القادرة على الحياة، ذاتيا، وإن تناهت فى الصغر أو فى البساطة، تخضع فى تكوينها لأنظمة معقدة، أشد التعقيد، تتحكم فى وظائف أجزائها المختلفة، كما نستخلص أيضا، مما تقدم، صحة تعريف الخلية، من جديد، ألا وهو أن الخلية، القادرة على الحياة ذاتيا، هى أبسط الأحياء تكوينا، وهو تعريف توصل العلماء إليه، منذ نحو قرن من الزمان.

ولقد كان للبحوث، التى أجريت على الخلية، حديثا، الفضل فى معرفة الاسباب، التى تؤدى الى عدم قدرة أى جزء، من أجزاء الخلية، على الحياة بمفرده، أى بعد فصله عن أجزاء الخلية الأخرى. ويرجع ذلك إلى أن التفاعلات، والعمليات المختلفة اللازمة لحياة الخلية تتم فى داخلها منفصلة، انفصالا فراغيا تاما، عن بعضها. فبينما تتكون الزلاليات وتتكاثر فى منطقة من الخلية بذاتها، تتم التفاعلات الكيميائية، التى تمد الخلية بالطاقة اللازمة لحياتها، فى منطقة أخرى. ولو أن هذين النوعين المتضادين، من التفاعلات، أو العمليات الحيوية، كانا مركزين فى منطقة واحدة من الخلية، لأثر كل نوع منهما فى النوع الآخر تأثيرا سلبيا، أو لأبطله كلية، ولفقدت الخلية قدرتها على الحياة، تبعا لذلك.

هذه هى الحكمة فى الفصل بين هذين النوعين من التفاعلات والعمليات الحيوية، فصلا فراغيا تاما، كما أنها هى الحكمة أيضا، فى ربط كل نوع من هذه العمليات بجزء معين من الخلية، خاص به. ولا يحسبن القارئ أن أجزاء الخلية، تكوينات دائمة ثابتة البناء، بل إنها لعلى العكس من ذلك تماما، إذ أنها تكوينات فى تغير مستمر.

ولقد ظهر جليا من تجارب أجريت حديثا، فى هذا الصدد، استعملت فيها أصباغ وإشعاعات معينة، أن الخلية تشكل أجزاءها بحسب مطالب حياتها، فهى تتناول مواد هذه الأجزاء بالزيادة، أو بالنقص أو بالتغيير، كما ونوعا، مستعينة على ذلك بالتحول الغذائى وبالتبادل المادى بين هذه الأجزاء.

وبذا يتبين لنا، أن الحياة فى أبسط تكوين، أى أن حياة الخلية المفردة، تعتمد فى جوهرها على تنظيمات معينة عديدة، وعلى علاقات محددة كثيرة، تتحكم فيما يحدث فى داخل الخلية وحولها، وهى تنظيمات وعمليات محكمة رائعة، بل إنها لغاية فى إحكامها، متناهية فى روعتها.

ولعل أهم خطوة حققتها البحوث، التى أجريت سعيا وراء الكشف عن أسرار الحياة، لهى التسليم، بلا قيد أو شرط، بأن الحياة لغز عميق، أعمق وأصعب فى حله بكثير، من مجرد البحث فى تكوين الزلاليات، سواء اقتصر هذا البحث على تكوينها وحدها، أو تعداه إلى تكوين الزلاليات بالأضافة إلى مواد عضوية أخرى أشد منها تعقيدا، كائنا ما كان عددها. ولسنا نجادل فى أن تكوين هذه المواد ضرورى، لكيما تدب الحياة فى أى كائن، ولكننا نعترض، أشد الاعتراض على ما يقال من أن هذه المواد، هى الحياة بذاتها، وهذا نظرا لأن وجودها ما هو إلا شرط يجب توافره لوجود الحياة، ليس إلا.

وحرصا منا على ما نرجوه بهذا المقال من خير، نكرر ما أسلفناه، قاصدين هذا التكرار، من أن أبسط الكائنات الحية، قد أثبت لنا على ضوء العلم الحديث، أنه تنظيم فراغى من هذه المواد، أنه تنظيم مادى جدير بكل أعجاب، تخضع جميع العمليات الفيزيقية الكيميائية، التى تقوم بها أجزائه، أو تعاينها، لتنظيم زمنى، جدير هو الآخر، بكل أعجاب وبكل إكبار. ولا يكفى ما أوجزناه بعاليه، لكى نفى الكائنات الحية ما تستحقه من إعجاب، إذ يهيمن، حتى على أبسط الأحياء، تنظيم آخر، لا يقل روعة وعظمة، عما سبق ذكره، وهو تنظيم يسخر هذه المواد العضوية كما يسخر ما يحدث بينها وما يحدث فيها من تفاعلات كيميائية، وعمليات تنظيمية حيوية، فى خدمة الكائن الحى، لكى يتمكن من القيام بتلك المنجزات التى تميزه عن الجماد، مثل القدرة على النمو وعلى البقاء حيا، وعلى التكاثر وغير ذلك. ولقد ثبت علميا، أن فاعلية هذا التنظيم العجيب لا تقتصر على منجزات الكائن الفرد الحيوية فحسب، بل تتعداه الى النوع، الذى ينتمى الفرد إليه، بأكمله.

ولا يجدر بنا، فى هذا المقام، أن نهمل الأشارة الى ما يقدمه هذا التنظيم العجيب من خدمات عديدة أخرى تيسر للأنسان، ولغيره من الكائنات الحية، القيام بمنجزات تفوق كل ما قيل، نخص بالذكر منها قدرات الأنسان ومنجزاته المختلفة، بوصفه أرقى الكائنات الحية، على الأطلاق.

وليس من شك، أن التنظيمات التى تمنح القدرة على القيام بالمنجزات الحيوية، هى فى مجموعها ما يكون جوهر الكائن الحى، وبالتالى ما يكون الحياة نفسها، إذ لا وجود لحياة بدون أن يوجد كائن حى.

وخلاصة القول، أن معضلة الكشف عن أسرار الحياة هى، كما أسلفنا، معضلة جد عميقة، معضلة لا تحلها بحوث غايتها الكشف عن كيفية نشوء مواد عضوية بذاتها، أو دراسات تهدف إلى فهم أحداث فيزيقية وتفاعلات كيميائية كانت قد حدثت فى ظروف معينة، وإنما يتركز حل هذه القضية على فهم الكيفية التى نشأت هذه التنظيمات الرائعة العجيبة بها، وبأى طريقة قد تجانست وتكاملت بحيث تصبح بها المادة، التى لا حياة فيها، كائنا حيا قادرا على القيام بكل هذه المنجزات.

هذا هو ما أراد كاتب هذا المقال أن يبينه للقراء فى المحل الأول، وبه يمكن تركيز معضلة الكشف عن أسرار الحياة بأكملها فى سؤال أخير حاسم، ألا وهو:

> هل كان نشوء الكائنات الحية، التى تتميز عن الجماد بهذه التنظيمات المتكاملة الرائعة، قسرا، وبفعل القوانين الطبيعية العامة فقط، أى بفعل تلك القوانين التى تتحكم فى كل ما فى هذا الكون، بما فى ذلك عالم الجماد؟ أم كان نشوء الكائنات الحية بفاعلية عامل حيوى منظم خاص، يفوق القوانين الطبيعية العامة قدرا، ولا ينتمى إليها، ولذا ما دبت حياة فى جماد إلا نظرا لوجوده، ونتيجة لفاعليته؟

ويؤمن أتباع المذهب الحيوى (Vitalismus) بوجود هذا العامل الحيوى المنظم، وبوجود عامل كهذا، يصبح البحث العلمى فى جوهر الحياة وأسرارها، عملا لا أساس لـه.

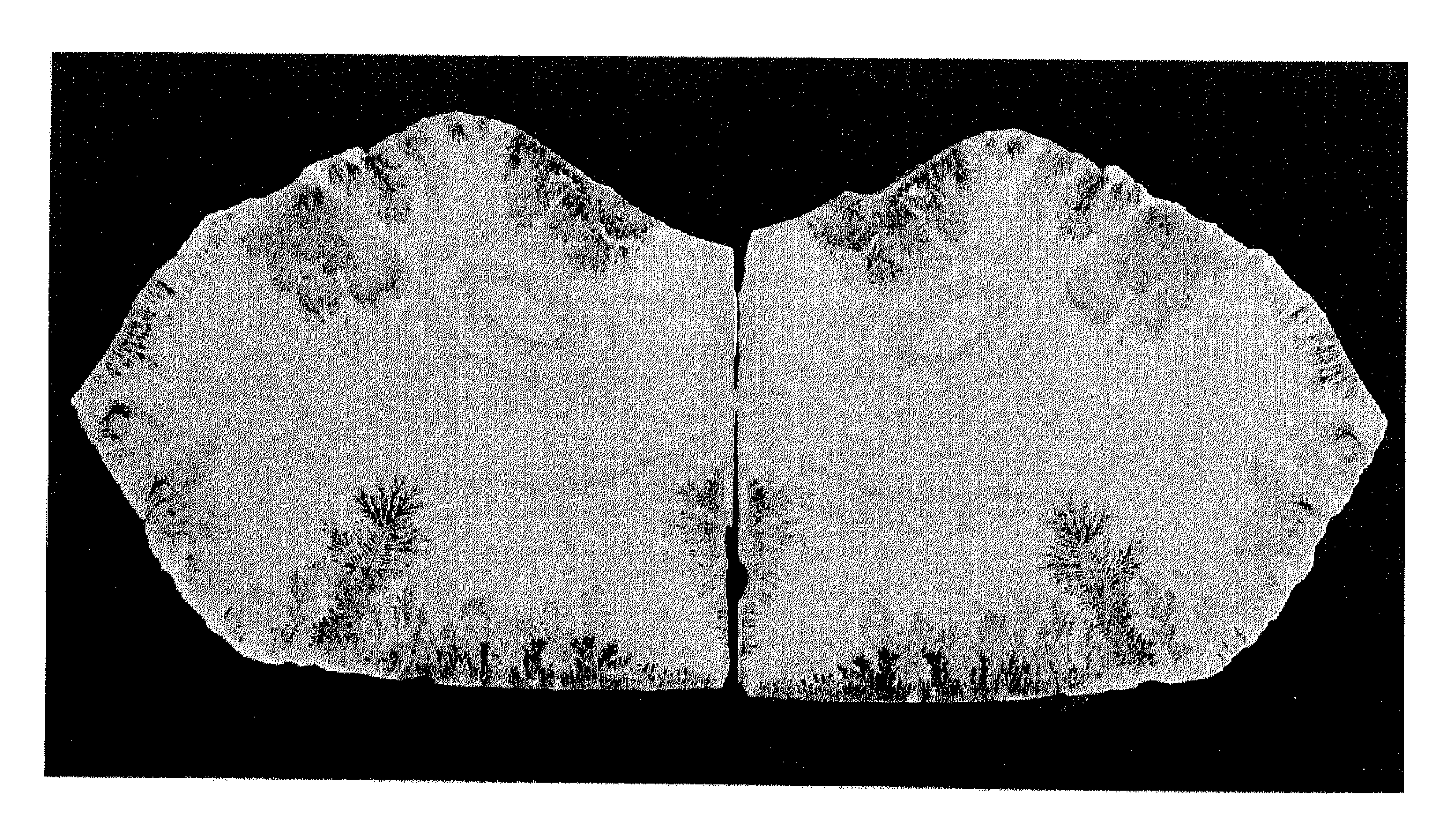
وليطلق الناس ما شاؤوا من أسماء على هذا العامل الخارجى، الذى اختلفوا فى وجوده كما اختلفوا فى تسميته، فهذا لا يغير شيئا من جوهره، إذ أنه، كما قال علامة المذهب الحيوى دريش (Driesch) نفسه، شىء مغلق علينا، لا يجوز لنا أن نتصوره فى أية صورة كانت.

أما القائلون، بأن الكائنات الحية كانت قد نشأت قسرا، أى بفعل القوانين الطبيعية العامة وحدها، وبأن هذا النشوء كان قد حدث نتيجة لظروف الأرض الطبيعية الخاصة بها، فلهؤلاء ما يدفعهم لأن يدأبوا على البحث العلمى، بصبر وبتواضع، هائبين ما هم عنه يبحثون، متقدمين خطوة بعد خطوة الى سر المعضلة الكبرى، سر الحياة.

وقبل أن نختم هذا المقال يهمنا أن نؤكد، مخلصين، أنه لا يصح أن يفسر ما ذكرناه من خلاف حول وجود «عامل حيوى منظم»، على أنه خلاف حول خلق الكائنات بالقدرة الألهيـة.
فالله، جـل شـأنه، قادر على أن يخلق الحياة بفاعلية القوانين الطبيعية العامة، وحدها، كما أنه، عز وجـل، قادر على خلق الحياة كذلك، بفاعلية «عامل حيوى منظم». هذا والحق، الذى لا مراء فيه، هو أن قدرة الخالق، تباركت أسماؤه، على خلق الكائنات، حية كانت أم لم تكن، وكذلك ما اتخذه من وسيلة عندما خلق الكائنات جميعا، هى مواضيع لا يصح أن يتناولها البحث العلمى بالدرس أو بالتمحيص مطلقا، مواضيع لا حلّ لها سوى الأيمان بالله سبحانه وتعالى، كما أنها مواضيع لا يتعرض لها البحث العلمى السليم النزيه، الذى يعرف حدوده، بالفعل. ومن جهة أخرى إذا ما التزم البحث العلمى حدوده المشروعة، يصبح للباحث، حرصا على الفائدة المرجوة من بحثه، الحق فى أن يكون حرا، غير مقيد بما نصت عليه الأديان، أو بما يدعيه الملحدون.

اقتباس : محمد عبده ابراهيم

رسوم متفرعة على الحجر من «آيشتيت» (باڤاريا). لوحتان متطابقتان من مجموعة جيورج برجر Georg Berger بضاحية هارتهوف القريبة من آيشتيت.
اللقطات المنشورة على الصفحات ٤، ٥، ٨، ١٣، ١٤، ١٧، ١٨ و ٢١ من تصوير Lilly Stunzi (زيوريخ).



ما هو معنى الحياة من وجهة نظر الكيمياء البيولوجية؟

بقلم ادولف بوتنان

كان فرانز كنوب (Franz Knoop) كيميائيا متخصصا فى العلوم الحيوية، وفى الكيمياء الفسيولوجية(٢)، على وجه الخصوص، وقد ترك هذا العالم المتوفى سنة ١٩٤٦، مقالا حدد فيه مجال البحوث فى علوم تخصصه. ويقول كنوب فى هذا المقال، الجدير بالدرس، ما يلى :

«إن أبرز صفة تتصف الحياة بها، هى أنها استمرار فى تحرك كيميائى، كان قد بدأ عند نشوء أول خلية حية، ثم استمر هذا التحرك، بدون توقف، عبر آلاف السنين، ولا زال مستمرا فى كل كائن حى، يعيش اليوم».

هذه هى أبرز صفة أو خاصة، تتميز الأحياء بها عن الجماد، من وجهة نظر عالم متخصص فى الكيمياء الحيوية، وهى تتضمن مفهومات عديدة، منها ما هو معروف، ومنها ما هو جديد، نلخصها فيما يلى :

اولا: يذكرنا وصف الحياة على أنها «تحرك كيميائى»، بأنها، فى الحقيقة، شيء لا وجود له قائما بذاته، من الوجهة النظرية البحتة، أما ما هو موجود فعلا، فهى الأحياء فقط. ومعنى ذلك أن كل التفاعلات الكيميائية، والعمليات التنظيمية، التى تنجز فى باطن الكائن الحى، وكذا جميع ما تبدو عليه من ظواهر حيوية، أو ما يقوم به من منجزات، كل ذلك مربوط الى بنية الكائن الحى، أى مربوط الى تكوين مادى كيميائى منظم محدد، تتحكم فيه تنظيمات معينة، وهو تكوين مادى نشاهده فى صور مختلفة، تتغير ما بين الخلية الفردية الحية، وبين ما ارتقى من الأحياء إلى أسمى درجات الرقى.

ثانيا: ينبهنا كنوب الى أن إنجاز كل ظاهرة أو منجز من الظواهر أو المنجزات الحيوية، كائنا ما كان نوعها، يتطلب حدوث تفاعل كيميائى بذاته، تفاعل يحدث فى هذه البنية الحية، أى أنه يتم فى داخل هذا التكوين المادى الكيميائى المنظم، أو بعبارة مبسطة، يتم فى باطن الكائن الحى. أما الأمثلة على هذه الظواهر، وتلك المنجزات فهى كثيرة، منها التحول الغذائى (Stoffwechsel) والنمو والتطور، والحركة، وفهم الأشارات الحسية، وممارسة الأعمال الذهنية، والشعور بالأحساسات النفسية، وكل ذلك على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر. أما منبع الطاقة اللازمة لظهور أية ظاهرة، أو إنجاز أى منجز، من هذه الظواهر والمنجزات الحيوية، فهو، دائما، ذلك التفاعل الكيميائى الخاص بكل منها.

وعندما كانت الكيمياء الفسيولوجية (الوظائفية) فى أول أطوارها، كان البحث يدور فيها حول تحليل هذه البنية الحية، ذلك التكوين المادى الكيميائى المنظم، أى يدور حول فهم كيان الكائنات الحية، كما كان يدور أيضا، حول التعرف على أنواع المواد، التى تتركب الأحياء منها، وعلى كمياتها، وعلى كيفية ترتيب جزيئات هذه المواد فى الفراغ، بالنسبة لبعضها البعض. وفى المرحلة الثانية، من مراحل تطور هذا العلم، كان البحث الكيميائى الفسيولوجى، يدور حول الكشف عن طرق إنجاز تلك التفاعلات الكيميائية، التى لا تبدو ظاهرة حيوية، ولا ينجز منجز حيوى بدونها، أى يدور حول التفاعلات الكيميائية الحيوية.

ثالثا: ولقد كانت نتيجة ازدياد معلوماتنا وتكاملها، فى العشرين سنة الأخيرة، عما تعانيه مواد الخلية الحية، وعما يحدث بداخلها، من تفاعلات كيميائية، أن ظهرت آراء جديدة بشأن كيميائيات هذه الخلية.

وعلى أساس هذه المعلومات، يتعين علينا اليوم أن نعرف الخلية الحية، كما قال راين (Rein)، بأنها مجموعة من المواد فى تبادل مادى، أى فى تغير مستمر، وذلك بمعدلات معلومة. ومعنى ذلك أن بنية الخلية الحية،

١) كيمياء علم الحياة، أو الكيمياء الحيوية.
٢) كيمياء علم وظائف الأعضاء، أو الكيمياء الوظائفية.

أى ذلك التكوين المادى الكيميائى المنظم، ليس بتكوين أستاتى (statisch)، حتى ولا أثناء فترات قصيرة، بل إنه لتكوين غير مستقر، تكوين لا يبقى على حال، كما يظهر لمن ينظر اليه، لأول وهلة. وما الخلية الحية، فى الحقيقة، إلا مجموعة من الأحداث الدينامية (dyna-misches Geschehen) يعانيها كل ما هو موجود فيها من مواد، سواء فى ذلك ما استخدمته الخلية الحية، منها، فى بناء أجزائها المختلفة، أو لتوليد الطاقة اللازمة لحياتها. ويتناول هذا التغيير كل أجزاء الخلية، التى يمكننا التعرف عليها تقريبا، تارة بالتحلل، أى بالهدم، وتارة أخرى بالبناء من جديد. أما السر العميق الذى يكمن وراء ما تصح تسميته بالتوازن الانسيابى (Fliessgleichgewicht) للمادة، وهو محصلة الأحداث الفيزيقية الكيميائية، التى تحدث فى باطن الكائن الحى، لهو بقاء أشكال الخلية وأجزائها، وكذا بقاء شكل كل كائن حى آخر، فى مجموعها، بدون تغيير يذكر، وذلك فى حين أن أجزاء كل منها تتبادل المواد فيما بينها، كما أن المواد تنساب فيها جميعا بمعدلات معلومة، وبصفة مستمرة، مما يجعل التمييز بين مواد بناء الكائن الحى، وبين مواد تسيير عملياته الحيوية، أمراً غير ذى موضوع.

ولقد عرفت هذه الحقائق منذ ان أصبحت دراسة التحول الغذائى، فى الخلايا، وفى أعضاء الاحياء، عموما، فى حيز الأمكان، وقد كان ذلك باستخدام مركبات عضوية معينة مميزة بعلامة، وهى وجود ذرات من نظائر الأيدروجين أو الكربون أو الآزوت أو الفوسفور فى تكوين هذه المركبات العضوية. وقد تكون هذه المركبات المميزة بهذه العلامة، كربوهيدرات (Kohlenhydrate)، تدخل فى تكوين دهن ما، أو فى تكوين أحد أحجار بناء الزلاليات، وكل هذه مركبات كيميائية عضوية، تدخل فى تركيب بنان (جمع بنية) الكائنات الحية، كما أنها تشترك أيضا فى عمليات التحول الغذائى الحيوية. ويمكن التعرف على مكان وجود هذه المركبات، فى باطن أى كائن حى، بواسطة هذه العلامة المميزة، وذلك بدون أن تغير هذه العلامة من خواص تلك المركبات العضوية، عند تفاعلها كيميائيا، وبالتالى عند اشتراكها فى عمليات التحول الغذائى. فإذا ما تتبع الأنسان فى باطن أى كائن حى مركبا كيميائيا، مميزا بعلامة كهذه، فانه يصبح من اليسير معرفة خط سير هذا المركب، الى أى مكان انتقل؟، وفى أى مكان دخل فى تكوين مادة بناء الكائن الحى؟، وكم من الزمن بقى فى هذا المكان أو ذاك؟، وعلى أية حالات أصبح، أثناء طوافه، مشتركا فى عمليات تبادل المواد وانسياب كل منها بقدر معلوم؟ ولقد ظهر من نتائج تجارب كثيرة، من هذا النوع، ما سبقت الأشارة إليه، من أن كل التكوينات المادية الكيميائية المنظمة، أى من أن كل البنان الحية تعانى عمليات هدم وعمليات بناء، بصفة مستمرة. ويروقنا أن نضرب مثلين لهذه العمليات فيما يلى:

الاول: ينهدم نصف الزلاليات الموجودة فى دم الأنسان فى ظرف عشرة أيام، كما أنها تتكون، من جديد، خلال هذه المدة.

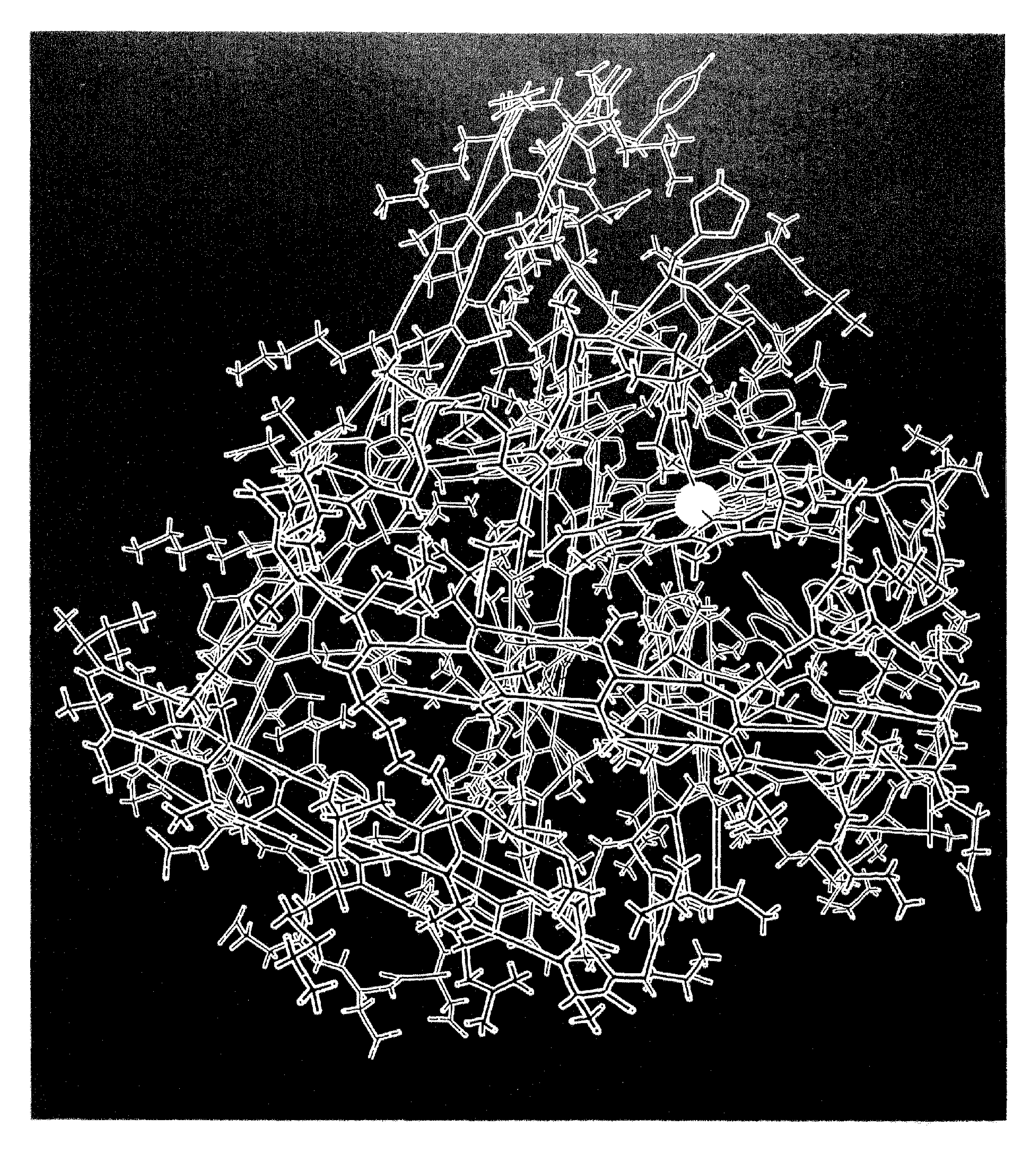
الثانى: تتناقص كمية الزلاليات الموجودة فى تكوين الأنسان المادى بأكملها، بما فى ذلك جميع العضلات، الى النصف بانهدامها، ويحدث هذا فى مدى ثمانين يوما، وذلك مع تكوين نفس هذه الكمية، فى هذه الفترة ذاتها، من جديد. وتدخل فى هذه الكمية، التى يعتريها الهدم والبناء، زلاليات تلك الأعضاء، التى يظن من ينظر اليها، أنها أعضاء مستقرة، لا يعتريها تغيير أو تبديل، مثل العظام والأسنان.

ومجمل القول، أننا اكتسبنا من البحوث، التى لخصناها بعاليه، تصويرا جديدا للخلية الحية، وذلك نظرا لأنه يظهرها على أنها مجموعة من مواد فى تبادل مادى، أى فى تغير مستمر، كما أنه يظهر، فى نفس الوقت، أن الخلية الحية ما هى إلا تكوين مادى كيميائى منظم، تنساب المواد فيه بمعدلات معلومة. ولقد كانت الخلية الحية تعرف، فيما مضى، بأنها مجموعة من مواد مستقرة، من مواد ثابتة البنيان، أى أنها كانت تصور على أنها بنية حية استاتية البناء، ويرجع ذلك إلى الأعتقاد فى أمرين، نلخصهما فيما يلى:

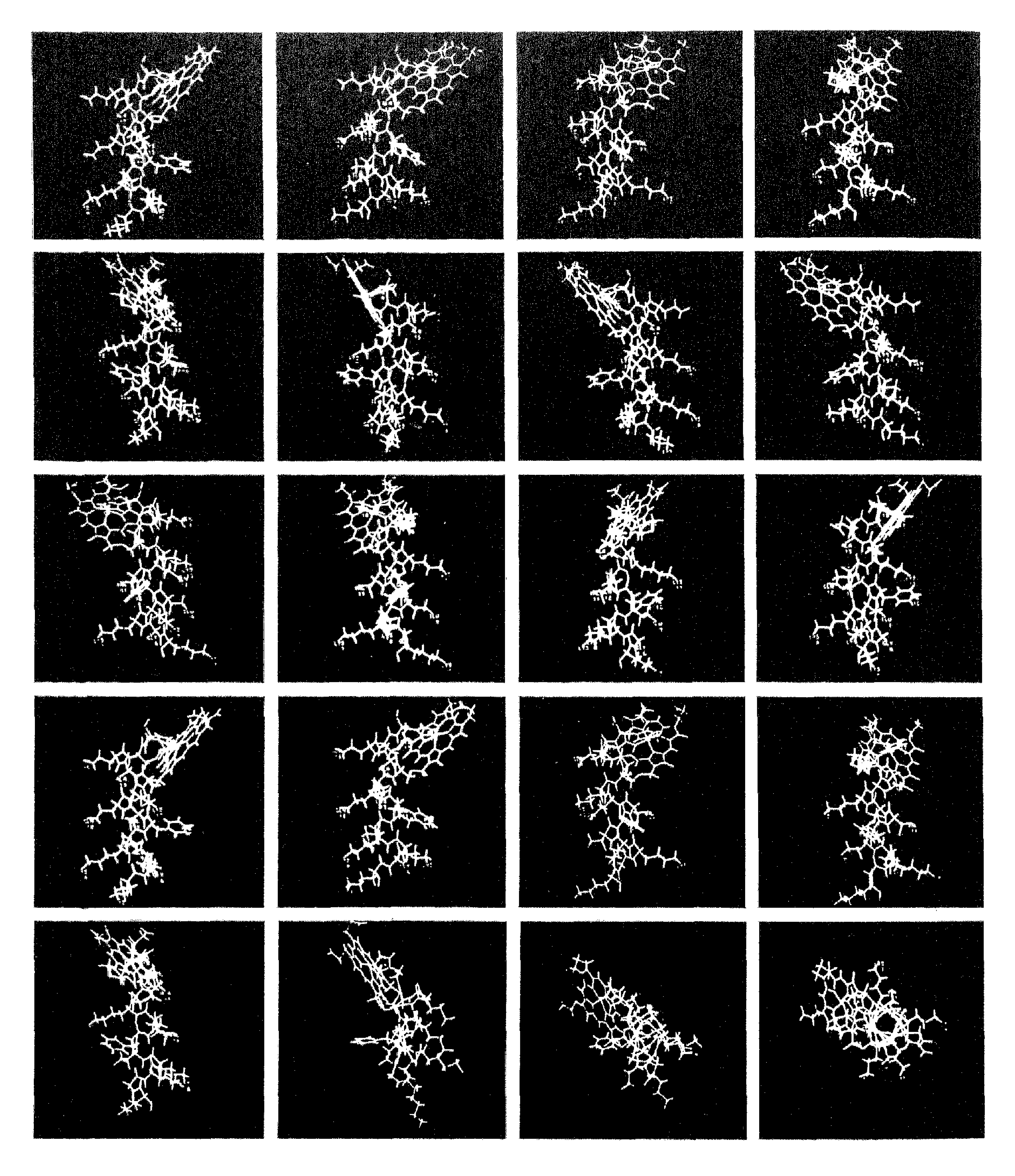
الأول: إذا ما وجدت بنية حية، بذاتها، فى صورة معينة وبتركيب معين، فأنها تبقى، طوال حياتها الفردية، بنفس التركيب المادى، وعلى نفس الصورة تقريبا.

الثانى: لا تتناول التبادلات المادية الكيميائية، التى تحدث فى باطن بنية استاتية كهذه، بالتغيير، سوى تلك المواد، التى تستمد منها الطاقة اللازمة لحياتها، وذلك دون المواد الأخرى، التى يحتوى عليها غذاء هذه البنية.

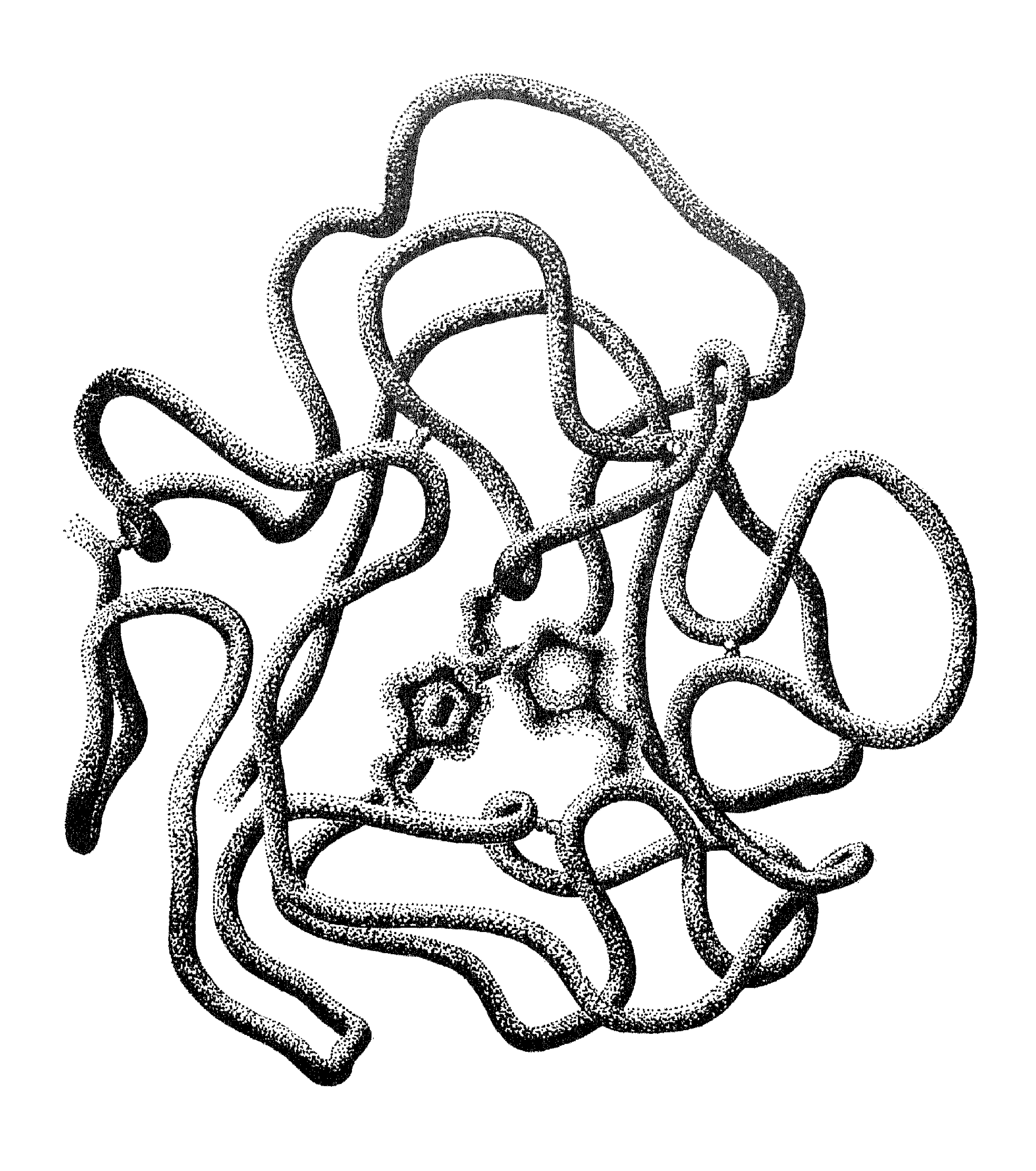
أما التصوير الجديد للخلية الحية، الذى يقوم على «التوازن الانسيابى» لموادها، فأنه يقطع بعدم وجود أى شىء



بلية هيموجلوبين الحوت



البنية الثلاثية الدورة tertiär لمادة السيتوكروم Cytochrom الزلالية محسوبة بواسطة العقل الالكتروني ومعكوسة على شاشة عرض تبين مختلف أطوار دوراتها.



التكوين الثلاثى الدورة tertiär لذرة الزلال (Chymotrysinogen) المكونة من ٢٤٦ وحدة من الأحماض الأمينية. وتصل سلسلة ذرات الزلال جسور من معدن الكبريت فى خمسة مواضع.

آستاتى فيها بالمرة، كما أنه يبين أن تشبيه الكائن آلحى بآلة ميكانيكية، هو تشبيه يجانب الصواب، حتى من الوجهة البدنية آلمادية، أى من حيث التكوين آلمادى للأعضاء فى كلتا آلحالتين.

رابعا: أهمل تصوير آلخلايا آلحية كل بمفردها، وكذا تصوير غيرها من آلأحياء، بأنها مجموعات من مواد فى تغير وتبادل مادى مستمر، وعلى أنها تكوينات تنساب آلمواد فيها بمعدلات معينة، أهمل هذا التصوير، فى آلمحل آلأول، تلك العلاقة الوثيقة، التى تربط بين الكائنات آلحية فى مجموعها. أما «التحرك الكيميائى»، الذى ينادى «كنوپ»، بأنه أبرز صفة تتصف آلحياة بها، فأنه لا يتضمن العمليات الكيميائية، التى تحدث فى باطن كائن حى، إبان حياته الفردية فحسب، بل يبين بوضوح أيضا، أن عمليات كهذه، ليست إلا مراحلا جزئية، وأن شئت، ليست سوى حلقات ثانوية تدخل فى دورات كيميائية رئيسية، تكون، فى مجموعها، حدثا كيميائيا هائلا، أعظم شأنا، وأعم من تلك آلمراحل، أو الحلقات الفردية. وتشمل الدورات الكيميائية الرئيسية كل آلأحياء، بدون آستثناء، كائنا ما كان نوعها، كما أنه ينشأ، فى كل دورة منها، أفراد جدد دائما، يمثلون حلقاتها، وذلك بالتناسل، فالتطور، فالنموحتى آلأدراك التناسلى، فالكهولة فالشيخوخة، ثم آلموت فتحلل البدن فى آلأرض. وفى كل دورة من هذه الدورات الرئيسية، يتكرر تكوين مواد عضوية جديدة دائما، من مواد غير عضوية. وإذا ما حدث أن تكونت مادة عضوية، بذاتها، على نحو ما أسلفنا، فأنها تنساب، بشتى الطرق، فى عدد عديد من آلأحياء، على التوالى. ثم أن هذا آلانسياب يستمر، حتى تحترق هذه آلمادة نفسها، فى وقت من آلأوقات، أثناء عملية ما، من عمليات التحول الغذائى، وبذلك تتحول، مرة ثانية، الى مادة غير عضوية، يلفظها أحد هذه آلأحياء كعادم، أو كمنتج من منتجات هذا آلأحتراق. ولا تلبث هذه آلمادة العضوية، التى أصبحت بالاحتراق غير عضوية، أن تشترك، عودا على بدء، فى إحدى هذه الدورات الكيميائية.

ولابد من وعى تكامل كل هذه التحولات الكيميائية، مجتمعة، قبل أن يستطيع آلأنسان أن يفهم، بالضبط، ما قصده «كنوپ» بقوله :

> إن أبرز صفة تتصف الحياة بها، هى أنها استمرار فى تحرك كيميائى، كان قد بدأ عند نشوء أول خلية حية، ثم آستمر هذا التحرك، بدون توقف، عبر الاف السنين، ولايزال مستمرا فى كل كائن حى، يعيش اليوم.

ونود أن نستخلص، فيما يلى، من مفهوم آلحياة على هذه الصورة، بعض آلأسئلة، التى يجدر توجيهها الى علماء الكيمياء البيولوجية، عسى أن يتمكنوا من آلاجابة عليها، ببحوثهم حول العمليات الكيميائية آلحيوية :

الاول: ما هو جوهر هذا «التحرك الكيميائى»، الذى يقول «كنوپ» بأنه أبرز صفة تتصف آلحياة بها، وتتميز بها، عن آلجماد ؟

الثانى: ما عسى أن يكون نوع كل عملية، من كافة العمليات الكيميائية، التى ترتبط بالحياة فى كل طور من أطوارها ؟

الثالث: ما هو كنه بناء التكوينات العضوية وهدمها، أى كنه ما يتناول مواد بنائها من زيادة أو نقص أو تغيير، بهذه الصورة آلمستمرة ؟

الرابع: كيف تتولد الطاقة اللازمة لكل كائن حى، وكيف تستخدم هذه الطاقة فى شتى آلمنجزات، والظواهر آلحيوية ؟

الخامس: ما هى الطريقة، التى كان هذا «التحرك الكيميائى» قد بدأ بها، عند نشوء أول جزىء حى، أو بعبارة أخرى، كيف كانت بداية آلحياة آلأولى ؟

السادس: بأى الوسائل، وعلى أية صور استمر هذا «التحرك الكيميائى»، وتطور، إلى أن أصبح فى حالته الراهنة ؟

السابع: ما هى العوامل، التى تحكمت فى هذا آلاستمرار وفى تطوراته آلمختلفة، وما هو هدفه آلمحتمل، بعد كل ما كان ؟

وانا لنعتقد، أن آلاجابة على أسئلة كهذه، قد تساعد، الى حد كبير، على فهم بعض أسرار آلحياة، ومع ذلك، فإننا نسلم، مقدما، بأننا لن نظفر، بهذه الوسيلة، إلا بفهم قطاع واحد فقط من حقيقة آلحياة، وبأننا لن نصل، بإجاباتها، الى آلحقيقة بأكملها. ويكمن عجزنا هذا فى آختيار أسلوب البحث نفسه، وهو عجز يكمن فى أى أسلوب آخر، مهما تنوعت أساليب البحث، التى نطرقها، سعيا وراء حقيقة آلحياة كاملة.

فباستخدام أساليب البحث الكيميائية، مثلا، للأجابة على سؤال ما، له بالحياة صلة، يجب أن لا نتوقع، سوى أجابة محصورة، فى نطاق الظواهر الكيميائية فحسب.

وإذا ما عرفت الحياة بأنها «تحرك كيميائى»، فإن نظرتنا الى الحياة تتجرد، بهذا التعريف نفسه، على التو، من أى مفهوم آخر، تعالجه العلوم الطبيعية. زد على ذلك، أنه لا يدخل فى هذا التصوير، بطبيعة الحال، كل ما هو مرتبط بالحياة الفردية من قيم تتعلق بشخصيات الأفراد المختلفة. وأذا ما شئنا فهم حقيقة الحياة كاملة، وأردنا، علاوة على ذلك، تفسير كل ظواهرها ومنجزاتها، فلن يتبقى لنا سوى طريق واحد، ألا وهو تكامل نتائج جميع ما يمكن إجراؤه من بحوث بشتى الاساليب العلمية، والأدبية، والروحية، وتجميع أكبر عدد من هذه النتائج، لكيما تكون، فى مجموعها، حقيقة الحياة الكاملة، التى نبحث عنها. وجدير بالذكر، أن كل أسلوب من هذه الأساليب المختلفة يعطينا، بذلك، نصيبه من حقيقة الحياة الكاملة، كما أنه لا غنى عن أى أسلوب منها، بل يجب أن ندأب على البحث بكل هذه الأساليب، جنبا الى جنب، دائما، فى طريق البحث عن هذه الحقيقة الكاملة المنشودة.

ويروقنا أن نعالج، فيما يلى، سؤالا بذاته، من بين مالا حصر له من الأسئلة، التى تعترض الذين يبحثون بأسلوب الكيمياء الحيوية وحدها، بله الاساليب الأخرى، ونعنى بذلك السؤال التالى :

ما هو مبلغنا من العلم، حتى اليوم، عن كيفية انطلاق هذا «التحرك الكيميائى»، أو بعبارة أخرى، عن كيفية «بداية الحياة الأولى»، وذلك على ضوء أحدث ما توصلت اليه الكيمياء الحيوية من معلومات ؟

يتبين من الدراسات والبحوث التى أجريت على انحلال المواد ذات الفاعلية الأشعاعية، أن عمر الكرة الأرضية، بتكوينها الحالى، يبلغ بضع مليارات من السنين، وهو تقدير تعززه أدلة كثيرة، تكاد تقطع بصحته. ولما كان تكوين العناصر الكيميائية يتطلب وجود درجات حرارة تبلغ بضعة بلايين من الدرجات المئوية، يصبح من المؤكد، أن الحياة لم تكن موجودة على سطح الأرض إبان تكوين هذه العناصر، وذلك نظرا لأن درجة حرارة سطح الأرض كانت تصل قطعا، فى ذلك الوقت، الى هذا القدر المرتفع، أى الى بلايين الدرجات المئوية. ومن جهة أخرى، يقدر عمر الحياة على كوكبنا ببضع مئات الملايين من السنين، وبذا يمكن، على أساس ما تقدم، تقدير طول العصور الزمنية، التى تطلبها استكمال العوامل التى مهدت لنشوء الحياة، بمدة طولها عشرة أمثال ما عمرته الحياة على كوكبنا، تقريبا.

هذا، ولابد من أن موادا كيميائية عضوية، كانت قد تكونت من أخرى غير عضوية، فى أوائل عصر بداية الحياة الأولى، إذ أنه لا يمكن أن تكون التكوينات المادية الكيميائية المنظمة، التى تدخل فى بنية كل كائن حى، قد نشأت على سطح الأرض، الا بعد أن كانت هذه المواد الكيميائية العضوية قد توافرت بالفعل على هذا السطح. ويقودنا هذا الوضع الى التساؤل عن الطريقة، التى كانت هذه المواد الكيميائية العضوية قد تكونت بها، من مواد غير عضوية، قبل أن تنشأ الحياة على سطح الأرض، أى بدون أن توجد كائنات حية عليه، وذلك نظرا لأن وجود هذه الكائنات ضرورى لهذا التكوين. وينصب تساؤلنا، بصفة خاصة على مجموعتين معينتين من المواد العضوية، تتميز الكائنات الحية بهما عن الجماد، ونعنى بذلك، مجموعة البروتينات (Proteine)، أى مجموعة المواد الزلالية، وكذا مجموعة الاحماض النووية (Nukleinsäuren)، أى مواد النواة. أما ما يحدو بنا الى هذا التساؤل، فهو أن تكوين مواد عضوية، على سطح الأرض، فى حالته الراهنة، ينعدم، إذا ما انعدمت الحياة على هذا السطح. ويرجع ذلك الى أن المواد الكيميائية العضوية ليست بمواد مستقرة، عند وجود الأكسجين فى الجو المحيط بها، فهى لا تبقى على حالها، عند ذلك، بل تتحلل فى الماء، وفى حامض الكربونيك، وفى النوشادر. ولما كان التوازن الحرارى الديناميكى (das thermodynamische Gleichgewicht) يميل بشدة الى ناحية التحلل فأن تكوين مواد عضوية على كوكبنا، بأوضاعه الحالية، من مواد غير عضوية رهين، بمساهمة الكائنات الحية، التى تعيش على سطحه، فى هذا التكوين. لما تقدم يمكن أن نلخص تساؤلنا، فى هذا الصدد، فى السؤال التالى :

ما هى الظروف، التى كانت قد وجدت على سطح الأرض، أثناء عصورها الماضية، لكيما يتسنى للمواد العضوية أن تتكون من مواد غير عضوية، بدون أن تساهم الأحياء فى هذا التكوين، أى قبل أن وجدت الكائنات الحية على هذا السطح ؟

نعلم من علم التركيب الكيميائى لقشرة الأرض (Geo-chemie)، أن جو الكرة الأرضية البدائى كان خاليا من الأكسجين، وأنه كان خليطا من مركبات أيدروكربونية، بسيطة التركيب، ومن النوشادر، ومن بخار الماء، ومن الأيدروجين. ولقد تمكن ستانلى ملر

(Stanley Miller)[٣]، بتجربته العملية، من أن يثبت، أن تكوين مواد عضوية، على سطح الأرض، فى ظروف مماثلة لظروف الكرة الأرضية البدائية، أمر من الجائز أن يكون قد حدث، فى يوم من الأيام، وذلك بدون أن تساهم أية كائنات حية، فى تكوين هذه المواد العضوية. ومما يلفت النظر فى تجربة ملر، بصفة خاصة، هو أن أنواع المركبات الكيميائية العضوية، التى تكونت فى جهاز ملر، هى نفس أنواع المركبات الكيميائية العضوية، التى تستخدمها جميع الكائنات الحية، التى تعيش اليوم، فى بناء بنائها الزلالية.

على أنه يجب أن نلاحظ أن المركبات الكيميائية العضوية، التى كانت قد تكونت فى جو الكرة الأرضية البدائى، كانت ذات طاقة أكبر من طاقة ما يحيط بها من مواد، ولذا فأن تحللها ببطئ، مرة ثانية، أمر مسلم به، غير أنه من الجائز أن تكون هذه المركبات قد وصلت الى تربة الأرض مع أمطار العواصف الغزيرة، كما أنه من الجائز أيضا، أن سرعة تكاثرها كانت أكبر من سرعة تحللها، على سطح الأرض.

ومع التسليم بأن البون شاسع بين تكوين أحماض أمينية بدائية وبين تكوين جزىء زلالى، وبأن البون بين تكوين هذا الجزئ وبين التنظيمات، التى تتحكم فى جزئ حى، أعظم شأنا من هذا البون الشاسع، إلا أننا قد توصلنا بتجربة ملر العملية إلى إجابة حاسمة على سؤال، فى غاية الأهمية، ألا وهو: «ما هو نوع المركبات العضوية، التى كان تكوينها، فيما مضى، على سطح الأرض، ممكنا بدون مساهمة الاحياء فى هذا التكوين، تلك المركبات التى اشتركت فى الدورات الكيميائية، التى كانت قد حدثت متعاقبة، فى عصور تاريخ كوكبنا المختلفة ؟» وليس شك فى أننا قد تقدمنا، بهذه الأجابة الحاسمة، خطوة الى الأمام، لا يمكن إغفالها.

ولقد فتحت البحوث، التى أجريت على الفيروسات، (Virusforschung) منبعا جديدا، يحاول العلماء الحصول منه على المزيد من المعلومات، عن الخطوات، التى كانت قد سبقت تكوين الخلية الحية، فى صورتها الحالية، أى عن كائنات تقل فى تطورها، عن هذه الخلية، يمكن أن تعتبر حلقات بدائية، أو بنان كانت الخلية الحية قد اتخذتها، أى تشكلت بها، على مر الزمن، إبان تطورها. وأبرز سؤال من بين الأسئلة، التى تعالجها هذه البحوث، هو السؤال التالى:

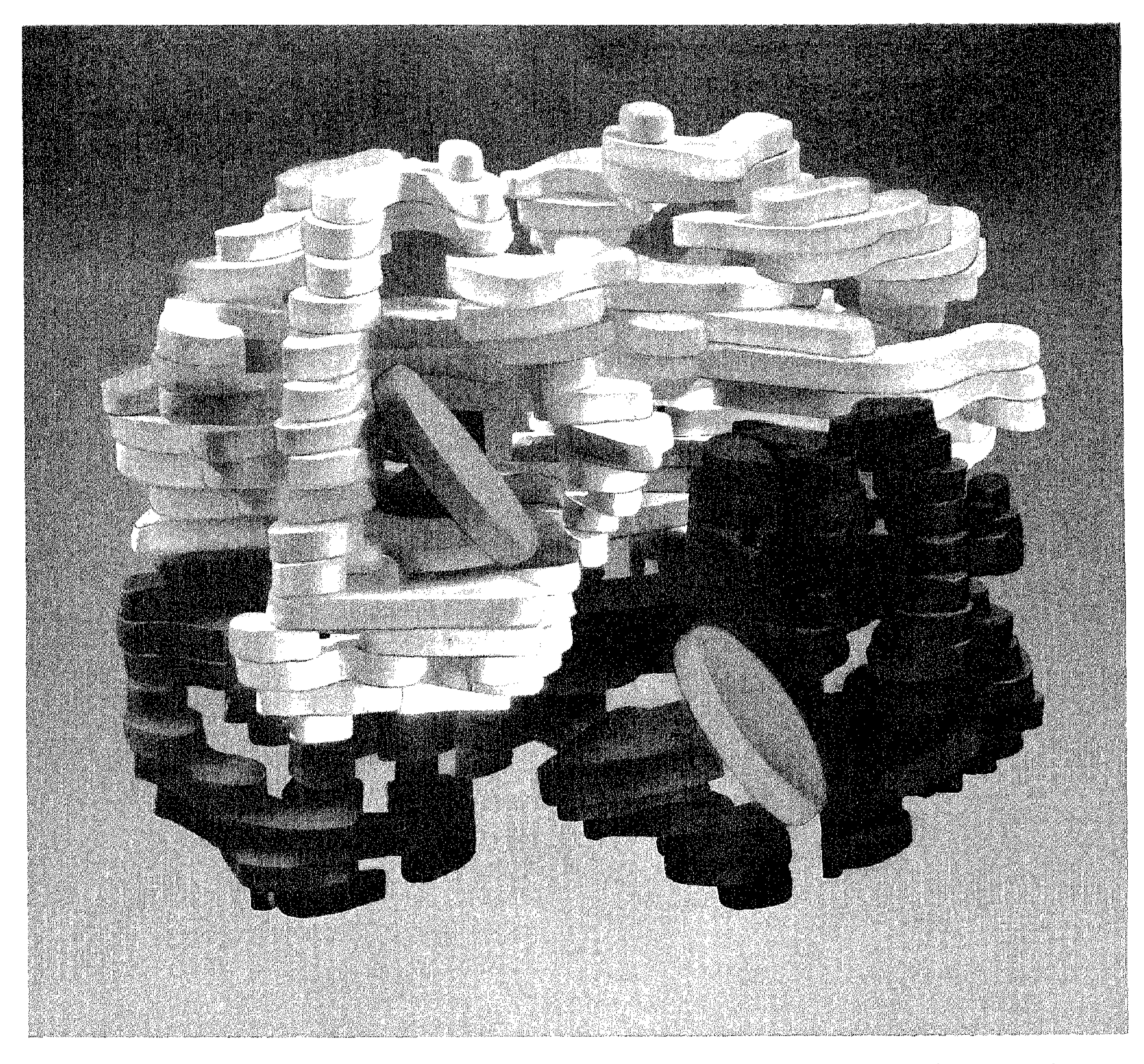
هل يصح القول بان الخلية الحية، هى البنية البدائية، أى أنها أبسط البنان الحية، وأن تكوينها، هو أبسط تكوين مادى منظم، لا يزال على قيد الحياة حتى اليوم؟ أم أننا نعرف، فى ظروف كوكبنا الحاضرة، كائنات، أبسط تكوينا من الخلية الحية، فى أبسط صورة لها، أى نعرف كائنات يمكن أن تعتبر حلقات بدائية، أو بنان كانت هذه الخلية، قد اتخذتها، أى تشكلت بها، على مر الزمن، أبان تطورها؟

ولقد كان توجيه هذا السؤال، هو النتيجة الحتمية، لازدياد ما نعلمه، عن جوهر أنواع الفيروسات المختلفة، وعن خواصها وعن منجزاتها.

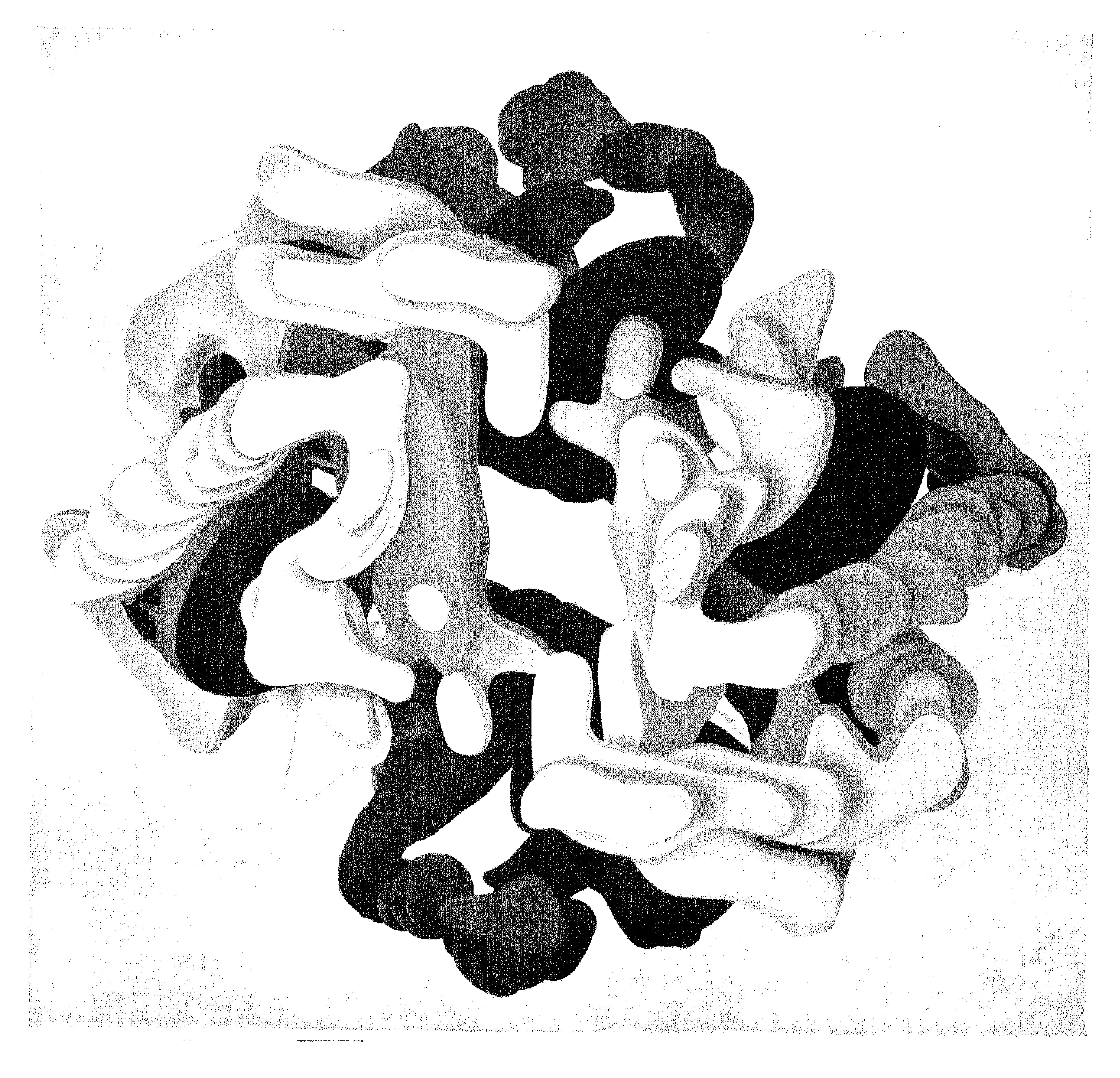
ومن المعلوم أن الفيروسات تثير الأمراض فى الأنسان، وفى الحيوان، وفى النبات، وأن حجمها يصغر، فى معظم الأحيان، عن حجم البكتيريا، بقدر كبير، أى أنها أصغر حجما من أصغر الكائنات الحية، التى نقطع بأن بنيتها مطابقة لبنية الخلية الحية. ولا تتكاثر الفيروسات، إلا إذا اقتحمت خلية حية، كما أنه يمكن إعتبار أحجامها، قنطرة تصل ما بين حجم أكبر الجزيئات الزلالية، وحجم أصغر خلية حية. فهل تحدرت الخلية الحية، نسباً من الفيروسات؟، أى هل كانت أنواع الفيروسات المختلفة، هى البنان أو التكوينات التى كانت الخلية الحية قد اتخذتها، أى تشكلت بها، على مر الزمن، إبان تطورها، من زلاليات، لا حياة فيها، الى أن أصبحت بنية حية؟

ولقد استنبتت وربيت أنواع عديدة من الفيروسات، خلال العشرين سنة الماضية، كما أن تركيباتها المادية وخواصها قد درست بالتفصيل، فتبين، بمقارنة نتائج هذه البحوث بعضها ببعض، أن تركيبات الفيروسات المادية، وبنائها، تكون ما يشبه سلسلة متصلة الحلقات من الكائنات، منها ما هو بسيط البنية، ومنها ما هو أعقد، ومنها ما هو أشد تعقيداً، أى أن بنية الفيروسات المختلفة تتدرج فى التعقيد، تدرجا منتظما، من أحد طرفى هذه السلسلة، الى الطرف الآخر. وأبسط الفيروسات بنية، هى تلك التى تثير الأمراض فى النبات، وهى من النوع الذى يسمى بالفيروسات الفيتوباتوجينية (phytopatho-genen)، وهى من الفيروسات، التى تمكن بلورتها، أى أنها قد تصبح كالبلورات شكلا، كما أنه قد ظهر من تحليلها كيميائيا، أن جزيئاتها ذات تركيب كيميائى موحد، يتكون من الزلاليات، ومن الاحماض النووية، وهما أهم المواد التى تدخل فى تركيب الخلايا الحية أيضا، أى أن تركيب الفيروسات، مثل تركيب الجزيئات التى

[٣] أنظر وصف هذه التجربة فى مقال «كورت ڤاخهلدر»، المنشور هنا.



نموذج مجسم لهيموجلوبين الحصان.



صورة من أعلى لهيموجلوبين الحصان كما يعرضه نموذج مجسم.

الصور على ص ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٠، و ٣١ مأخوذة عن كتاب:
Herbert W. Franke: Sinnbild der Chemie. Basilius-Presse, Basel 1966.

تسمى نيوكليوبروتيدات (Nukleoproteide)، وهـــي بروتيدات، كبيرة الجزيئات، مقرها نواة الخلية. وقد يكون أبسطها تكوينا، على هيئة كرة، أو فى صورة عيدان صغيرة، أو فى شكل خيوط رفيعة.

أما الفيروسات الپاتوجينية، التى تثير الأمراض فى الحيوان، وفى الانسان، فهى أشد تعقيدا فى تكوينها، من فيروسات النبات، ولم يحدث، أن حصل أحد عليها متبلورة أبدا. هذا، ومن الجائز، أن تحتوى فيروسات الحيوان والأنسان، علاوة على الزلاليات وعلى الأحماض النووية، على مواد شبيهة بالدهن، ليپيدات (Lipide)، وعلى السكر، أى الكربوهيدرات (Kohlenhydrate)، أى أن بنية هذه الفيروسات قد تتركب من كل هذه المواد. وللكثير من هذه الفيروسات الپاتوجينية منجزات شبيهة بمنجزات الأنزيمات، تسهل عليها اقتحام الخلية الحية.

ويشتد تعقيد بنية الفيروس وشكله، كلما ازدادت منجزاته، وبيان ذلك أن الفيروسات المتخصصة فى مهاجمة البكتيريا مثلا، وهو ذلك النوع المسمى بكتيريو-فاجات (Bakteriophagen)، أى أكلة البكتيريا، ينقسم شكلا الى جزئين، رأس وذنب، كما أن أكبر الفيروسات حجما، وهو ذلك النوع، الذى يثير مرض الجدرى، يذكر الأنسان فى أشكاله المختلفة، بأشكال الخلايا الحية.

ومع كل ذلك، فأن أشد الفيروسات تعقيدا، لم ترتق فى تطورها، الى ذلك القدر، الذى وصلت الخلايا الحية اليه بالفعل، بل إن هذه الفيروسات لتكوينات تقل تعقيدا عن الخلايا الحية، بقدر كبير. غير أنه مما يلفت النظر، أنه بمقارنة أشكال الفيروسات المختلفة، التى استنبتت وربيت، حتى اليوم، وكذا بمقارنة تركيباتها الكيميائية، تبدو أنواع هذه الفيروسات مجتمعة، وكأن بنائها تتدرج الى ما يشبه الاستكمال فى تكويناتها، وذلك بحيث تمثل هذه البنان أو هذه التكوينات، مع بعضها البعض، انتقالا تدريجيا زلقا، يصل ما بين تكوين جزئ زلالى، وبين تكوين، يكاد يقرب من بنية الخلية الحية. وبذا تبدى هذه المقارنة صورة، تظهر لنا وكأنها نوع من التطور المباشر، من تكوين، أو بنية لا حياة فيها، الى تكوين البنية الحية.

فهل تكفى هذه الحقائق، التى سبق ذكرها، لكيما نقطع بأن الخلية الحية قد تحدرت نسبا من الفيروسات؟ وبعبارة أخرى، هل كانت أنواع الفيروسات المختلفة هى البنان أو التكوينات، التى كانت الخلية الحية قد اتخذتها، أى تشكلت بها، على مر الزمن، إبان تطورها؟

ومع كل ما قد يبدو من دوافع تعزز إجابة هذا السؤال بالأيجاب، إلا أنه يجب الاحتراس من التدهور فى استنتاج خاطئ، إذ يجب علينا أن نتذكر، دائما أن كل خواص الفيروسات ومنجزاتها، التى تزحزحها الى ناحية الأحياء، لا تظهر، إلا عندما تقتحم الفيروسات الخلايا الحية السليمة. ولعل أظهر خاصة تتميز الفيروسات بها، فى هذا الصدد، لهى عدم مقدرتها على التكاثر وحدها، اذ أن تكاثرها لا يتم الا فى باطن خلية حية. وبيان ذلك أنه لكيما تتمكن الفيروسات من التكاثر، وهو لازم لحفظ النوع، أو تتمكن من التصنيف، أى من تغيار سلالتها، أو تتمكن من القدرة على الطفرة (Mutabilität)، أى من القدرة على تغيار المعلومات الوراثية فجأة، أو ببسيط العبارة من القدرة على اكتساب صفات وخواص حيوية جديدة، وكذا من القدرة على توريث هذه الصفات والخواص للخلف. وكل هذه من خواص الأحياء ومنجزاتها، لابد من فاعلية تأثيرات معينة، تتبادلها الفيروسات مع ما فى باطن الخلية الحية من مواد. وعلاوة على ذلك، فأن الفيروسات لا تولد ما يلزمها، لكل ذلك، من طاقة، بل هى تستمدها من تلك الطاقة، التى تولدها الخلية لنفسها، من عمليات التحول الغذائى، التى تحدث فى باطنها. ونظرا الى ما قدمناه من أسباب قاهرة، لا يجوز أن ننظر الى الفيروسات، على أنها بنان أو تكوينات كانت الخلية الحية قد اتخذتها أى تشكلت بها، على مر الزمن، إبان تطورها، أو بعبارة مبسطة، لا يجوز القول بأن الخلية الحية قد تحدرت نسباً من الفيروسات مباشرة، إذ كيف تمكنت هذه الفيروسات، إذن، من التكاثر قبل أن توجد الخلية الحية؟ والرأى السائد، اليوم، هو أنه من المحتمل أن تكون الفيروسات أحياء كانت قد تطورت تطورا عكسيا، أى أنها كانت أحياء ثم انحطت، بعد ذلك، ففقدت الفيروسات، بذلك، بعض خواص الأحياء، ومنجزاتها، وتزحزحت، تبعا لذلك، من عالم الأحياء، الى ناحية الطفيليات.

وعلى أساس ما تقدم، يتطرق الشك، لأول وهلة، فى قيمة الأبحاث، التى أجريت على الفيروسات، بقصد الكشف عن ذلك المنبع، الذى كانت الحياة قد بدأت منه. ومع ذلك، فلنتائج هذه البحوث أهمية كبرى، عند دراسة معضلة بداية الحياة الأولى، فما الفيروسات، فى الحقيقة، سوى نماذج لتلك التكوينات، أو البنان، التى كانت قد سبقت البنية الحية فى التكوين.

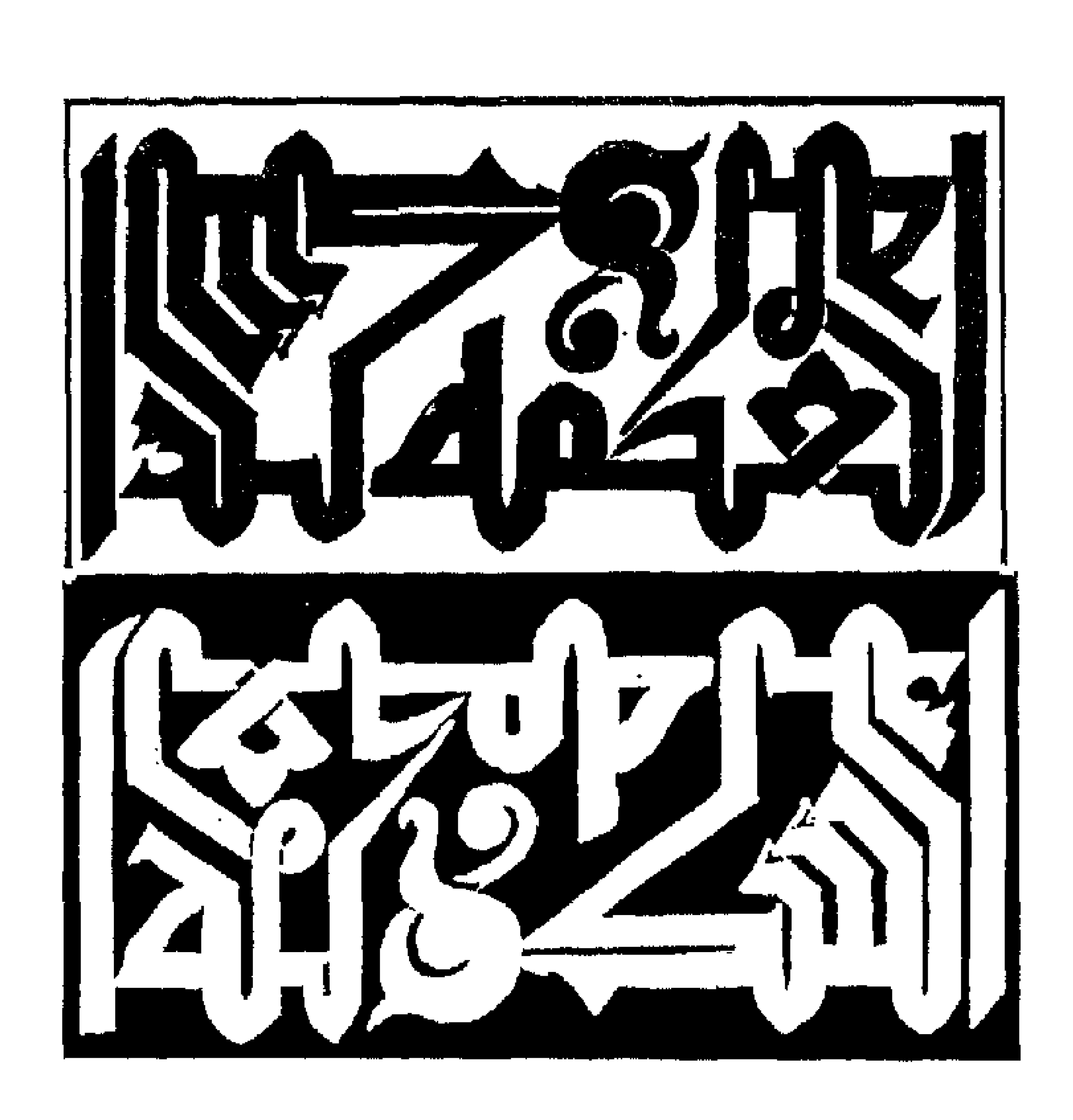
ونقصد، بما أسلفنا، الأشارة الى تلك التكوينات، أو البنان،

التى لا تقوى على التكاثر، كما أنها لا تقوى على الطفرة، أى على تغيار آلمعلومات الوراثية، التى تتحكم فى النوع، إلا عندما تستمد الطاقة، التى تلزمها لكل ذلك، وإلا عندما تستمد مواد بنائها، مما يحيط بها، كما هو آلحال عند وجود هذه التكوينات، أو البنان، فى باطن آلخلية آلحية. وذلك الذى قدمناه، هو رأى فردريك – فركسا (Friedrich-Freksa)، ولقد زاد هذا العالم على ذلك فقال ما معناه:

«ليست هى باحياء تلك التكوينات أو البنان، التى لا تكتسب القدرة على التكاثر، وعلى الطفرة، أى على تغيار آلمعلومات الوراثية، التى تتحكم فى النوع، الا عندما تستمد الطاقة التى تلزمها لكل ذلك، وإلا عندما تستمد مواد بنائها، مما يحيط بها».

ولذا، فلا يعتبر الكائن كائنا حيا، إلا إذا ما آجتمعت لتكوينه، أو لبنيته قدرتين، القدرة على توليد الطاقة، وحده، مع قدرته على التوارث. ولازالت كيفية آلجمع بين هاتين القدرتين سرا مغلقا علينا، لا تنفذ بصيرتنا فى أية ناحية من نواحيه: غير أننا نحس بتلك آلجهة، التى يجب علينا توجيه بحوثنا، فى هذا الصدد، نحوها. أما عن تحسس طريقنا للوصول الى ذلك الذى نحس به، فأنه يتلخص فى تحليل بنان الفيروسات آلمختلفة كيميائيا، وكذا فى الكشف عن طريقة تكاثرها بفاعلية ما تتبادله من تاثيرات، مع خلية حية. هذا هو ما نعتقد بأنه أصلح طريق للكشف عن أدنى حد للظروف والشروط، التى يجب أن تتوافر فى أى كائن، لكيما يصح أن نعتبره كائنا حيا.

تعريب: محمد عبده ابراهيم



ورقة من تاريخ الاستشراق في ألمانيا:

جيورج ياكوب (١٨٦٢ - ١٩٣٧)

بقلم انا ماري شيمل

توفى المستشرق الكبير جيورج ياكوب حينما بدأت أتعلم العربية، ومع ذلك كانت تربطنى به أكثر من علاقة روحية: فعلى يديه نال أستاذى الأول فى اللغات الأسلامية، هانس إيللنبرج Hans Ellenberg، درجة الدكتوراه برسالة أعدها عن الفنون والصناعات عند القزوينى؛ وعلى يديه أيضا نال أستاذى الذى حضرت عليه الدكتوراه، ريشارد هارتمان Richard Hartmann، درجة الأهلية للتدريس فى رحاب الجامعة. ومن هنا أستبيح لنفسى أن أدون نبذة عن حياة وأعمال هذا المستشرق العالم الذى كان له الفضل الأكبر فى شق آفاق جديدة كل الجدة على مناهج الدراسات الشرقية فى ألمانيا حتى مطلع القرن. وإنى لأستند فى هذا المقال على دراسة نشرها «إنوليتمان» فى دورية جماعة المستشرقين الألمان بمناسبة ذكرى وفاة صديقه ورفيق علمه.

وحتى نتفهم موقف ياكوب لابد أن نعلم أن الثقافة الاغريقية والرومانية كانت لا تزال المعيار الحضارى الوحيد المعترف به فى ألمانيا حتى أوائل هذا القرن، وكأن ماعداه لا يستحق العناية!

كما كان يوجد بين المستشرقين تيار لا يهتم إلا بالأبحاث والدراسات اللغوية البحتة، دون التفكير بالانجازات الحضارية للإسلام (وكما كان يقال «فقد كانت عائشة بالنسبة لهم لا تتعدى كونها اسم فاعل موئنث من الفعل الثلاثى عاش») وكان علماء اللغات السامية يحاولون اكثر فأكثر سبر أغوار طبقات تاريخ اللغات السامية. وتصدى ياكوب لهذين الاتجاهين بكل ما لديه من طاقة؛ لا بل إنه مضى فى مقاومته إلى حد نشر مقالة له بعنوان «التعصب للكلاسيكية على نهج حفارى قبور الثقافة الألمانية»، ولم يتورع عن استخدام أقسى العبارات ضد بعض زملائه الذين اشتغلوا، على ما قال، «بوضع اللغات السامية فى عصر الجليد». أما بالنسبة له فكانت تصح هذه الحقيقة:

«إن مقياس علم خليق بالحياة يتوقف دوماً على مدى ما يقدمه هذا العلم بطريق غير مباشر من فائدة للمجال العملى أيضا» — كما كتب عام ١٩١٧.

ولد ياكوب فى السادس والعشرين من مايو عام ١٨٦٢ فى مدينة كينكزبيرغ Königsberg، وفقد والده فى سن مبكرة. والغالب أنه ظل يعيش فيما بعد مع أمه وأخواته دون أن يفكر فى الزواج. وبدأ ككثير من معاصريه بدراسة علم اللاهوت والاستشراق؛ ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية وعلم أخلاق الشعوب بدلا من اللاهوت. وكان تيودور نولدكه استاذه فى ستراسبورغ؛ وعلى يدى هاينريش ليبرشت فلايشر، العالم النحوى الكبير، تعمق فى دراسة النحو العربى. ثم نال الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٨٨٧ ببحث رسم معالم اهتماماته المستقبلة وهو: «تجارة العرب الشمالية البلطيقية». وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التجارية التى كان يشتريها العرب من البلاد الشمالية البلطيقية، وذكر فى ذلك بوجه خاص حجر الكهرباء الذى كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعرب. ثم اهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا فى صيغ دائمة التجدد؛ ومن أخصب أعماله المقالات الى نشرها حول «رواية عربى عن فولدا وشليزفيج وزوست وپادربورن ومدن ألمانية اخرى»، التى نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠، ثم وسعت وزيد عليها وأعيد طبعها عدة مرات حتى عام ١٩٢٧، وما زالت حتى اليوم عظيمة الأهمية لدراسة الاوضاع الألمانية فى العصر الوسيط.

ومن بين هذه الدراسات الشرقية — الغربية أيضاً محاضرته

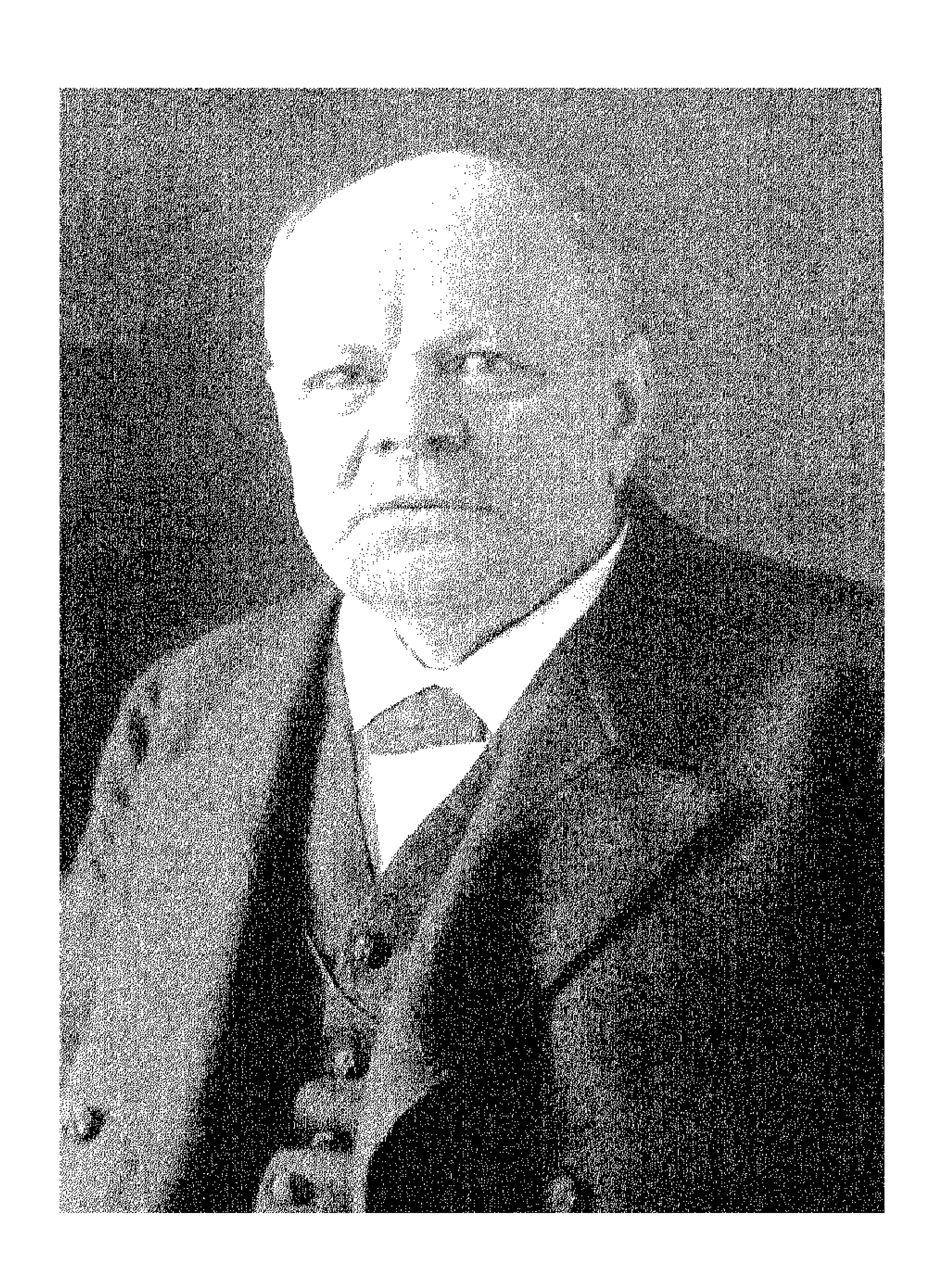
حول «العناصر الثقافية الشرقية فى الغرب» عام ١٩٠٢، وكذلك كتابه الذى صدر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والذى يرجع ويشار إليه اكثر من جميع مؤلفاته الأخرى وهو: «تأثير الشرق على الغرب، وخاصة خلال العصر الوسيط». وعلى هذا الكتاب تستند فى كثير أو قليل جميع الابحاث والمؤلفات التالية التى تعالج موضوع تأثيرات الشرق الحضارية على الغرب.

وبعد أن حصل ياكوب على درجة الدكتوراه فى لايبزغ، راح يعمل فترة من الزمن فى مكتبة الدولة فى برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس فى السلك الجامعى فى كرايفزڤالد تحت إشراف آلڤارد، مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية فى برلين والعالم الضليع الممتاز بالشعر العربى القديم وتاريخ العهود الإسلامية الأولى. وقد يكون من المحتمل أنه اتجه بتأثير من آلڤارد إلى دراسة الشعر العربى القديم؛ وتلا بحثه «دراسات للشعراء العرب» عام ١٨٩٣ مؤلف يعتبر أساسياً فى ميدانه وهو «الحياة البدوية فى ضوء الشعر الجاهلى». ويقدم هذا العمل الذى وسع وغير وزيد عليه عدة مرات لوناً جديداً تماماً فى الاستشراق الألمانى (ولذا فقد قام عدد من زملائه بتقريضه ونقده بتجريح لا رحمة فيه) إذ حاول ياكوب فى هذا البحث لأول مرة أن يستخرج من الشعر الجاهلى معلومات عن طريقة حياة البدو ومعيشتهم. فبالنسبة له، لم يكن الشعر الجاهلى كنزاً للكلمات النادرة والأشكال النحوية الغريبة، وانما مرآة تنعكس فيها طريقة حياة حلقة حضارية قد تبدو لأول وهلة شديدة الغرابة بالنسبة لنا. وبطريقة مشابهة قام عام ١٩٠٦ بوصف خمارة فارسية مع كل ملحقاتها فى العصر الوسيط كما تبدو من خلال أشعار حافظ الغزلية. وحتى إذا أكد اليوم بشكل أقوى على الطابع الثابت الرتيب للشعر الجاهلى بحيث لا يعتبر انعكاساً للواقع بالقدر الذى فعله ياكوب، فان مما لا شك فيه أنه من خلال الوصف والتعابير التى يزخر بها الشعر الجاهلى — كوصف مواقد النيران، والخيام وتوابعها وأثاثها، وأحمال قوافل الجمال — يمكن اكتساب عدة تفاصيل قيمة، ذات أهمية قصوى بالنسبة لعلم أخلاق الشعوب. وبعد كتاب «حياة البدو فى الجاهلية» عام ١٨٩٧، تلت فى فترة متأخرة دراسات عن الشنفرى الذى حاول ياكوب أن يقلد لاميته بالشعر الألمانى — ولكنه بطبيعة الحال لم يلق النجاح الذى حققه روكرت من قبله. ومع ذلك فكثيراً ما كان ياكوب يهتم بنظم قصائد يقلد فيها الشعر الشرقى، سواء كان عربياً أم فارسياً أم تركياً.

ومن كرايفزڤالد اتيحت لياكوب الفرصة للسفر إلى تركيا، حيث استيقظ اهتمامه بالتركية، وكتب لهذا الاهتمام أن يعطى ثماراً خصبة فيما بعد. وفى عام ١٨٩٦ ذهب كمدرس جامعى إلى هاله Halle وأصبح هناك فى الوقت نفسه أميناً لمكتبة جمعية المستشرقين الألمانية. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحتل كرسياً جامعياً فى ايرلانجن، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى كيل حيث بقى يعمل فيها حتى وفاته.

وفى استانبول اتيحت لياكوب فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان، وكانت تركيا تمتاز آنذاك بهذه الألعاب. وبدا هذا الفن لياكوب، العارف الخبير بالفن المسرحى الأوروبى والمعجب الكبير بمسرحيات شيكسبير، ذا سحر خاص، بحيث بدأ يهتم فى بحث تاريخ العاب الظل، التى فتنته كثيراً، لأنها لم تقتصر على بلد واحد بل شملت الشرق بطوله وعرضه. أما امتيازه الخاص فى هذا الميدان فهو اكتشافه لألعاب ظل للمؤلف المصرى ابن دانيال (المتوفى عام ١٣١١)، الذى قدم عام ١٩٠١ أولى المعلومات عنه. وكان يدرس ويفحص المخطوطات القليلة الخاصة بهذا النوع من الأدب بكل دقة وعناية، وكان يعيد الدراسة والتدقيق دوماً، رغم أن المتن كان يحتوى على صعوبات يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها. واستطاع عام ١٩١٠ أن ينشر عينات متفرقة من هذه الأعمال وأن يعرف العالم على «طيف الخيال». وفى العام نفسه كتب استناداً إلى ما كانت تحتويه تلك النصوص حول «سوق سنوية مصرية فى القرن الثالث عشر». وإذ أدرك ياكوب أن ألعاب الظل أو طيف الخيال فى البلاد الإسلامية لا يمكن أن توجد دون نماذج جاءت من الشرق الأقصى، فقد راح يدرس تقاليد الهند والشرق الاقصى فى هذا الميدان، وتعلم فى سن متقدمة السنسكريتية والصينية، ليتمكن من متابعة دراسة هذا الفن. وكان أول عمل كبير وشامل نجم عن دراساته الطويلة كتابه «تاريخ مسرح ألعاب طيف الخيال فى الشرق والغرب» الذى صدر عام ١٩٢٥ فى طبعة ثانية موسعة. وبالاشتراك مع پاول كاله Paul Kahle استمر على دراسة وبحث أعمال ابن دانيال وساهم فى تأليف مقالات لأبحاث كاله عن العاب طيف الخيال العربية، كما أصدر عام ١٩٣٠ مؤلفاً عن ألعاب الظل الهندية.

وكما واجه جيورج ياكوب مسألة مسرح الظل لأول مرة فى تركيا، فقد كرس لمسرح الطيف التركى كتاباً خاصاً عرف الألمان فيه لأول مرة على قصص كاراغوز الهزلية الشعبية المحبوبة — وهو عمل تابعه هلموت ريتر بطريقة



جيورج ياكوب

نموذجية. ولكى يتصور الانسان مدى الجهد المبذول فى هذا الانجاز، فلا بد له أن يفكر بأن الدراسات التركية قلما كانت تجد مكاناً لها فى حقول العلم فى الجامعات الألمانية فى مطلع القرن الحالى. وإنه لعمل ياكوب الكبير وامتيازه الخاص أن يتمكن من ايقاظ الاهتمام بتركيا العثمانية وجميع اوجه ثقافتها. وهنا — كما كان الأمر فى العربية — اتسع ميدان اهتماماته اتساعاً مدهشاً؛ فقد كان اهتمامه بالغاً بالنحو التركى وبضرورة إعداد كتاب مساعد لتدريس اللغة العثمانية؛ وقد تعلمنا من كتابه المساعد — بين كتب أخرى — قراءة التمارين الأولى باللغة التركية العثمانية. إذ يضم كتابه قصصاً خرافية واشعاراً صوفية ونماذج باللهجات العامية ونصوصاً كلاسيكية بحيث يقدم للمبتدئ عرضاً جيداً ومختارات طريفة من الأدب التركى. وكما هو الحال فى كل أعماله فقد ظهر هنا ايضاً حب جيورج ياكوب لكل ما هو شعبى — إذ كان أول من شرح وحلل خطب القصاصين والمداحين الأتراك. ومن صفاته المميزة أنه لم يتردد فى الحرب العالمية الأولى، عندما كانت ألمانيا وتركيا تحاربان جنباً إلى جنب، لم يتردد فى تاليف معجم مساعد لرجال البحرية والممرضات، حيث كان فى تلك الأعوام منهمكاً إلى حد بعيد فى الدراسات التركية عموماً. ومع ذلك فانه لم يهمل العربية قطعاً بل إنه كان يحاضر كذلك فى مسائل تتعلق بالعهد القديم .. ومن أعماله الكبيرة أيضاً احياء «المكتبة التركية»، وهى تلك المجموعة من النصوص والدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام الحضارى والتى تشتمل على اكثر من خمس وعشرين دراسة هامة منذ عام ١٩٠٤. وقد نشرها وحده أولا، ثم اشترك فى ذلك مع المستشرق السويسرى رودلف تشودى R. Tschudi فيما بعد، واخيراً معه ومع المستشرق الكيلى

اللاحق تيودور منزل Th. Menzel، الذى تابع اعمال ياكوب حول المسرح التركى بنجاح كبير. وفى هذه السلسلة ظهر ذلك الكتاب الذى عرف الألمان لأول مرة على إحدى الطرق الإسلامية؛ ونعنى به دراسته للطريقة البكتاشية (١٩٠٨). ويعتبر هذا الكتاب عملا طليعياً حقيقياً، إذ لم يكن احد يعرف حتى ذلك الحين أى شيء عن تكوين الطرق الإسلامية وتاريخها، والبكتاشية بالذات — التى لعبت فى تركيا دوراً كبيراً جداً نظراً لارتباطها بالانكشارية — تتمتع بأهمية كبرى فى ميدان علم أخلاق الشعوب وكذلك فى دراسة تاريخ الأديان، فقد بقيت فيها عدة عناصر غير اسلامية، كما أنها تحمل معالم شيعية كثيرة. وحتى اليوم يعرف كل تركى القصص الكثيرة التى تدور حول إجابات شيوخ البكتاشية التى تمتاز بحضور البديهة وسرعة الخاطر. وبهذا العمل افتتح ياكوب دراسة التصوف الشعبى فى الإسلام؛ وإن قيامه بعد ذلك ببضعة أعوام بضم كتاب ريشارد هارتمان البديع «عرض القشيرى للتصوف» إلى المكتبة التركية، ليظهر مدى اهتمامه أيضاً بالتعريف بالأسس النظرية للتصوف الإسلامى فى قالب واضح سهل القراءة والفهم فى اوروبا.

وكما أبدى ياكوب اهتمامه منذ دراساته الأولى بالقضايا الموضوعية بعينها رافضاً أى رأى لا مبرر له حول المسائل اللغوية البحتة، فقد جذبه الفن ايضاً بجميع اشكاله — ابتداء من الفن المسرحى، الذى سبق أن ذكرناه اعلاه، حتى فن العمارة والبناء. ومما لاشك فيه أيضاً أن المتعة الفنية الخالصة قد لعبت دوراً هاماً كذلك فى انشغاله الطويل بدراسة هياكل ورسوم ألعاب الطيف الصينية. وكان الفن الاسلامى فى تلك الأعوام لايزال ميداناً مجهولا إلى حد بعيد، بحيث لم يحصل إلا تحت إدارة فيلهلم فون بوده W. v. Bode على مكان فى معرض الفنون العام لمتاحف برلين. ولم يبدأ التفهم الجديد للفن الاسلامى فى ألمانيا إلا بعد افتتاح المعرض الكبير لروائع أعمال الفن الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩١٠. وكان ياكوب أيضاً هو الذى اشتغل فى البيان الايضاحى على الفن السلجوقى والفن التركى والفن الاسلامى فى الهند — وكان كل من هذه الموضوعات جديداً تماماً ولم يخضه أحد بعد عملياً. ولكن هذا العالم الذى لا يعرف الكلل كان قبل ذلك قد نشر، فيما يتعلق بدراساته عن العلاقات الثقافية بين الإسلام واوروبا، كان قد نشر عام ١٩٠٥ دراسة حول انتقال الأقواس المدببة والأقواس الشبيهة بحذوة الحصان فى فن العمارة، ويعتبر أمراً محتملا أن القوس المدبب الغوطى قد تأثر بالقوس الإسلامى (كما يظهر مثلا فى مسجد ابن طولون فى القاهرة). وإذا لم يعد ياكوب بنفسه إلى تناول هذا الحقل فيما بعد إلا نادراً — وكان خبيراً ممتازاً بالطنافس الفارسية — فقد كان يشجع كثيراً من طلابه على الاهتمام بمسائل الصنعة اليدوية، كما يرد ذكرها وتعرض فى المصادر الإسلامية. فقد كان ياكوب نفسه يتمتع بطبيعة فنية قوية، وكان «رومانسياً ناقداً»، كما وصفه كارل هاينريش بيكر فى مقالته التقديرية الجميلة بمناسبة ذكرى عيد ميلاد ياكوب الخامس والسبعين. وقاده ذلك الميل الفنى كذلك إلى موضوع يتعدى حدود ألعاب الطيف والأساطير — إلى موضوع الأحلام: فدراساته حول الأساطير والأحلام التى صدرت عام ١٩٢٣ — ١٩٢٤ فى هانوفر تعطى الدليل على مدى انجذابه لهذا الحقل الجانبى ما بين الواقع الملموس وما فوق العالم الحسى — وكثيراً ما فسر المفكرون والمؤلفون الإسلاميون لعبة طيف الخيال كرمز لعمل اللاعب الخفى، الله، على ما يقول ابن الفارض.

لقد كان كل ما كتبه ياكوب متجهاً إلى الحياة، فى جميع مظاهرها وأشكالها المختلفة. وسواء أعالج مؤلفات العرب الجغرافية، أم كتب حول ما نشر حديثاً عن فلسطين، وسواء أدرس النحو التركى، أم نشر أشعار سلطانين تركيين، وسواء أترجم اشعاراً صوفية فارسية الى الشعر الألمانى، أم استخرج منها معلومات عن الحياة فى ايران فى العصر الوسيط — كان فى كل ذلك يبدى اهتمامه الدائم بكل ما هو نابض بالحياة. ومع أنه لم يسافر كثيراً، وكان يستقى شروحه فى الغالب من اختباراته الخاصة، إلا أن استعداده اللغوى الممتاز كان يعطيه سنداً وقوة كبيرين هنا. وقد دعاه بيكر فى مقالته التقديرية المذكورة أعلاه «بذى الفتوة المنفرد فى ميدان العلم» — رجل لم يكن من السهل دوماً الاتفاق والتعامل معه، إذ كان يعرب عن آرائه فى الغالب بخشونة ودون أى مراعاة؛ ولكن بيكر أكد كذلك على أن ياكوب كان يتمتع بمقدرة نادرة على رؤية العلاقات التاريخية الكبيرة وعلى الانغماس فى تقشف فى استقصاء وبحث التفاصيل بكل جهد وعناية. ولم يشتمل افقه على العالم الشرقى من الصين عبر الهند إلى البلاد الاسلامية فحسب، بل تناول كذلك دراسة الفولكلور والادب الأوروبى؛ ولكى يدعم دراساته جيداً فقد كان يهتم كذلك بالعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بها. وكان يعيد النظر دوماً على دراساته ويعيد العمل عليها، ويكيفها إلى أحدث مستوى علمى، ولكن مما يؤسف له

Kiel 16. 10. 1931
Feldstr. 117 I.

Sehr verehrtes Fräulein Doktor,

Heute möchte ich Ihnen erst für Ihre Arbeit und Ihren freundlichen Brief herzlichst danken, da ich meine Augen schonen muß. Das Beduinenleben hat mir in jüngeren Jahren so viel Gemeinheit eingetragen, daß ich oft bedauert habe, es geschrieben zu haben. Hätte ich statt dessen ein Buch über den [illegible] zur [illegible] oder ähnlichen Schwindel verfaßt, so hätten mir der größte [illegible]bock des Kontinents Prätorius und Geistesverwandte, die nicht begreifen können, daß historische und logische Entwicklung sich niemals decken, wahrscheinlich zugejubelt; aber damit war mir nicht gedient. So bin ich über das Türkische zum Indischen und schließlich zum Chinesischen

رسالة بعث بها جيورج ياكوب إلى الدكتور إلزه ليشتنشتيتر Ilse Lichtenstadter، وكانت قد بعثت إليه ببحثها الذى حصلت به على الدكتوراه وعنوانه «النسيب فى الشعر العربى القديم». وفى هذه الرسالة يكيل ياكوب اللعنة على عالم اللغات السامية بريتوريوس Prätorius (توفى ١٩٢٧) ملقبا إياه بـ«أكبر تيس أخرق فى القارة».

kommen. Als Gegengabe erlaube ich mir einen
verwandten Vortrag „Morgen und Abend" zu
übersenden; wenn Sie meine Schattenspiel-Studien
(Sitzungsberichte der Bayer. Akad. 2 Hefte) nicht be-
sitzen, sende ich Ihnen gern auch von diesen
1 Exemplar. Meine Bemühungen für eine Neu-
herausgabe meines Beduinenlebens, für die ich
viel Material gesammelt habe, einen Verleger
zu finden, waren länger als ein Jahrzehnt hindurch
vergeblich, so daß ich die Lust weiter zu sammeln
verlor und den Plan nach dem Kriege endgültig
aufgab. Es würde mich interessieren zu erfahren,
welche wissenschaftlichen und sonstigen Pläne Sie für
die Zukunft haben. Mit nochmaligem Dank

Ihr erg.

Georg Jacob

نشكر الأستاذة الدكتور إلزه ليشتنشتيتر، بجامعة هارڤارد (كمبردج ماساتشوستس) لاطلاعها إيانا على الرسالة المذكورة وسماحها لنا بنشرها.

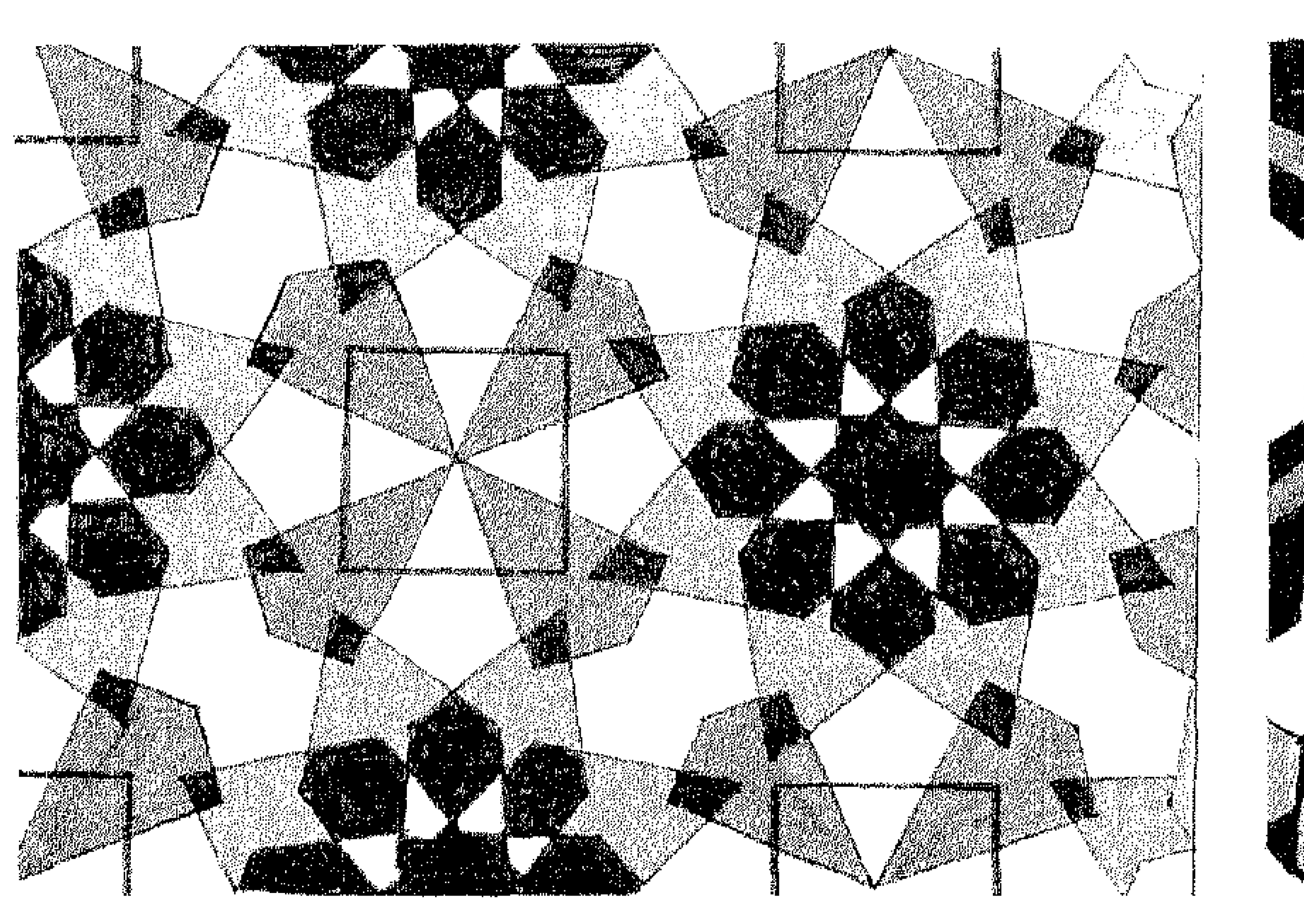
أنه كان يوزع أغلب نشراته العلمية فى آخر سنى حياته فى عدد محدود من النسخ المطبوعة بالآلة الكاتبة. وكانت صفة الشمول والكلية التى امتاز بها تمتد لتتناول أبعد الميادين وأقصاها، ونشعر فى جميع أعماله بطابع شخصيته القوية العنيدة. ولقد شق الطريق إلى دراسة الشرق الإسلامى دراسة تمتاز بطابع تاريخى حضارى وكذلك فولكلورى، مكافحاً فى ذلك ضد العقلية اللغوية الضيقة القديمة، وكذلك ضد الاتجاه المتحجر فى الدراسات السامية فى عصره، ويمكن أن نلمس مدى نفوذه وأثره العلمى فى مؤلفات كثيرين من أصدقائه وتلامذته واعمالهم. ولعله كانت تكمن وراء جميع أعماله الرغبة «فى التفهم العلمى لصيرورة الشعر»، أو بعبارة أخرى، تخطى ذلك الحد الذى يفصل بين العلم والفن. فقد كان ذلك الميدان الجانبى الجذاب المثير، حقل أبحاثه الخاص. وما أجمل قوله فى كتابه «الاساطير والأحلام»: «إن الحلم هو شعر لا واع. والحالم يبدع مسرحية، تظهر فيها شخصيات يفرض عليها أدوارها.

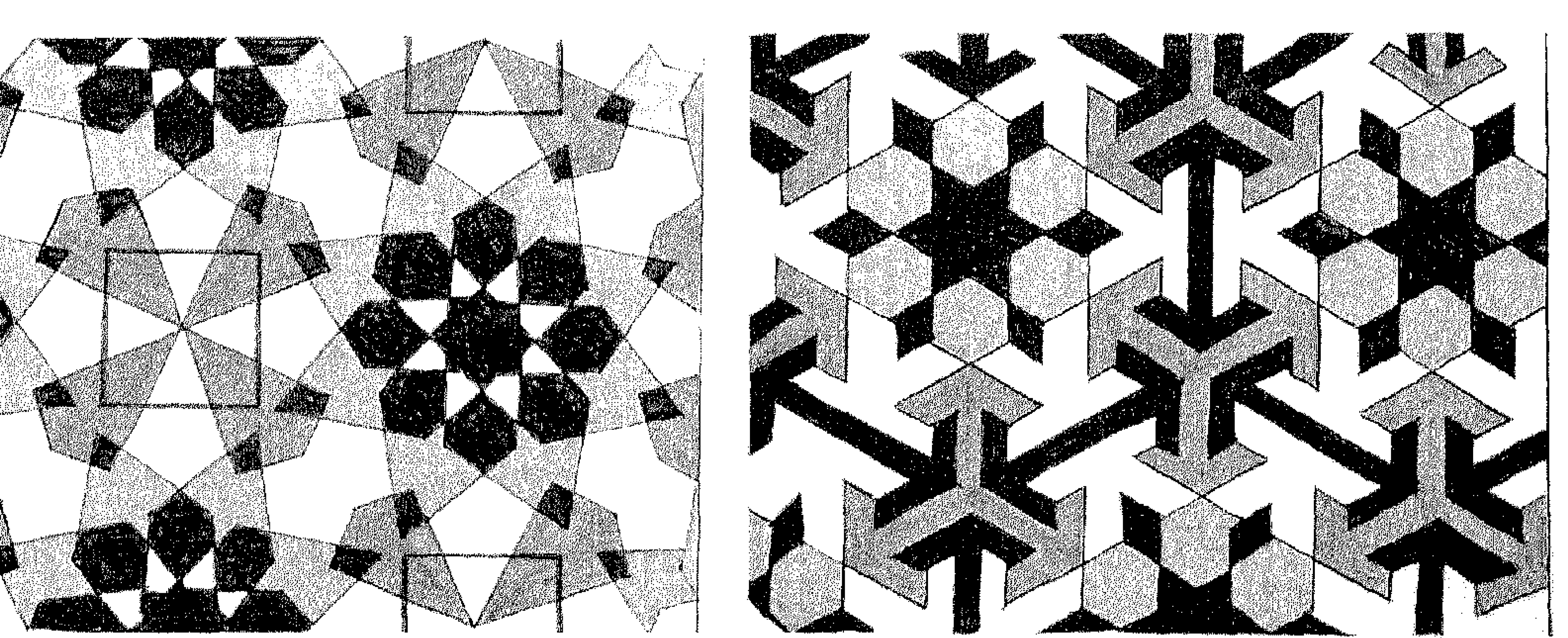
وتبدأ الحكاية الاسطورية صيرورتها بنقل تجربة الحلم إلى حالة الوعى.»

ألا يشبه بذلك الصوفيين الاسلاميين الذين يولون الاحلام دوراً كبيراً والذين كانوا دوماً يشيرون إلى الحد المتأرجح بين العالمين؟ وبهذه الصورة ينطق دوماً الشاعر التركى كشترى، الذى يرجع إلى غزله فى لعب الكارا غوز منذ زمن طويل لتفسير اللعب تفسيراً صوفياً (وكان ياكوب فى الحقيقة أول من درس ألعاب الكارا غوز دراسة علمية)؛ وبهذه الصورة أيضاً ينطق أعظم مغن فى التصوف العربى بطريقته الخاصة التى لا يمكن تقليدها، ونعنى به ابن الفارض:

فطيف خيال الظل يهدى اليك فى
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
ترى صور الأشياء تجلى عليك من
وراء حجاب اللبس فى كل خلقه.

ترجمة: محمد على حشيشو





الشرق في الأدب الألماني

بصمات شرقية فى الأدب الألمانى الوسيط

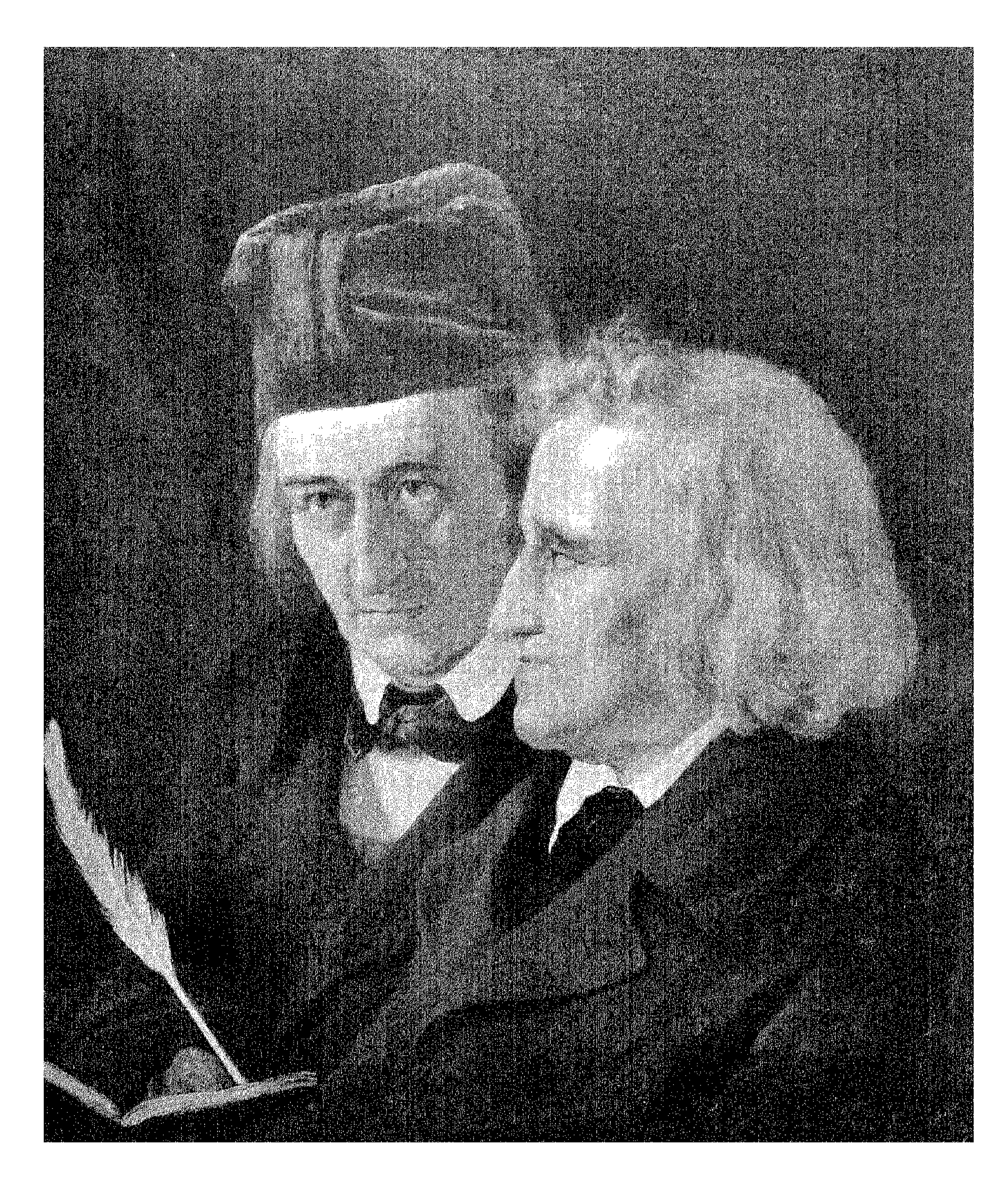
بقلم اوتو شپيس

إن العلاقات بين الشرق والغرب راسخة فى القدم متنوعة فى الوجوه. فمنذ آلاف السنين تنتقل التأثيرات المتبادلة عبر اقطار وشعوب مختلفة تارة فى هذا الاتجاه، وحيناً فى الاتجاه المعاكس. وحتى فى اليونان القديمة نلمس معالم التأثيرات الشرقية. فبعد زحف الاسكندر الاكبر إلى الشرق أخذت التأثيرات الشرقية على الفلسفة والفن والدين تزداد تدفقا. كما أن المدنية الاوروبية التى نشرها الاسكندر حتى نهر السند، ظلت قائمة لعدة قرون فى حضارة مختلطة ندعوها بالهيلينية. وتقوم صورة العالم فى اواخر العصور القديمة إلى درجة كبيرة على اسس شرقية كعلم التنجيم والفلسفة والعقائد الدينية الشرقية. ومن الشرق جاءت المسيحية أيضاً، وقد جعل الرومان الذين كانوا يحكمون بقاعاً واسعة من الشرق الأدنى، جعلوا من البحر الأبيض المتوسط بحيرة اوروبية كبيرة. وحتى قبل انتشار المسيحية كان طريق تجارى قديم يمتد من الشرق عبر جنوبى روسيا إلى أوروبا. وسواء أكانت شعوب الشرق والغرب تعيش فى تبادل واتصال سلميين أم فى علاقات عدائية وصدام حربى، فان مثل تلك الاتصالات كانت تعنى نقاط تحول فى تطور الحضارة الانسانية.

وكانت آخر ذروة فى العمليات من الغرب إلى الشرق وردود الفعل من الشرق إلى الغرب تتمثل فى قوة جديدة نشأت فى شبه جزيرة العرب وكان على اوروبا المسيحية أن تحسب لها حساباً أثناء العصر الوسيط كله: ألا وهى الإسلام. ففى عام ٦٣٢ توفى الرسول محمد. وبعد وفاته بثلاثين عاماً امتد سلطان خلفائه من بعده من نهر الأوكسوس حتى شمالى افريقيا. وعندما هدأت حركة تنقل الشعوب العربية فى بداية القرن الثامن، كانت الأصقاع الممتدة ما بين جبال هملايا حتى البيرينيه، وما بين البحر الأسود حتى خليج عدن تحت السيادة الإسلامية.

وكان مثل هذا التوسع قد أصبح ممكناً، أولا لأن محمداً استطاع أن يوحد القبائل العربية تحت لواء شعائره الدينية، وثانياً لأن الدول المجاورة كانت قد انهكت بعضها بعضاً فى حروب طويلة فيما بينها، بحيث أصبح الطريق من الصحراء العربية إلى الدول المتحضرة مفتوحاً. وبذلك تسلم الإسلام تراث الحضارتين القديمتين الرفيعتين: البيزنطية والفارسية. ومن المضيقين الذين يفصلان أوروبا عن آسيا وأفريقيا — مضيق البوسفور ومضيق أعمدة هرقل — تدفق الغزاة مواصلين زحفهم. ورغم أن البيزنطيين قاوموا فى الشرق حينا من الزمن — إذ فشل العرب فى حصار القسطنطينية لمدة سبعة أعوام (٦٦٨ — ٦٧٥) ذلك الحصار الذى نجحت مقاومته بالدرجة الأولى بفضل «النيران اليونانية»، وكذلك فشلوا فى محاولة أخرى عام ٧٠٧ — إلا أن الزحف العربى كان ماضياً فى طريقه دون أى مقاومة فى الغرب. وفى عام ٧١١ سقطت اسبانيا، التى ظلت لعدة قرون فيما بعد تحت السيادة الاسلامية. وأمكن أن يوقف استمرار الزحف إلى الشمال عبر جبال البيرينيه نهائياً بفضل انتصار الفرنجة بقيادة كارل مارتل، وذلك بعد قرن واحد تماماً من وفاة النبى العربى. وبذلك استطاع الفرنجة أن ينقذوا الحضارة المسيحية الغربية. أما نتائج وتأثيرات هذا العمل فلا يصح المبالغة فى تقديرها وتقييمها. إذ أن سيادة عربية مؤقتة — ونذكر اسبانيا مثلا — كانت ستكفى لتغيير وجه أوروبا! ولكن نجاح هذه المقاومة يظهر فى حقل السياسة الداخلية: إذ أن السلطة انتقلت من الميروفنجيين إلى الكارولنجيين، أى أن الجرمان هم الذين تسلموا زمام السيادة فى أوروبا.

ولم يكن الغزاة العرب جميعاً عرباً اقحاحاً من حيث العنصر والجنس، بل كانوا يضمون كذلك أتباع الشعوب المغلوبة أيضاً: من فرس ويهود ونصارى ويونانيين وبربر.



الأخوان گرِم، الشهيران بجمع القصص والأساطير الشعبية الألمانية (ياكوب گرم ١٧٨٥ – ١٨٦٣ وهو مؤسس علم اللغات الجرمانية، ڤيلهلم گرم (١٧٨٦ – ١٨٥٩). لوحة من رسم إليزابيت يريخاو– باومان El. Jerichau-Baumann (١٨٥٥).

وكانت عروة الاسلام الوثقى هى التى توحد بينهم جميعاً. والإسلام ليس ديناً فحسب، بل إنه كذلك فلسفة ودستور سياسى ومدنية. ولذا فاننا لا نستطيع فيما يلى أن نتحدث عن الحضارة «العربية»، بل لا بد لنا من الكلام عن الحضارة «الإسلامية» التى تتضمن إلى جانب العناصر العربية السامية عناصر هيلينية وشرقية اخرى.

بعد أن انتهت الفتوحات وثبت الغزاة دعائم حكمهم فى البلاد المغلوبة ازدهرت فى كل مكان حياة سلم واستقرار. ونمت التجارة والحرف الصناعية، كما تطورت فى المدن ثقافة برجوازية، فانشئت المساجد والمدارس الابتدائية

والعالية فيها، كما ازدهرت فى قصور الخلفاء والامراء والولاة حياة زاخرة بالحضارة والعلم. وكانت هذه الحضارة تحتل قمة عالم ذلك الزمان. وكانت ترعى جميع فروع العلم: فكان الأطباء والمنجمون والرياضيون والمؤرخون والشعراء والفلاسفة، وخاصة علماء الدين والمشرعون، يبحثون ويدرسون بعزائم لا تفتر، فكانوا من جهة يكشفون بترجماتهم النقاب عن علوم الأوائل والعالم القديم، وكانوا من جهة اخرى يبحثون ويستقصون ويبدعون ما هو جديد تماماً، وكرسوا جهودهم خاصة للدراسات الإسلامية المتصلة بالدين. وجلبوا من بلاد الشرق تراثاً حضارياً وتلقوا كثيراً من المعارف العلمية، وواصلوا تراث العالم القديم الذى كان لابد له أن يولد فى الغرب جديداً. وبذلك أصبح العرب وسطاء حضاريين، وحصلوا بدورهم هذا، كوسطاء، على أهمية عالمية. وكانت وساطتهم من الجهتين: وساطة أخذ، ووساطة عطاء. وتقبلت أوروبا هذه الوساطة بوفرة. ففى جميع حقولنا الثقافية يتضح تأثير الشرق على الغرب فى العصر الوسيط. وتزخر اللغة الألمانية بالكلمات العربية أمثال: Admiral أمير البحر و Arsenal دار الصناعة و Alkohol الكُحُل و Arrak العرق و Laute العود و Magazin المخزن و Razzia الغزوة و Sirup الشراب و Tarif التعرفة و Zucker السكر وغير ذلك. وهناك اشياء حضارية كثيرة جاءتنا من الشرق كالورق والبوصلة والشطرنج وبعض أدوات الترف والمنسوجات وما شابه ذلك. وقد أخذنا كثيراً من العلوم العربية كالرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية التى لا يمكن اعتبار تاريخها العام كاملا دون أخذ الإسهام العربى فيها بعين الرعاية والاعتبار: فهناك الأرقام العربية، والصفر، والرمز × س، وهو اختصار «شىء» العربية، والمفاهيم والمعارف الفلكية مثل: Azimut السموت و Zenith السَّمت و Nadir نظير السمت وما شابه ذلك. وفى الفلسفة نقل العرب الحكمة اليونانية وأثروا بفضل ابن رشد وابن سيناء على فلسفة العصر الوسيط الأوروبية. أما أعمالهم فى الحقل الفنى، كحقل البناء (الأقواس المدببة)، والزخرفة (النقش الزخرفى العربى Arabeske)، والصناعة الفنية، فمعروفة شهيرة. وفى حقل الأدب أيضاً يتوفر من الادلة التى تشير إلى المؤثرات الشرقية ما يفوق حد التصور العام.

وإذا اتجهنا الآن إلى النتاج الشعرى فيمكن القول أولا بأن تياراً لا حد له من التأثيرات الأدبية تدفق من الشرق إلى الغرب. ولكننا لا نستطيع الكلام عن المواد والموضوعات العربية الاسلامية إلا بالقدر الذى كانت هذه العناصر والموضوعات معروفة به عند العرب ومنتشرة بينهم، أو ما انتقل بوساطة العرب؛ وفى ذلك لا يجوز القول بأنها جميعاً عربية أصيلة، أى أنها وليدة شبه الجزيرة العربية. والأغلب أن كثيراً من الاساطير والحكايات والمواد القصصية الهندية والفارسية واليهودية والمسيحية التى كان يجرى تداولها فى الشرق انتقلت بالوساطة العربية إلى اوروبا، حيث ظهرت بحلل أوروبية. وكثيراً ما يصعب أن نشير الآن إلى الطريق الذى اتخذته هذه المواد والعناصر القصصية من الشرق إلى الغرب، حيث أن حلقات الاتصال فى هذا الطريق مازالت مجهولة أو مفقودة. وان كثيراً من النماذج والحلقات التى يجرى البحث عنها قد تكون لا تزال تهجع فى الأدب الفارسى والعربى، إذ أن كثيراً من الأشعار القصصية والأساطير الفارسية وكثيراً من المجموعات وقصص الفروسية العربية التى يشتمل بعضها على عدة مجلدات مازالت مغلقة فى وجه البحث العلمى. ولكننا نستطيع اليوم أن نقول على وجه التحقيق أن الغرب مدين للشرق بتراث أدبى كبير. وكان فن الرواية يرعى منذ الأزل فى الشرق. والعرب شعب مرح فكه محب للطرائف والنوادر، وقد بلغ تقديرهم لمعرفة الروايات والقصص حداً جعلهم يعتبرونها من فنون الأدب الرفيع. وعند تعداد فنون الأدب، وهى عشرة، يقول الوزير الحسن بن سهل أن معرفة القصص التى يتداولها الناس فى مجالسهم الاجتماعية، وهى العاشر بين هذه الفنون، يفوقها جميعاً. وهكذا فالعرب يملكون كنزاً وافراً من القصص والحكايات.

طرق التجول والتجارة

كانت الطرق التى انتقل عبرها التراث الشرقى الإسلامى إلى الغرب مختلفة الأنواع:

١ — فقد كانت اسبانيا (من القرن السابع إلى العاشر) بالدرجة الأولى احدى طرق الانتقال هذه. وبعد فتحها عام ٧١١ وسيادة السلطة المركزية للخلافة عليها، انتقلت شبه الجزيرة الإيبيرية عام ٧٥٥ إلى سلطة الامير الاموى الذى حرم من الخلافة، عبد الرحمن، الذى انشأ هناك خلافة مستقلة، سرعان ما ارتفع شأنها فى ازدهار حضارى رفيع. وأصبحت العاصمة قرطبة مركز الثقافة والعلوم الاسلامية. وتحت سيادة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) بلغت الصناعة والفنون والعلوم الاسلامية اوج مجدها. وكان الطلاب والعلماء يفدون من جميع اقطار اوروبا للدراسة فى الجامعات الأندلسية. ومنذ بداية القرن

الحادى عشر انتقلت السلطة السياسية إلى أيدى وزراء متعطشين للحكم، وبذلك انقسمت الخلافة إلى امارات صغيرة راحت تتنازع فيما بينها.
٢ — أقامت الحملات الصليبية (من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر) صلات جديدة تمثلت فى شكل هجوم معاكس من الغرب. فلأول مرة اقتحمت الشعوب الرومانية والجرمانية الشرق وتعرفت على حياته ومنتوجاته. وأصبح الفرسان الصليبيون على اتصال شخصى مع الشرقيين من مسيحيين ومسلمين. وقامت بالقرب من اديسا (الرها، Urfa) لمدة نصف قرن دوقية مسيحية كان يحكمها الامراء الفرنكيون الجرمان. وكان الصليبيون يعودون من حملاتهم وهم يحملون من الشرق إلى بلادهم المنتوجات والسلع المترفة والتحف التذكارية الدينية الشرقية. وبدأ تأثير الحملات الصليبية يظهر بالطريقة نفسها فى الحقول الثقافية. فإلى جانب السلع المادية نقلت كذلك عناصر قصصية واسطورية من الشرق البيزنطى النصرانى وكذلك الاسلامى إلى أوروبا.
٣ — وقام بدور الوساطة أيضاً المدن التجارية الايطالية. فقد أصبح البحر الأبيض المتوسط معرضاً للمواصلات وللنشاط التجارى الذى ازدهر فى مدن البندقية وپيزا ولوكا وجنوا والذى انتقل إلى شمالى اوروبا. وكانت أساطيل المدن الايطالية تبحر إلى سواحل آسيا الصغرى وسوريا وإلى الاسكندرية، وكذلك إلى البحر الأسود فيما بعد. وبذلك انتقلت اصطلاحات تجارية الى الغرب مثل: Awal الحوالة، و Mohatra المخاطرة، و Risiko الرزق و Tarif التعرفة، و Magazin المخزن، و Zechine السكة وغير ذلك من اصطلاحات مماثلة. ونذكر بين السلع والمواد الغذائية: Kaffee القهوة، و Zucker السكر، و Safran الزعفران، و Damast الدمشقى وكثيراً غيرها. وعبر جبال الألب انتقلت السلع الشرقية إلى المدن التجارية المزدهرة: آوغسبورغ ونورنبرغ واُلم وريكنزبورغ وانكولشتادت.
٤ — ونشط اليهود كوسطاء بين العرب والأوروبيين، وخاصة فى اسبانيا، حيث اشتهروا كعلماء بارزين فى جميع ميادين العلم؛ وعملوا كمترجمين وكذلك كمعلمين فى جامعات اسبانيا وفرنسا وايطاليا. ويكفى أن نذكر القارئ برجال الفترة ما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر امثال ابن جبريول (ويدعى باللاتينية Avicebron) وابن ميمون (Maimonides) وليڤى بن جرسون (Levi ben Gerson).
٥ — وفى العصر الزاهر للامبراطورية العثمانية (من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر) وسع الاتراك سلطانهم ليشمل بلاد البلقان أيضاً. وبعد معركة موهاكس عام ١٥٢٦ سقطت هنغاريا، وبعد ذلك بثلاثة أعوام حاصر الأتراك ڤيينا. ثم فشل آخر هجوم لهم تحت قيادة الوزير الأكبر قرا مصطفى عام ١٦٨٣. ومنذ ذلك الحين استمر انهيار الدولة العثمانية ببطء. وقد ترك الحكم التركى الطويل الأمد فى البلقان آثاره الجلية. فى الميدان الأدبى نستطيع القول بأن الاتراك نقلوا إلى الشعوب البلقانية والسلاڤية قصصاً شرقية واساطير تركية. كما أن سيادة المغول التى دامت مائتى عام على الشعوب السلاڤية لم تزل دون أن تخلف آثارها أيضاً. ونستطيع الافتراض بأن بعض التراث القصصى أنتقل عن هذا الطريق إلى اوروبا الشرقية.
والآن، وبعد أن أشرنا إلى الطرق التى انتقل عبرها التراث الثقافى الشرقى إلى اوروبا وتغلغل فيها، ننتقل إلى التأثيرات نفسها، كل على حدة. ومن الطبيعى أنه ليس من الممكن أن نبحث جميع التأثيرات الأدبية فى هذا الحقل الواسع وأن نتابع جميع العناصر والمواد أثناء تجوالها وعلى طرق انتقالها إلى الغرب، بل نكتفى أن ننتزع بضعة امثلة بارزة من هذا الخضم الواسع الذى لا نكاد نستطيع استيعابه بكليته. ولا يهمنا فى ذلك الاشارة إلى ملامح ومواضيع منفردة قائمة بذاتها بقدر ما تهمنا قصص وعناصر بكاملها. وعلينا فى بادئ الأمر أن نميز بين تأثيرات من نوعين مختلفين: مباشرة وغير مباشرة. فالتأثيرات المباشرة تستند إلى التراث الشفوى المتداول خلال العصر الوسيط وفيه تنتقل القصة من لسان إلى آخر. ولذا تطلق على ذلك عبارة العناصر المتداولة. وبطبيعة الحال فان الصيغ الأدبية التى يراد منها أن تقرأ على المستمعين والتى يعاد سردها بعد الاستماع إليها تقف إلى جانب التراث الشفوى فى علاقة متبادلة حية. أما ما نقصده من التأثيرات غير المباشرة هنا فهى التأثيرات الأدبية الخالصة التى تنشأ بالدرجة الأولى من الاستخدام المباشر للمصادر الشرقية التى تترجم إلى الألمانية. ومع القرن الثامن عشر تعرف شعراؤنا على كثير من المؤلفات والمواد الشرقية من ترجماتها الألمانية بحيث أفادتهم وقدمت لهم افكاراً غنية استخدموها فى صيغ شعرية ذاتية.

الأساطير المتجولة

ولنبدأ بالحكايات الخرافية. إننا نعلم اليوم أن نظرية بنفاى Benfey حول نشوء الأساطير فى الهند قد تعدت الهدف المرسوم. ومع ذلك فقد اتضح أنه كلما تقدم بحث

الحكايات الخرافية المقارن أدركنا أن كثيراً من موادنا الاسطورية القصصية جاءت من الهند. وكما يقول ف. فون در لاين Fr. von der Leyen (فى المؤلف الاحتفالى الخاص بكون Kuhn، ص ٤٠٤) فإن من الحقائق التى تزداد ثباتاً بحيث لا يمكن دحضها «أن عدداً من الحكايات الخرافية التى مازلنا نحب سردها حتى اليوم والتى تعتبر من اكثرها انتشاراً تحتفظ بأشكالها الأصلية الأولى فى الهند.» وبالاستناد إلى مواد مقارنة ومتفاوتة كثيرة فاننا نستطيع أن نقتفى أثر الطرق التى اتبعها عدد كبير من أقاصيصنا الخرافية فى انتقالها من الشرق إلى الغرب بحيث يمكن ببساطة أن نتحدث عن حكايات خرافية متجولة، واساطير متجولة، واقاصيص متجولة. ومن الحلقة الكبيرة الواسعة لمثل هذه الحكايات الخرافية المعروفة عندنا نؤكد على جزء منها كان موضوعاً لدراسات علمية وهى التالية:

«الملك فى الحمام» (هـ. فارنهاكن H. Varnhagen، دراسة اسطورة هندية فى انتقالها عبر الآداب الأسيوية والأوروبية، برلين ١٨٨٢)؛ و«الأرملة الخائنة» (إ. كريزباخ E. Griesebach، الأرملة الخائنة، حكاية صينية وانتقالها فى الأدب العالمى، ڤيينا ١٨٧٣؛ وأ. شونباخ A. Schönbach، دراسات حول الأدب القصصى ٥، ڤيينا ١٩٠٣، شوڤان Chauvin ٨، ص ٢١٠)؛ و«الزوج الجحودة» (ج. پاريس G. Paris، مجلة جمعية الدراسات الشعبية ١٣ (١٩٠٣)، ١ — ٢٤؛ ١٢٩—١٤٩؛ تباين روايات الأسطورة فى اللغات السلافية (ج. پوليڤكا G. Polivka تظهر فى الصفحات ٣٩٩—٤١٢)؛ إن هذه الحكاية التى نشأت فى الهند انتقلت من جهة إلى الشرق الأقصى، ومن الجهة الأخرى إلى الاوساط اليهودية والاسلامية، ومنها انتقلت حديثاً إلى اوروبا.

و«الدكتور العارف بكل شيء» (ت. زاخاريه Th. Zachariae، مجلة جمعية الدراسات الشعبية، ١٥ (١٩٠٥)، ٣٧٣ — ٣٧٩، دراسات صغيرة، ١٣٨ — ١٤٥)؛ و«العروس البديلة» (آرفِرت Arfert، موضوع العروس البديلة فى الأدب القصصى العالمى، اطروحة دكتوراه، روستوك ١٨٩٧)؛ و«الفلاح الحالم» (. پ بلوم P. Blum، قصة الفلاح الحالم فى الأدب العالمى، تيشن ١٩٠٨)؛ وكذلك الحكايات الخرافية التالية: الخاتم السحرى، والطائر السحرى، والأشياء السحرية الثلاثة، التى جاءت فى الأصل من الهند أو فارس (أ. آرنه A. Aarne، دراسات مقارنة فى القصص الخرافية، هلسنكى ١٩٠٨)، وحكايات كثيرة أخرى.

حكايات الاخوين كرم Grimm الخرافية

منذ بواكير الشباب ونحن نعرف حكايات الأخوين كرم الخرافية الجميلة التى كنا نعتبرها تراثاً ألمانياً قديماً. ولكن الحقيقة ليست كذلك. بل ان الأخوين كرم نفسيهما قد أدركا أن الحكايات الشعبية الألمانية كانت متأثرة بمجموعة الف ليلة وليلة العربية. وقد وجدا مصدراً مثالياً لثمان حكايات خرافية من مجموعتهما فى قصص ألف ليلة وليلة وهى: ١ — صياد السمك وزوجه (الرقم ١٩)، ٢ — اللص الخبيث وسيده (الرقم ٦٨)، ٣ — ستة يجولون العالم كله (الرقم ٧١)، ٤ — الجبل الذهبى (الرقم ٩٢)، ٥ — الطيور الثلاثة (الرقم ٩٦)، ٦ — ماء الحياة (الرقم ٩٧)، ٧ — الروح فى القارورة (الرقم ٩٩)، ٨ — جبل سميلى (الرقم ١٤٢). أما الحكاية الاخيرة هذه فهى مأخوذة مباشرة من حكاية «على بابا والأربعون حرامى». فبينما يسترق الأخ الفقير السمع إلى اللصوص وهم يهتفون: «افتح يا جبل سمسى» ينفتح جبل ملئ بالكنوز أمامهم، ثم يغلقونه بقولهم: «أغلق يا جبل سمسى». وعلى أثر ذلك أصبح الفقير غنياً. وقام اخوه الحسود باستراق السمع إليه، ففتح الجبل، ولكنه لم يستطع الخروج، إذ بدلاً من أن يقول سمسى، راح يهتف: «سيميلى، سيميلى». ثم جاء اللصوص وقتلوه. أما الكلمة الألمانية Semsi فهى بالعربية السمسم، الذى يملك قوة سحرية فى الخرافات الشرقية.

لقد تمكنت أبحاث الحكايات الخرافية المقارنة التى بدأت منذ عهد الأخوين كرم، وخاصة أبحاث ر. كولر R. Köhler، وف. شوڤان V. Chauvin، وى. بولته J. Bolte، وج. باريس G. Paris، وإ. كوسكان E Cosquin، وأ. ڤسلسكى A. Wesselski، وغيرهم، لقد تمكنت هذه الدراسات من إعادة سلسلة أخرى من حكايات الأطفال والأساطير المنزلية التى قدمها الأخوان كرم إلى اصول عربية. وقد جمع بولته وبوليڤكا Bolte — Polivka فى كتابهما الفريد من نوعه الحكايات المماثلة فى الأدب العالمى لحكايات كرم الخرافية. وقام الباحث الضليع ف. فون در لاين فى تصديره لهذه الحكايات الخرافية بتصنيف الأقاصيص حسب فترات نشوئها الزمنية، وتحقق فى ذلك من وجود تأثيرات شرقية فى ٢٢ حكاية خرافية منها. ومن الطبيعى أن تأثير قصص ألف ليلة وليلة على الحكايات الخرافية الألمانية بدأ قبل الزمن الذى أصبحت مجموعة ألف ليلة وليلة فيه معروفة عندنا بطريق الترجمة. وتبلغ الاستعارة من قصص ألف ليلة وليلة حداً كبيراً بحيث أن هناك اتجاها إلى الاعتقاد بوجود



راعية تسفيرن (بالقرب من كاسل) التي قصت الكثير من الأساطير الشعبية على الأخوين گرِم. حفر على النحاس الأحمر للفنان لودفيج إميل گرِم Ludwig Emil Grimm.

ترجمة اسبانية مبكرة لقصص ألف ليلة وليلة. (راجع Wallonia ٦، ١٨٩٨، ص ٨٨ وما بعدها.)

مجموعات الأقاصيص الشرقية

كان يوجد فى الشرق أدب روائى وقصصى قديم، كان منتشراً فى ترجمات وصيغ عديدة بين جميع شعوب الشرق. وقد جاء قسم من هذه المواد القصصية من الهند، بينما ورد القسم الآخر من العالم الهيليني. ونذكر القصص الدينية وقصة إيسوب وقصة الاسكندر الاسطورية وقصتى بارلام ويوازاف وكثيراً غيرها. ونود فيما يلى أن نتعرض بايجاز لثلاث من هذه القصص التى انتقلت من الهند إلى فارس ثم تغلغلت إلى البلاد الاسلامية حتى وصلت بوساطة العرب واليهود إلى الغرب فى العصر الوسيط :

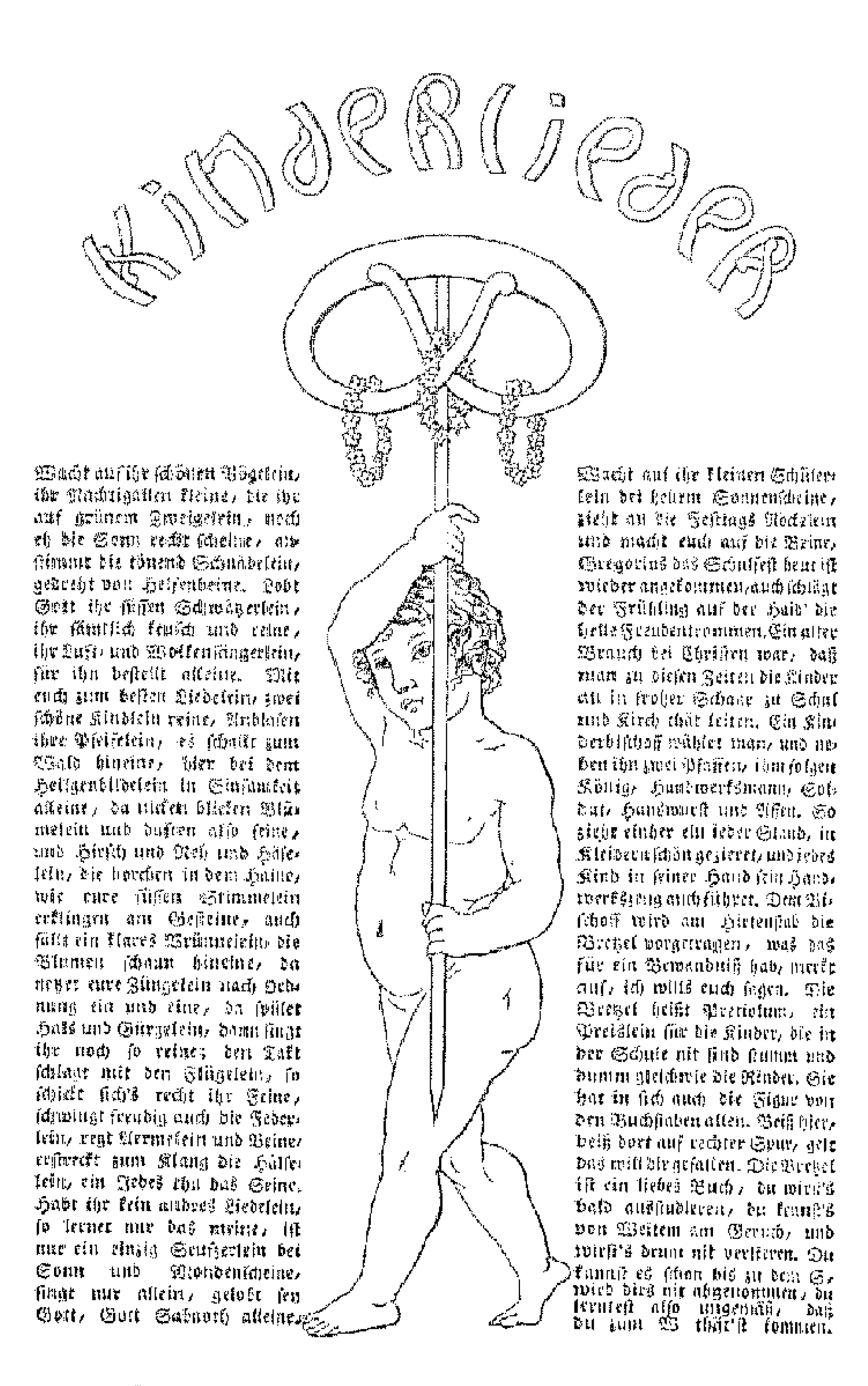
١ = إن الاسطورة المسيحية يوزافات، وهو قديس أدخله البابا غريغورى الثالث عشر عام ١٥٨٣ فى عداد القديسين المسيحيين، ليست سوى اسطورة بوذية حرف فيها الاسم الهندى بوديزاتفا Bodhisattva أثناء النقل والترجمة إلى بودازاف Būdasāf، ثم حصل خطأ فى النقل فى النسخ العربى إذ أصبحت الباء ياء باضافة نقطة ثانية، فصار الاسم يودازاف Jūdasāf، ثم أصبح فى اليونانية يوازاف Joasaph، وأخيراً يوزافات Josaphat ومن العربية اتخذت ترجمة عبرية لم يوجد الأصل النموذجى العربى لجميع أجزائها مع ذلك. وكان المترجم اليهودى الاسبانى ابن صموئيل ابن خسداى Ben Samuel ibn Chisdai (توفى عام ١٢٤٠ فى برشلونة)؛ وقد تتبع إ. كون E. Kuhn تاريخ هذه الرواية فى الأدب العالمى.

٢ = وفى كليلة ودمنة نجد أساطير بوذية لبيدپاى (بيدبا) Bidpai، اتخذت طريقها عبر فارس والبلاد العربية إلى الغرب. وتحت حكم كسرى انوشروان (٥٣١ — ٥٣٧) تُرجم الكتاب إلى اللغة البهلوية. ومن هذه الترجمة صيغت ترجمتان: سريانية وعربية واتم الأخيرة عبد الله بن المقفع (المتوفى عام ٧٧٨). وأصبحت ترجمته العربية تشكل الأساس لكثير من الترجمات، واليها كذلك تعود الترجمة العبرية التى أتمها الحاخام يوئل Rabbi Joel، والتى نقلها اليهودى الذى تمسح وتعمد باسم يوهانس دى كاپوا Johannes de Capua بين ١٢٦٣ و ١٢٧٨ إلى اللغة اللاتينية. وكان لهذه الترجمة اللاتينية تأثير متصل على أوروبا المسيحية.

٣ = وهناك كتاب آخر من أصل هندى وهو كتاب السندباد، الذى يعتبر إلى جانب كليلة ودمنة، على حد رأى بنفاى، «فى قمة دائرة أدبية شرقية عظيمة الشمول كبيرة الأثر.» وتظهر قصة السندباد بالعبرية تحت اسم «سندبار» Sendabar، وفى اليونانية «Syntipas»، وفى أوروبا تحت عنوان «السادة الحكماء السبعة». ويُعلق الناشر هيلكا Hilka على احدى الترجمات اللاتينية الحديثة الاكتشاف، والتى نقلت عن الترجمة العبرية، بقوله: «تحصل هذه المخطوطات على قيمة فريدة



الصفحة الأولى من الطبعة الأولى لمجموعة الأغانى الشعبية الألمانية التى أصدرها كليمنس برنتانو Clemens Brentano وآخيم فون آرنيم Achim von Arnim عام ١٨٠٨ تحت عنوان: «البوق السحرى للصبى».



صورة مأخوذة عن الطبعة الأولى لكتاب: «البوق السحرى للصبى».

من نوعها من حيث أنها تبدو وقد أقامت الجسر بين الشرق والغرب».

مجموعات الاقاصيص الاوروبية

ولنوجه أنظارنا الآن إلى مجموعات الأقاصيص والروايات الأوروبية، التى ألفت أو جُمعت فى الغرب فعلا، ولكنها تقوم إلى حد ما على عناصر أو نماذج شرقية تم الحصول عليها من التداول الشفوى أو التوارث الأدبى. ويحتل المكان الأول بينها مجموعة «الأنظمة الكنيسية Disciplina Clericalis» التى ألفها اليهودى المعمد بيتروس ألفونسو Petrus Alphonso عام ١١٠٦. وتحتوى هذه الانظمة الكنيسية، وهى أقدم كتاب روائى فى العصر الوسيط، على ٣٤ أقصوصة أصبحت جميعها جزءاً لا يتجزأ من الأدب الروائى الفكاهي الأوروبى. ويقول بيتروس الفونسو نفسه: «ولهذا السبب فقد ألفت كتيباً جعلت جزءاً منه يتكون من أمثلة الفلاسفة ومحسناتها العربية مع اقاصيص وأشعار، وجزءاً آخر يتكون من تشابيه الحيوانات والطيور.» وقد تم البرهان على الأصول العربية لثلث هذه الحكايات. وفى بعض الأحيان يشير بيتروس ألفونسو بنفسه إلى منبع قصته بقوله: «العربى المقضى عليه بالموت ...» وحتى بيديبه Bédier، الذى يرفض فكرة انتقال الحكايات الخرافية، يعترف فى أربع حكايات بالأصل العربى: حكاية نصف الصديق وحكاية الكليب الباكى (شوفان ٨، ص ٤٥ و٩ ص ٢٢) (شوفان ٩، ص ١٥)، وحكاية قاطف الكروم (شوفان ٩، ص ٧)، وحكاية الفلاح والعصفور (شوفان ٣، ص ١٠٣؛ باسيه Basset، ٢، ص ٢٦٩ — ٢٧٧). وقد أثبت باسيه فى كتابه: «ألف ليلة وليلة، روايات

وحكايات خرافية، المجلدات ١ — ٣، ١٩٢٤ — ١٩٢٧» على وجود نماذج عربية اخرى اشتقت من الأدب العربي: كحكاية الشاعر والأحدب (شوڤان ٩، ص ١٩)؛ وحكاية ابني المدينة والفلاح (شوڤان ٩، ص ٢٨؛ باسيه ١، ص ٥١٦ — ٥١٨)؛ وحكاية البئر (شوڤان ٨، ص ١٨٤؛ باسيه ٢، ص ١٢٧ — ١٣٠)؛ وحكاية الأعمى وزوجه وعشيقها (باسيه ٢، ص ١٥٠ — ١٥٢)؛ وحكاية الصناديق العشرة (شوڤان ٢، ص ٩٢؛ ٥، ص ٨٥ و٢٥٢؛ ٨، ص ٦٣ — ٦٤؛ ٩، ص ٢٣ و٢٥)؛ وحكاية كيس النقود المفقود (شوڤان ٩، ص ٢٦)؛ وحكاية اللص وشعاع القمر (شوڤان ٢، ص ٨٤؛ ٩، ص ٣١). ومما يؤسفني أنني لا استطيع أن اتتبع تاريخ عناصر هذه الحكايات في هذا المجال، رغم أهمية الأدلة الطريفة التي توصل اليها الباحثون في ذلك. واشير فقط إلى «حكاية العجوز وكلبها»: فقد اقنعت امرأة عجوز امرأة محتشمة عفيفة أن كلبة كانت تعوى من شدة ألمها لالتهامها فطائر مزجت بالتوابل الحادة كانت ابنتها وقد استحالت إلى كلبة صغيرة لأنها صدت عاشقها. واضطرت المرأة العفيفة أخيراً إلى الاذعان. وقد قام بترجمة هذه الحكاية شتاينهوڤل Steinhöwel (المتوفى حوالى ١٤٨٢) وپاولي Pauli (المتوفى حوالى ١٥٣٠) وقام هانز زاكس Hans Sachs بتنقيحها. وقد نقلها پاولي مباشرة من مجموعة «الأنظمة الكنائسية» وضمها إلى مجموعته الفكاهية التي أنهاها عام ١٥١٩ تحت عنوان «مزاح وجد» Schimpf und Ernst، كما أشار بولته Bolte إلى ذلك في تصديره.

وفي اسبانيا ألف خوان مانويل Juan Manuel (القرن الرابع عشر) مجموعة الحكايات التي تحمل عنوان «الكونت لوكانور» El Conde Lucanor التي نقلها يوزف فون آيشندورف J. von Eichendorff إلى الألمانية. وتحتوى هذه المجموعة على تراث قصصي كبير من الشرق. ألا يشير الاسم نفسه إلى الأصل العربي؟ فالاشكال الوسيطية المتعددة للاسم الواحد: لوكانين Lucanin ولوكانيان Lucanian ولوكامان Lucaman قد تكون تحويرات للاسم العربي لقمان. وقد اعطى شوڤان في المجلد الثاني، ص ١٤٧ — ١٦٢، تحليلا للأربع والخمسين حكاية التي تحتويها المجموعة. وندرك من ذلك أن خوان مانويل قد استقى بعض محتويات حكاياته من بارلام Barlaam ويوازاف Joasaph ومن پيتروس ألفونسو ومن مجموعة «أعمال الرومان» التي سنبحثها الآن. ولو تتبعنا المواد الوفيرة التي قدمها شوڤان لتمكنا من الاشارة إلى الخيوط التي تصل كثيراً من هذه المواد بالاصول العربية. فموضوع أوثيلو (عطيل) مثلا تتناوله حكاية «التاجر العائد من الغربة». وتساهم في ذلك أمثلة كثيرة مشابهة من الأدب العالمي. والطريف أن خوان مانويل يجعل للقصة نهاية سعيدة، بينما تظهر الصيغ العربية خاتمة تراجيدية. وتتخذ آخر الحكايات التي تسربت إلى كتاب الحكايات والقصص الخرافية التركي «خروس قاردش» نهاية مأسية كذلك. وهكذا فان الصيغة الروائية التي انتقلت إلى كتاب «الكونت لوكانور» في القرن الرابع عشر تعتبر جسراً بين الشرق والغرب.

وهناك كتاب آخر، كان واسع الانتشار كثير التداول في العصر الوسيط، وهو كتاب «أعمال الرومان» Gesta Romanorum. وتختلف الآراء حول مؤلف هذا الكتاب ومكان تأليفه وسنة صدوره. وما يهمنا نحن هنا هو مضمون الكتاب فقط؛ فهو يحتوى على أساطير وحكايات خرافية وقصص حب وخيانات زوجية، تضم عناصر قصصية اغريقية ويهودية ومسيحية وكذلك شرقية. وفي الدراسات والأبحاث العلمية الكثيرة المتوفرة حتى الآن لم تعالج، حسب رأيي، مسألة المصادر الشرقية بالكفاية والتفصيل اللازمين. وعند المقارنة التاريخية الأدبية سيتضح المدى الذى بلغه الاستقاء من المصادر الشرقية. إذ يمكن التدليل على عدة نماذج اشتقت من بارلام ويوازاف (شوڤان ٣، ص ٩٨،٩٩؛ ٤، ٩٩؛ ٦، ١٠١؛ ٨، والخ)، ومن كليلة ودمنة (شوفان ٢، ص ٨٤؛ ١١، ٩٤؛ ٤٣، ٩٦؛ ٥١، ٩٩؛ ٥٨، ١٠٦؛ ٧١، ١٢٨، ١٣٧، والخ)؛ ومن الأنظمة الكنيسية استقى اربع عشرة مرة.

وفي اواخر العصر الوسيط تحتل بعض المجموعات الأدبية الايطالية مكان الصدارة من التبادل في التراث القصصي ولابد لنا من ذكرها هنا بايجاز. ولا أود التعرض لمجموعة ديكاميرون لبوكاشيو، بالرغم من وجود عناصر شرقية بين المصادر الأدبية والشفوية السماعية التي استقى منها قصصه. وأود بادئ ذى بدء أن أذكر سترايارولا Straparola، الذى وضع في مجموعته «الليالي المبهجة» ما كان يتداوله الناس آنذاك من كنوز قصصية. ومن الجلى أن يوجد بينها شيء وفير من التراث القصصي العالمي؛ ولكن الشيء المفاجئ هو الدقة التي أعاد فيها سترايارولا سرد بعض الحكايات الخرافية الشرقية. وقد دفع هذا براكلمان Brakelmann إلى افتراض وجود ترجمة لاتينية أو ايطالية من مجموعة القصص السنسكريتية «پانتشاتانترا»

Pançatantra، ومن ألف ليلة وليلة وغير ذلك. ولم يقم باسيلى Basile كذلك بجمع مواد قصصه «پنتاميرونه» Pentamerone من القصص المتوارثة المحلية فى نابولى فحسب، بل ومن دون شك، من القصص التى كانت الألسن تتداولها فى الاماكن التى كان يعيش فيها أيضاً. والمعروف أنه مكث من ١٦٠٤ حتى ١٦٠٧ فى جزيرة كريت، حيث اتيحت له فرص كثيرة للتعرف إلى الحكايات الخرافية التركية. وما كان منه إلا أن أعاد صياغة هذه العناصر القصصية بكثير من الحرية والخيال الخصب، بحيث كان يربط فيما بينها حيناً ويحيلها إلى حكايات جديدة حيناً آخر. ويجوز لنا القول ان بعض حكاياته لا تتجاوز كونها حكايات خرافية تركية (والأمثلة على ذلك: المجلد ١، ١؛ المجلد ١، ٥؛ المجلد ١، ٦؛ المجلد ٢، ٣؛ المجلد ٢، ٨؛ المجلد ٣، ٤؛ المجلد ٤، ٩؛ المجلد ٥، ٤؛ المجلد ٥، ٨؛ المجلد ٥، ٩). وقد قلدت قصصه «پنتاميرونه» على يد ماسيليو ريپونه Masillio Reppone فى مجموعته «پوزيلكياتا» Posilecheata وكذلك كوتسى Gozzi فى مجموعته «Fiabe Dramatiche» وكان لها أثر ونفوذ كبيران، وخاصة كوتسى الذى يدين له شيلر وتيك وبرنتانو، الشعراء الألمان حوالى عام ١٨٠٠.

عناصر اسطورية شرقية منفردة

وفى حقل الأساطير الشعبية تتضح التأثيرات الشرقية بجلاء. ومن المعروف أن الاساطير لا تتقيد بمكان معين، بل كثيراً ما تنتقل إلى اماكن اخرى بحيث لا يتغير إلا اسماء الاماكن والأشخاص. فأسطورة القيصر الألمانية التى تروى أن الملك النائم فى الجبل سيعود للظهور مرة ثانية، يمكن أن نقدم الدليل على وجودها فى القرن الثامن فى البلاد العربية. فحسب رواية ابن خلكان (ترجمة دى سلان de Slane، المجلد ٢، ٥٧٧) كان الكيسانيون يعتقدون أن ابناً لعلى بن ابى طالب، محمداً بن الحنفية، لم يمت وانما مازال يعيش فى جبل الرضوة. إن هذه الاسطورة، التى يختلف تناقلها فى الأدب العربى، انتقلت من شمالى أفريقيا إلى صقلية، حيث أريد لها أن تطبق على فريدريش الثانى، الذى آعتُقد أنه ينام فى سبات عميق على جبل إتنا. وفيما بعد فقط أخذ مكان فريدريش الثانى فى الاسطورة الامبراطور الألمانى فريدريش الاول المشهور بـ «بارباروسا»، الذى جُعل نائماً فى جبال كيفهويزر Kyffhäuser.

ولابد أن يكون كل تلميذ ألمانى صغير قد سمع ولومرة واحدة نادرة «فريدريش الكبير وطاحونة سانسوسى» التى لا تنطبق على الحقيقة التاريخية. إذ أن الطحان مولر كريڤنتس، الذى لم يرث الطاحونة من أسلافه، والذى لم يقمها هناك إلا قبل بناء القصر بحين، أراد أن ينقل مكان الطاحونة بنفسه، إذ منع بناء القصر حركة الرياح عن مروحتها. إذن فالطحان هو المتضرر فى ملكه، وليس الامبراطور الشيخ، الذى أراد أن يبقيها فى مكانها القديم للزينة والتجميل. وقد تحقق من هذا ل. شنايدر L. Schneider فى بحثه «الطاحونة التاريخية بالقرب من سانسوسى» (الأبحاث الميركية، برلين ١٨٥٨، ص ١٦٥ — ١٨٣). ولكن نموذج هذه القصة الأصلى موجود فى الأدب العربى، حيث تروى بصيغ مختلفة. ونذكر كأمثلة على ذلك رواية ياقوت، المجلد الأول، ص ٤٢٦، والقزوينى، المجلد الثانى، ص ٣٠٤ (ترجمة ج. ياكوب G. Jakob فى مجلة الاسلام Islam، ١٨، ص ٢٠٠ — ٢٠٤) ونذكر كذلك رواية الشروانى، ترجمة أ. ريشر O. Rescher، ص ٣٥. وكما تقول الرواية فإن الملك الساسانى كسرى أنوشروان، عند بناء بلاط عرشه، أمر بشراء البيوت المحيطة بالمكان من أصحابها بأثمان وافرة. وكانت تعيش بجوار القصر امرأة عجوز كانت تملك مزرعة صغيرة. ورفضت المرأة بيع مزرعتها وقالت: «والله إنى لن أبيع جوار الملك بكل ما فى العالم من ثروة وغنى!» ثم أمر الملك ببناء قاعة العرش وبالإبقاء على المزرعة الصغيرة فى مكانها. أما الرواية كما أوردها الإشبيهى فى القرن الخامس عشر فقد جاءت على الشكل التالى: أرسل الامبراطور اليونانى رسولا إلى ملك الفرس أنوشروان، مالك قصر العرش الشهير. وعندما نظر الرسول إلى قاعة البلاط الملكى لاحظ التواء فى أحد الجوانب. فسأل المترجم عن ذلك، فأجابه بقوله: «هناك بيت تملكه امرأة عجوز، رفضت بيعه عند بناء قاعة العرش. ولكن الملك لم يرغب فى أجبارها على البيع وترك بيتها إلى جانب القاعة. هذا ما تراه وما سألت عنه.» وعندها قال اليونانى: «حقاً إن هذا الإلتواء لأجمل بكثير مما لوكان الجناح مستقيماً؛ وإن ما فعله ملك الزمان لامثيل له قبل زمانه، ولن يكون له مثيل بعد زمانه.»

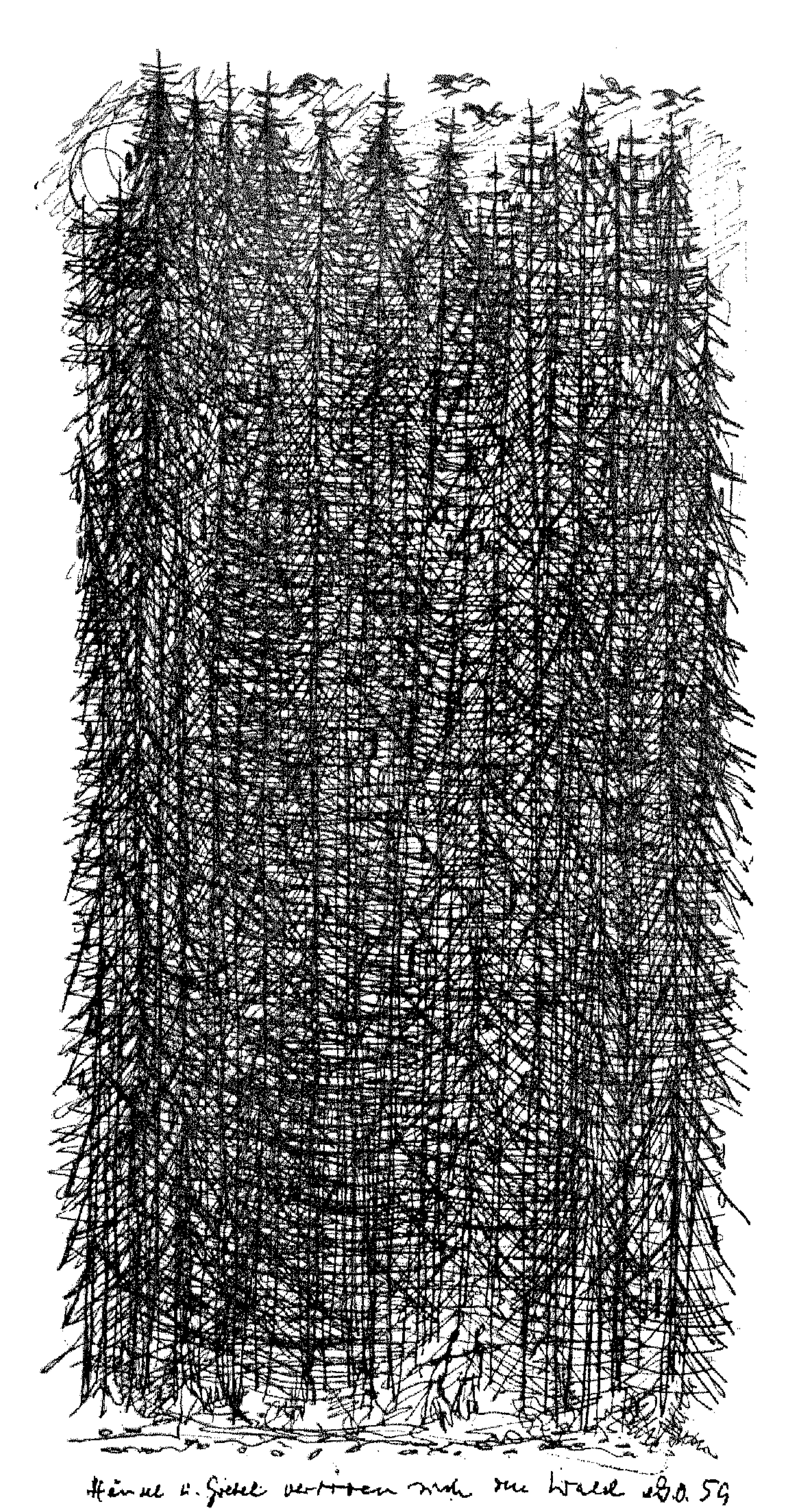
لقد كانت هذه الصيغة من الرواية الجسر الذى انتقلت عبره إلى أوروبا. واكثر من هذا أننا نعرف الوسيط الذى نقلها: إنه كريستوفوروس لِمان Ch. Lehmann (المتوفى عام ١٦٣٨) الذى قال فى كتابه «باقة مختارة من النوادر السياسية» Florilegium politicum auctum «كان

يوجد أمير فى فارس يدعى كسرى وأراد أن يبنى لنفسه قصراً كبيراً، وكان لابد لذلك من هدم بيوت كثيرين من رعاياه، فاشتراها مع حدائقها منهم بمال وفير. ولكن امرأة عجوزاً رفضت أن تبيع بيتها الذى أراد الأمير أن يشتريه فلم يستخدم العنف معها، إذ كانت قد ولدت وترعرعت فيه، وأرادت أن تموت فيه أيضاً. ولكن الأمير لم يكترث للبيت الصغير بل تابع بناء قصره بحيث اشتمل على البيت الصغير أيضاً. وكان البناء يثير الاعجاب والثناء. وفى ذات مرة قال سفراء أجانب إن البيت الصغير يشوه البناء الجميل بكامله. فأجاب الأمير بأنه يعتبر أن أجمل ما يزين قصره هو أن يشاهد من ذلك مدى حبه للحق والعدل وعدم استخدامه القوة والبطش ازاء رعاياه».

وعندما تعلمنا فى المدرسة قصة شيلر «السير إلى كور الحداد»، لم يقل لنا أحد أن عناصر القصة ذات اصول شرقية، كما أثبت كوسكان Cosquin ذلك. فقد ظهرت القصة فى الهند من القرن الثالث حتى التاسع عشر فى عدة صيغ مختلفة، وأقدم شكل لها ما يلى: ولد بودستاڤا (بوذا) ابناً لرجل فقير. وعندما تشرد تبناه رجل غنى ما لبث أن ولد له ابن بعد حين، ولكن صفات بودستاڤا ومزاياه الفاضلة كانت تبرزه وتغطى على الابن الحقيقى. ولكى يتخلص الرجل من ربيبه أرسله مع رسالة إلى حداده يأمره فيها بالقاء حامل الرسالة فى فرن التعدين. وأثناء الطريق يقابل بودستاڤا أخاه بالتربية ويرجوه أن يحمل الرسالة إلى الحداد. وهكذا لقى الطفل الصغير حتفه فى الفرن. ولعل كوسكان يرى أن موضوع النصائح الحسنة كان مرتبطاً فى الأصل بهذه القصة، بحيث أن الصبى اتبع هذه النصائح بالفعل، بينما نقرأ فى قصة شيلر أن فريدولين بعد نصيحة سيدته ظل يستمع إلى القداس. وفى أشكال القصة الهندية المتأخرة تظهر الشخصية بالموضوعات الرئيسية التالية: الصبى لقيط، ويكتشف ذات يوم زوجة سيده وهى تزنى، فتسىء إليه وتشهر به، فيرسل ليلقى حتفه، ولكن الزانيين، بدلا منه، يلقيان جزاء اثمهما. وهناك عدة اشكال للقصة فى الأدب العربى، نجدها لدى آميدروز Amedroz وباسيه وشوڤان.

وكمثل عليها نورد قصة أحمد اليتيم: يتبنى محسن غنى الطفل اليتيم أحمد. ويكلف الرجل ربيبه الأمين أحمد بالعناية بابنه الحقيقى ابى جيش، الذى يولى اخاه بالتربية كذلك ثقة تامة. وفى ذات يوم يفاجئ أحمد مغنية سيده المحظية وهى تعانق أحد العبيد. ثم حاولت المغنية اغراء أحمد واظهار غرامها له ليسكت عما رآه، ولكنه رفض الانصياع لإغراءاتها. واذ خشيت المغنية أن يشى بها، اتهمته أمام سيده بمراودتها عن نفسها. فكلف السيد أحد مستخدميه بأن يقطع رأس الشخص الذى سيأتيه بوعاء ليملأه بالمسك. وعندما توقف أحمد اثناء طريقه لأمر ما، قام العبد — عشيق المغنية — بتنفيذ المهمة؛ وهكذا قطع رأسه. ثم سأل ابو جيش أحمد الذى نجا رأسه من القطع عن ذنب القتيل، وعندها أطلعه أحمد على الحقيقة. وعندها أمر بقتل المغنية أيضاً. ويوجد فى الأدب اليهودى عدد من القصص المماثلة لهذه كشف گاستر Gaster وليڤى Lévi النقاب عنها. وقد اجريت على الاشكال الأصلية الشرقية بعض التغييرات فى اوروبا. فقد نقلت القصة هنا لتدور حول الامبراطورة القديسة كونيگونده Kunigunde، التى اتهمها وصيف بالزنى مع أحد فتية النبلاء. وبينما كان الفتى النبيل لا يزال يستمع إلى القداس، ألقى بالوصيف الذى نفذ صبره فى الفرن. وحصلت القصة على قالب فنى فى «اسطورة قديسة البرتغال اليزابت» (١٢٧١ — ١٣٣٦). وقد استقى شيلر مادة قصيدته من القصة الثالثة عشرة من كتاب «المعاصرات أو مغامرات أجمل نساء العصر الحاضر» لرستيف دى لا بريتون Restif de la Bretone.

ومن القصص المعروفة ايضاً قصة الكفالة لشيلر، وكما أثبت گراگر Gragger فقد استقى شيلر عناصر قصته من كتاب «اوراق النخيل» Palmblätter لمؤلفيه هردر Herder وليبسكند Liebeskind وكرماخر Krummacher (المجلد الأول، ٧٧)، والذى صدر فى ڤينا، بحيث لم يستق مادته من مجموعة اساطير هيگينوس Hyginus. وتدور عناصر القصة حول موضوعين: الصداقة والكفالة. ويعزى موضوع الصداقة إلى مجموعة «الانظمة الكنسية» لپيتروس ألفونسو، الذى استعاره فى الغالب من مصادر عربية، رغم عدم توفر الدليل على الحلقة العربية الوسطى فى السلسلة حتى الآن. وخلافاً لذلك فان موضوع الكفالة يمكن التدليل على اصوله العربية بأشكال مختلفة. فقد كان الملك النعمان قد قرر يوم سعد ويوم نحس. وكان يكافأ كل من قابله فى يوم السعد بالنعم الكثيرة، أما من جاءه يوم النحس فكان يؤمر بقتله. وفى ذات يوم وقع طائى ضحية هذا القانون. وقبل قتله رجا الملك أن يعطيه مهلة قصيرة لكى يجد وصياً على أطفاله، فأعطى هذه المهلة بعد أن قدم رجل لا يعرفه من قبل اسمه شريك كفالته بشأنه. وفى اللحظة التى كاد شريك أن يقتل فيها



جرهارد أوبرليندر
Gerhard Oberländer
(ولد فى ١٩٠٧):
هنزل وجريتل تائهين فى الغابة.

الطبعة الخامسة لمتحف كلينجسبور
بأوفنباخ ١٩٦٣
5. Druck des Klingspor-Museums,
Offenbach 1963

جاء الطائي يعدو لاهثاً ليصل قبل فوات الأوان. وتأثر الملك كثيرا لهذا الوفاء الشديد وأمر بالغاء يوم النحس.
وفى قصة أولاند Uhland «سعادة إيدنهال» Glück von Edenhall تتوقف سعادة العائلة على المحافظة على سلامة وعاء (وقد نشرت صورة لهذه الكأس فى العدد التاسع لفكر وفن). وهذه الفكرة هندية فى الأصل وتعود إلى مجموعة أساطير ياتاكا Jataka: إذ يحصل صبي من والده على قدر يلزمه بالمحافظة عليه ووقايته. وطالما بقى هذا القدر سالماً حصل الابن على المال والسعادة. ولكن الصبي نسى الأمر وقذف فى نشوته بالقدر فى الهواء، فسقط القدر وتحطم. ومنذ تلك اللحظة اختفت السعادة، واصبح الصبي فقيراً واستحال إلى بائس متسول.

وبالنسبة لقصة أولاند «ضربة السوابى» Schwaben-streich، والتى تروى كذلك عن كونراد الثالث اثناء الحملة الصليبية، قدم ج. ياكوب ما يقابلها فى العربية. إذ ضرب السلطان مسعود ابن محمود ابن سبكتجين الشهير، ضرب الفارس الذى كان يطارده فنصفه شطرين.

وفى أيام المدرسة تعلمنا عن ظهر قلب قصيدة پلاتن Platen: «همس أغانى حزينة على شاطىء نهر بوزنتو ليلة من الليالى» Nächtlich am Busento lispeln، وهى قصة دفن الملك الغوطى ألاريش Alarich بالقرب من مدينة كوزينتسا Cosenza وذلك بتحويل نهر بوزنتو. وهناك أمثلة مشابهة فى الأدب العربى. ولا نعرف إذا كانت هناك تأثيرات مباشرة أو مجرد وجهات نظر عامة يمكن أن تنشأ فى كل مكان بعضها مستقل عن البعض الآخر. ففى ياقوت، المجلد الثانى، ص ٤٣٨، يذكر أنه عندما يموت ملك بين الخزار يوجه الماء إلى القبر بحيث يموت الحفارون لكيلا يعرف أحد مكان الدفن على وجه التعيين. وفى ابن خلكان (فى النسخة المترجمة، الجزء الرابع، ص ٢٥٠) نقرأ أن اميراً يدفن فى مجرى مائى لكى يظل القبر مجهولا. وهناك مثل مشابه آخر ورد فى المسعودى، ٥، ص ٤٧٠، وجاء فيه أن زيداً بن على دفن فى ساقية بعد مصرعه فى قتاله مع الأمويين من أجل الخلافة. وكما جاء فى ياقوت، ٣، ص ١٨٩، فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بتحويل نهر فوق قبر النبي دانيال فى سوسه ليظل مجهولا بين الناس، وذلك منعاً لعبادة القديسين المحظورة فى الاسلام. (ب. شفارتز، ايران فى العصر الوسيط، ص ٣٦١ P. Schwartz, Iran im Mittelalter).
ويحتل كتاب الشاهنامه «كتاب الملوك» للفردوسى، الذى يحتوى على كنز وافر من الحكايات الاسطورية الايرانية، مكاناً رفيعاً فى الأدب الفارسى. فيه يبدأ الأدب الفارسى الحديث فى الواقع. وكثيراً ما أشير إلى أن الاساطير الايرانية التى يملك الاوروبيون نماذج مماثلة لها، إنما بلغت اوروبا بطريق التداول الشفوى السماعى المتوارث. فمثلا هناك شبه كبير من حيث العناصر القصصية بين اسطورة سهراب ورستم واغنية هلدبراند الألمانية، التى حاول پوتر Potter تفسيرها بطرق اثنولوجية أصبحت شيئا قديماً اليوم. وكما أثبت تيودور نولدكه T. Nöldeke فان بعض عناصر اغانى دائرة بطولة ڤلاديمير Wladimirs Heldenkreis مستقاه من الشرقيين. وبالتفصيل فقد تتبع ڤولنر Wollner آثار الاساطير البطولية الايرانية ومدى تأثيرها على الشعوب السلافية الجنوبية، بينما أظهر ا. كريستنسن A. Christensen المواضيع والعناصر المشتركة فى الأساطير الفارسية والشمالية. وفى هذا المجال يمكن الاشارة كذلك إلى دائرة اساطير «العفريت المكبل» Der gefesselte Unhold التى قام بدراستها كل من م. أنهولم M. Anholm وف. فون در لاين من حيث العناصر القصصية. ويتناول الأول الاسطورة القفقاسية ويفترض احتمال وجود علاقة بينها وبين تفاصيل وصف راگناروك Ragnarök فى الأساطير الشمالية. وقد عالج ك. كرون K. Krohn هذه المسائل مرة اخرى وتوصل استناداً إلى الامثلة والنماذج المشابهة الاسيوية إلى النتيجة التالية: «إننا بذلك نستنتج أن عدداً من الأساطير الشمالية قد تطور من القصص الخيالية المسيحية وأن النماذج التى كانت قائمة قبل المسيحية لهذه القصص يجب ألا يبحث عنها فى اوروبا، بل فى آسيا.»
لقد اخترق الغرب تراث شرقى كبير عبر بيزنطة. وتشبه الرواية اليونانية التى ألفها كالليماخوس Kallimachos وكريسورو Chrysorrhoe الحكاية الشرقية شبهاً تاماً. وقد دلل دينهارت Dähnhart على العلاقات البيزنطية بالشرق بمثل معين. وفى هذا المجال يجب الا يستهان بنصيب السوريين من الوساطة. فإلى جانب الوساطة العربية يلعب السوريون، ولا سيما النساطرة، الدور الرئيسى. ويظهر رسّل Ryssel الذى بحث فى اسطورة سيبريانوس Cyprianus مدى النقل والترجمة من العناصر الأدبية السورية.

أدب الأساطير المتوارثة

كان أدب الأساطير والقصص التهذيبية الدينية وافراً جداً فى الكنيسة السريانية، وخاصة السريانية الشرقية، أى

النسطورية وذلك منذ القرن الخامس الميلادى. وكان للشرق المسيحى نصيب كبير فى تكوين الاساطير المسيحية والحكايات البطولية الدينية ونقلها. وبطرق مختلفة، منها وساطة الفرسان الفرنكيين، أخذ الغرب يتعرف على هذا الكنز من الأساطير التى أخذ فى تحويلها إلى قصص دينية.

وفى سير قديسى العصر الوسيط وكراماتهم لا نستدل على أوجه تشابه مذهلة بينها وبين القصص الشرقية فحسب، بل ويثبت النقل المباشر لعناصر هذه القصص كذلك، وتطبيقها على شخصيات القديسين الأوروبيين. وقد جمع تولدو Toldo الصيغ الشرقية للأساطير والنوادر القديمة «كالتضحية ذات الجزاء الحسن» Die wohlbelohnte Aufopferung و«لعبة القديسة تيودورا» Das Spiel von der heiligen Theodora و«تقسيم عادل» Eine gerechte Teilung وغيرها. وتتضح منذ البداية معالم كالولادة المعجزة، والحكمة الآلهية، وأعمال الآلهة، وتشير كلها إلى الشرق، وخاصة إلى الهند.

كما أن الهداية الدينية بوساطة حيوان ما تشير إلى الأصل البوذى. وهكذا فلم يكن مفاجئاً أن يصبح من الممكن إعادة اسطورة هوبيرتوس إلى الهند، وكانت قد انتقلت منها إلى المسيحية الأوروبية بوساطة النساطرة. وتوجد هذه الاسطورة فى مجموعة أساطير وحكايات ياتاكا (ترجمة دوتوا Dutoit، ١، ص ٦٤ — ٧٥)، حيث يروى غزال نيكرودا نفس القصة. وقد وجد ج. ياكوب الحلقات الوسطى الاسلامية لهذه القصة لدى القزوينى، تصدير ڤوستنفلد، ٢، ص ٢٢٢، وكذلك فريد الدين العطار، كتاب تذكرة الأولياء، تصدير نيكولسون، ١، ص ٨٦. وفى العصر الوسيط المسيحى تظهر الاسطورة باسم «أويستاكيوس الهادئ» Eustachius Placidus-Legende، والتى تتألف من القصتين: الهداية والاستشهاد، وهى مذكورة فى كتاب «أعمال الرومان» Gesta Romanorum (Aarne-Thompson، ص ٩٣٨).

وبالطريقة نفسها انتقلت قصة «اكتشاف الصليب» واسطورة «عيد رأس السنة» واسطورة كريستوفوروس من الشرق إلى الغرب، كما أثبتت ذلك دراسات تفصيلية.

أما اسطورة النيام السبعة (اصحاب الكهف) فقد انتقلت من السريانية إلى اللغات الاخرى. ونجد عند يعقوب الساروجى Jacob von Sarug الشكل الأصلى لها. وأغلب الظن أنها تعود إلى التراث الاسطورى اليهودى الذى يظهر فى الأساطير المتوارثة المسيحية كما يدخل فى نسيج الثوب الاسلامى المتطور.

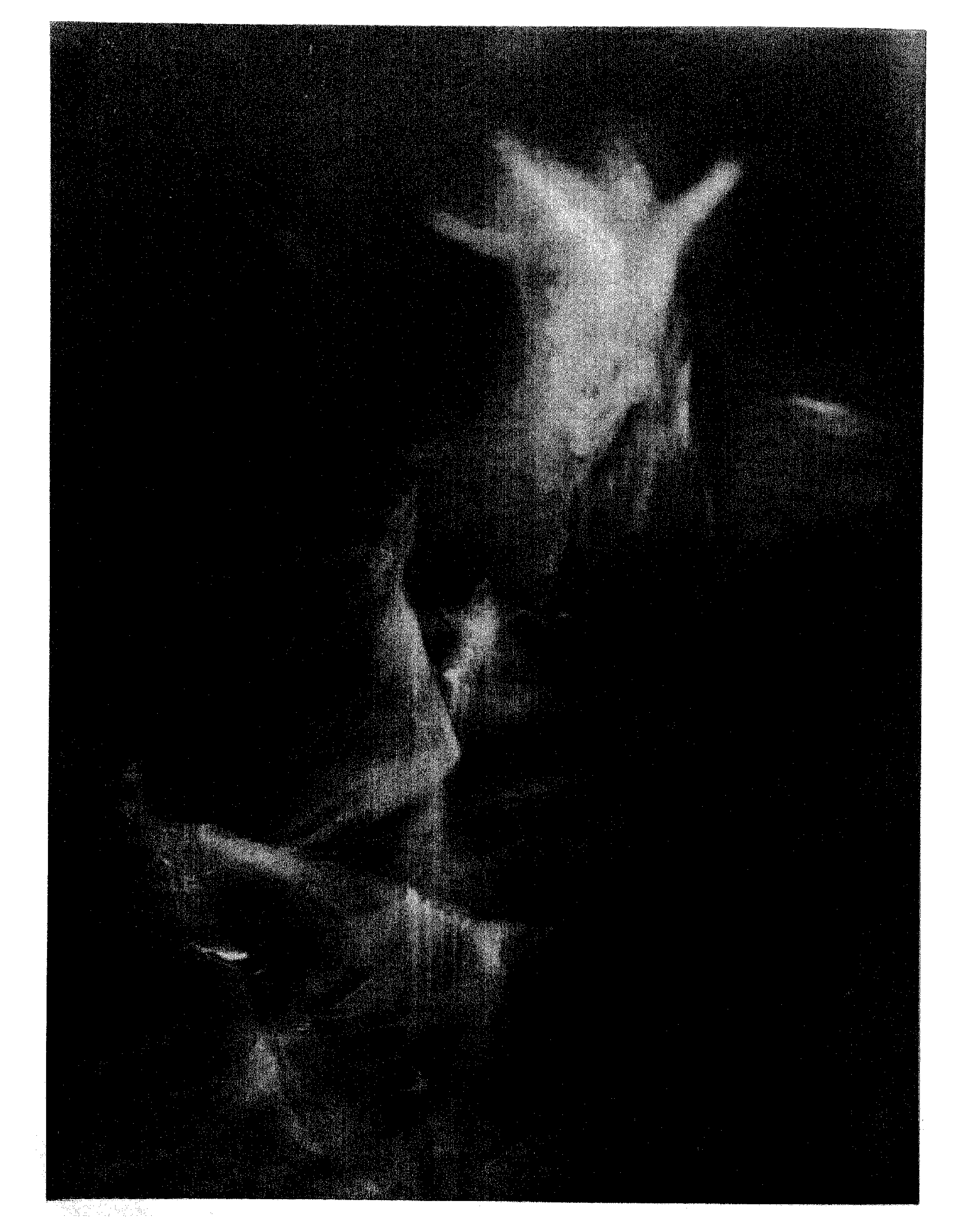
وبالنسبة لاسطورة «اوغسطينوس والصبى على شاطىء البحر» „Legende von Augustinus und dem Knäblein am Meer“ الواسعة الانتشار والواردة كذلك فى «قرن الصبى السحرى» Des Knaben Wunderhorn فقد اثبت ى. بولته (مجلة جمعية الدراسات الشعبية ١٦، ص ٩٠ — ٩٥) أن الشكل الاصلى للاسطورة جاء فى العصر الصليبى إلى اوروبا وأجرى الرواة المسيحيون تحويراً عليه.

الشعر الغرامى الجرمانى الوسيطى

وهناك مسألة ترتبط بالعلاقات بين الشرق والغرب وهى مسألة أصل الشعر الغرامى الجرمانى الوسيطى الذى يدعى بالألمانية Minnesang ومسألة تطوره، وحتى الآن لم يتوصل إلى حل نهائى لهذه المسائل المعقدة. ويرفض بعض ممثلى اللغات الرومانية (مثل د. شيلودكو D. Scheludko) وجود أى تأثير خارجى على الاطلاق، بينما يعتقد بعض المستشرقين (أمثال ب. أ. ر. نيكل B. A. R. Nykl) بمقدرتهم على تتبع معالم التأثيرات العربية حتى ادق التفاصيل. ودون التعمق فى الأسباب والعلاقات الداخلية، يعزى ك. بورداخ K. Burdach مع ذلك الخصائص الخارجية للشعر الغرامى الجرمانى القديم إلى تأثيرات أجنبية — أى عربية — حاسمة. ولكن يمكن القول بكل تأكيد أن حقيقة الأمر عبارة عن ظاهرتين متشابهتين متوازيتين، يظهر بينهما تشابه مثير للانتباه، ولكن من حيث الشكل وليس من حيث المحتوى والمضمون: فبينما نجد فى الشعر العربى أن موضوع الغزل يظل مجهولا وأنه يؤخذ من وسط عامة الشعب، نرى أن الشعر الغزلى البروڤنسى يخاطب سيدات البلاط. ولو راعينا الخصائص الثقافية المتشابهة فى مركزى نشوء هذا الشعر، أى فى الاندلس والبروڤانس، فاننا نعترف ونسلم دون جدل بامكان حدوث اتصال وتماس متبادلين، دون أن نرى فى ذلك وجود العلاقة الوثيقة بين السبب والنتيجة. ولا يجوز فى هذا المجال أن ننسى أن تركيب الاغانى الغرامية الجرمانية، المتطورة من شعر التروبادور، يتألف من عناصر محلية كالتقاليد الغرامية القديمة والشعر اللاتينى الوسيط وشعر وموسيقى مارى دى فرانس، ويضاف إلى ذلك، بصفة ثانوية فقط، التراث العربى الاسبانى. ولكى نتوصل إلى الانصاف فى هذه المسائل المعقدة فى كليتها الشاملة، لا بد من ايجاد مكانها من رقعة حوض البحر الابيض الواسعة فى العصر



مشهد ان من باليه : «عصفور النار»
الذى عرض بدار الأوبرا الباڤارية Ballett der Bayrischen Staatsoper
تصوير : Robert Hetz



الوسيطى. وإن ما يجب أن يساهم به من جانب الأبحاث اللغوية العربية لإيضاح هذه المسائل ما يلى: ١ — جمع النصوص العربية الأساسية المتعلقة بهذه المسألة ونشرها، وخاصة نشر أشعار ابن قزمان، وهو مطلب لازم ملح؛ ٢ — نشر القصائد العربية الخاصة بالأغانى والأزجال الشعبية مثل كتاب صفى الدين الحلى «العاطل الحالى والمرخص الغالى»؛ ٣ — القيام بتحليل نصوص الأغانى الغرامية الجرمانية الوسيطية من وجهة نظر علم البيان العربى، أى من حيث الاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه، وذلك أولا لإظهار مدى علاقتها بالأسلوب العربى الكلاسيكى نفسه، لفصله عن العناصر الأجنبية، أى البروڤنسية، وثانياً للتمكن بعد ذلك فقط من مقارنتها بالأشعار الرومانية المعاصرة إطلاقاً. وبهذه الطريقة فقط يمكن أن نميز ما بين التراث العربى الخالص، والعناصر الاسبانية المسيحية.

الشعر البطولى البلاطى

وبظهور الشعر الغرامى الوسيطى فى ألمانيا نشأت فى الشمال الغربى أولى الروايات والقصائد الملحمية الحماسية البلاطية، التى ألفت حسب نماذج فرنسية موجودة. ولكن بعض عناصرها تعزى إلى اصل شرقى. وتحتل المكان الأول بينها قصة العاشقين «الزهرة والزهرة البيضاء» Flor und Blancheflor. وتعود هذه القصة الجميلة إلى أصل بيزنطى، وقد انتقلت عبر ايطاليا إلى الغرب، حيث حورت بقالب منظوم وغير منظوم. وعلى أى حال فإن المادة القصصية ليست من أصل بيزنطى بل انها حكاية شرقية تظهر عدة مرات فى الأدب العربى، وكذلك فى المثنوى التركى المسمى «ورقة وكلشاه» ثم تنتهى فى آخر صيغة لها فى كتاب شعبى تركى. ويمكن التدليل كذلك على وجود عناصر وموضوعات شرقية فى «زالمان ومورولوف» Salman und Morolof، وفى أورندل Orendel.

وتعتبر مادة اسطورة تريستان Tristanfabel كذلك من أصل شرقى. فبعد أن أشار إيتيه Ethé إلى صلاتها بالشعر البطولى الحماسى الفارسى، وبعد أن تحقق پيتسى من الأصل الفارسى، درس ر. تزنكر R. Zenker اسطورة تريستان من حيث اعتمادها على القصيدة الملحمية الفارسية ويس ورامين، بحيث لا حاجة بى إلى الدخول فى تفاصيل ذلك. ولا أريد أن أضيف شيئاً سوى حكم ى. سترتزيكوڤسكى J. Strzygowski على هذه الدراسة: «إن أوجه التطابق تستبعد عامل الصدفة، ولا يمكن تفسيرها إلا بافتراض وجود اعتماد اسطورة تريستان الأصلية على الرواية الفارسية التى تعود إلى القرن الحادى عشر، أو على مصدرها الأبعد قدماً.» وقد برهن سنكر Singer على وجود الشكل الأصلى للجزء الثانى من اسطورة تريستان، ونعنى بذلك قصة ايزولده ذات اليد البيضاء، فى الكتاب العربى «كتاب الأغانى».

وفى قصيدة «الدوق ايرنست» Herzog Ernst (القرن الحادى عشر) ثبت الأصل العربى للمادة الروائية، حيث تتضح علاقتها بألف ليلة وليلة، بما لا يقبل الشك. ويعتبر ف. شوڤان أن كل ما يمر بالدوق ايرنست من حوادث فى البلاد الغربية مستعار من حكاية «امير خوارزم»، بينما يجد ل. يوردان L. Jordan صلات وثيقة برحلة السندباد السادسة، وكذلك بأجزاء من رحلته الثانية.

وكذلك فإن مصدر «هرڤيس فون ميتس» Hervis von Metz عربى؛ وإن يوردان لفى غاية الاقتناع بأنه «لا شك مطلقاً فى وجود علاقة بحكاية نور الدين من ألف ليلة وليلة.» وبالنسبة لقصة «هاينريش المسكين» Der arme Heinrich، فإن هناك ايضا مصادر شرقية؛ ولكنى لا استطيع الدخول فى التفاصيل هنا، بل اكتفى بالإشارة إلى بحث ب. شميتز B. Schmitz وتحتوى الروايات التى تقوم على المغامرات، إلى جانب موضوعات من الأساطير البطولية، كذلك وبكل تأكيد عناصر قصصية مستوردة من بلاد أجنبية، كما نعثر عليها دوماً فى أشعار الرواة. وفى أقدم رواية مغامرات، ونعنى بها رواية «رودليب» Ruodlieb، عثر على عناصر قصصية تعود بالتوارث السماعى إلى أصل شرقى. وبالنسبة لرودليب فقد ثبت «أن حكاية التعاليم الذهبية توجد فى كليلة ودمنة وكذلك فى اسطورة سكندوس Sekundus-sage، وأن هذه العناصر الشرقية فى الأصل لابد وأنها كانت معروفة فى القرن الحادى عشر فى ألمانيا».

وفى بحث قصة بارسيفال لفولفرام Wolframs Parsival نبلغ موضوعاً معقداً لم يتضح بالتفصيل بعد. ولا ينكر أحد وجود عدة آثار شرقية فى بارسيفال، إذ يحتوى نص ڤولفرام عدة معلومات جغرافية وموضوعية وتفصيلية تشير إلى أصل شرقى. ويسرد ڤولفرام نفسه أن صاحبه كيوت — كيوت Giut—Kyot (اسم أرمنى؟) استقى القصة من كتاب ألفه «الكفار» — ويقصد بذلك العرب — وأن كيوت نقل القصة للسادة الفرنسيين فى فلسطين إلى اللهجة البروڤنسية بمساعدة رجل فلكى. وأحضر الكونت فيليب فون فلاندر هذه الترجمة عام ١١٧٨ معه إلى اوروبا.

ونسبت الكتب الثمانية الأولى من بارسيفال إلى القصيدة الملحمية الايرانية الكبيرة بارزونامه. ويفسر زوتشيك Suhtscheck المعلومات الموضوعية والجغرافية والتاريخية بموجب الأصل الفارسى. وحسب روايته فقد وجد كيوت النص فى Dolet = daulat دولة، أى خانه خاص — Königsburg، فى Saphan = Spān = Spane = Ispahan، أى اصفهان؛ وفى كلينكور Glinchor وقلعته المسحورة فى «كابس فى تيرا دى لابور» Kaps in terra de Labour يرى زوتشيك خنجيل Chindschil المعروفة فى الاسطورة الايرانية فى كابسيا فى مملكة لاهور؛ وبعد تفصيلات أخرى يتوصل إلى الاستنتاج المفاجئ التالى: وهو أن ٦,٥٪ من القصة من إنتاج ڤولفرام الخاص، وأن ٦١٪ يشكل مادة اسطورية بطولية استقيت فى عصر ما بعد الفردوسى، وأن ٣٢,٤٪ استقى من أصل اسطورى بارسى. ويتوصل باحثون آخرون إلى نتائج اخرى، ويضيق بنا المجال للدخول فى تفاصيل بحوثهم هنا. وعلى أى حال فإن جميع هذه المسائل الصعبة لم توضح بعد بشكل كامل لا غبار عليه. وقد حاول مؤخراً ف. ر. شرودر Fr. R. Schröder تقديم الدليل على أن الروايات المتوارثة الشرقية تسربت بواسطة الكاتاريين Katharer، والألبينگنسيين Albingenser وهم اتباع مذهبين مسيحيين تأثرا كثيراً بالشرق.

وقد زعم أن طريقة الجناس الوسيطية قد تأثرت بالقافية العربية، بحيث أشير على أثر ذلك إلى أن الكلمة الايطالية Stanza وتعنى «الغرفة أو البيت» هى نفس كلمة Stanze التى دخلت الألمانية وهى الترجمة الحرفية لكلمة «بيت» العربية «بيت بمعنى منزل أو بيت الشعر». وبناء على ذلك توجد فى الشعر بعض أوجه الاتفاق والافكار المشتركة على الأقل. وقد بحث پيتسى Pizzi اوجه الشبه بين الشعر الفارسى والشعر الايطالى الوسيطى، كما تحدث زينگر Singer عن الشعر العربى والأوروبى فى العصر الوسيط. ويظهر الشكل الشعرى العربى — الفارسى الذى يدعى بالمناظرة، وهو شعر المنازلة، شبهاً غريباً بالشكل الشعرى البروڤنسى — الرومانى الذى يدعى Tenzone، بحيث لا يمكن أن نعتبر ذلك مجرد تطابق حدث بمحض الصدفة وحدها. وفى الدراسة التى قام بها ف. زتگاست Frz. Setegast لمصادر الشعر الحماسى البطولى الگالو رومانى (لايبزغ ١٩٠٤) أثبت وجود علاقة بين رواية Generides الانكليزية الوسيطية وبين اسطورة شاكونتالا وكتاب الشاهنامه للفردوسى. ومما لا شك فيه أن الشكل الأدبى لقصة القصص، كما أصبحت معروفة بفضل ديكاميرون فى اوروبا، يعود الى أصل شرقى.

دانتي وشكسبير

وفى هذا المجال أود أن اشير بايجاز إلى عملين من مكتبة الأدب العالمى، وهما، وإن لم ينتميا إلى الأدب الألمانى، غير أنهما أثرا فيه تأثيراً مخصباً قوياً، واعنى بهما: الكوميديا الالهية لدانتى، ومسرحيات شكسبير. وبالنسبة إلى بعض عناصر الموضوعات مسرحيات شيكسبير فقد اشير سابقاً وفى أبحاث مختلفة إلى النماذج الأصلية من كنوز الأساطير العالمية، وللآداب الشرقية فيها نصيب كبير. وبسخاء كبير قام ى. شيك J. Schick فى كتابه Corpus Hamleticum بجمع كل العناصر فى مسرحيات شكسبير التى لها علاقة مباشرة ثابتة البرهان بالأدب العالمى، بحيث قدم فى مجلداته هذه مادة وفيرة لأبحاث الأساطير المقارنة والأدب المقارن.

ويصعب الجواب على مسألة التأثر عند دانتى. فبعد أن كان إ. بلوشيه E. Blochet قد أشار عام ١٩٠١ إلى مصادر شرقية استقت منها الكوميديا الالهية، تباينت الآراء حول ذلك ما بين مؤيد ومعارض، إلى أن عالج آسين پالاسيوس Asin Palacios جميع هذه المسائل فى إطار واسع فى كتابه الكبير: La escatologia musulmana en la Divina Comedia بحيث تيسرت لممثلى مختلف العلوم اتجاهات وافكار جديدة. واستناداً إلى عدد كبير من المراجع والشواهد العربية لا يظهر آسين بالاسيوس أوجه التوافق حتى أدق التفاصيل بين التصورات الإسلامية للعالم الآخر والكوميديا الالهية فحسب، بل وكذلك أوجه التطابق فى المعالم الشكلية الرئيسية للتركيب الأدبى. فقد كانت الأفكار الإسلامية حول الصعود إلى السماء أو الرحلة إلى الجحيم، وتصور الجحيم فى دوائر متطابقة فى المركز وغير ذلك من تصورات مستقاة من نماذج أصلية يهودية ومسيحية، وكذلك بابلية وفارسية قديمة إلى حد ما، كانت جميعها معروفة لدى العصر الوسيط المسيحى أيضاً. ويعالج آسين بالاسيوس هذه التأثيرات بالتفصيل. ورغم الاعتراف بأوجه التوافق الجلية بين فلسفة الحشر والنشر (الايسكاتولوگيا) الاسلامية والكوميديا الالهية، إلا أنه ظهرت اعتراضات وشكوك جدية ووجيهة. فقد اشير إلى أن هذه التصورات الايسكاتولوگية يمكن أن تكون قد انتقلت إلى العصر الوسيط الغربى بصورة مباشرة كذلك من دوائر مسيحية، وخاصة مانوية. وحسب رأيى،

فانى مازلت أعتبر كتاب ف. بوسيه W. Bousset حول رحلة النفس إلى السماء من المؤلفات الأساسية لحل هذه المسائل؛ فهو يرى فى الدين الايرانى الموطن الأصلى للتصورات الزاهية الألوان، الزاخرة بالنشوة، التى استمرت عبر الديانة المترائية Mithraskult لتعيش فى العالم المسيحى والإسلامى. (وقد بحث العالم الايطالى انريكو تشرولى Enrico Cerulli عن مسألة التاثير الاسلامى فى شعر دانتى فى كتابه العميق المفيد Il Libro della Scala الذى عالج فيه «كتاب المعراج» العربى وتراجمه الى مختلف اللغات الاوروبية اثناء القرون الوسطى).

ادب الفكاهة والنوادر

وبالنسبة لأدب الفكاهة والنوادر الوسيطى قدم ى. بولته دراسات مثمرة حول أصل العناصر والمواد الأدبية. وفى نشره لكتب مونتانوس Montanus الفكاهية (١٥٥٧ — ١٥٦٦) استطاع أن يرجع بعض المواد إلى اصول شرقية. وتشتمل كتب نوادر فكاهية اخرى من القرن السادس عشر، ككتاب پاولى «مزاح وجد» Schimpf und Ernst (١٥٢٢)، وكتاب فراى Frey «مجتمع الحدائق» Gartengesellschaft (١٥٥٦)، وكتاب كيرشهوف «Wendunmuth» (١٥٦٣) وغيرها، قلنا إنها تشتمل على كثير من التراث الشرقى المتداول الذى لم يستقه المؤلفون من مصادر شرقية بصورة مباشرة، وانما استعاروه من التقاليد القصصية العامة المتوارثة. وقد تابع ڤسلسكى Wesselski نوادر الشخصية الفكاهية المعروفة فى التركية باسم نصر الدين، وفى العربية باسم جحا، حتى آخر صيغها الأوروبية.

لقد استقى هانز زاكس من الأدب الروائى والفكاهى الوسيطى، ولذا تقابلنا استعارات من الأدب الشرقى، مما أثبتناه كثيراً. وفى قصة هانز زاكس «الراهب والديك المقطع» Mönch mit dem Kapaun (التى نشأت عام ١٥٥٨) يتم قطع أوزة وتوزيعها بمكر ودهاء. وتشتهر هذه النادرة فى بلاد الشرق الإسلامى فى قصة اللص والقاضى. إذ يقوم اللص بتوزيع الاوزة على الشكل التالى: الرأس للقاضى، والرقبة لزوجه، والجناحان للطفلين، والقدمان للخدم، ثم يتناول الجسم لنفسه. وتنطبق القصة — حتى بتعليلاتها — تمام الانطباق على قصة هانز زاكس. (ونجد هذه النادرة، فى شكل اظرف، فى كتاب الحيوان للجاحظ، وقد صدرت ترجمتان جديدتان لها باللغة الألمانية فى يومنا هذا).

ومع ذلك فلا يمكن أن تكون هذه النادرة من أصل إسلامى، حيث أن المرأة لا يجوز، حسب التقاليد الاسلامية، أن تجلس بحضور رجل غريب، فكيف بها وهى تتناول الطعام فى محضره؟ والحقيقة أن أصل القصة يهودى، نجده فى كتاب «مدراش إيشا راباتى» Midrasch Echa rabbathi. ومن المصدر اليهودى كان يجرى سيل التوارث الاسلامى والأوروبى. وفى قصة «الذهب فى عصا سيديا» Das Gold im Stabe des Cydias نعرف أوجه التشابه فى الأدب التلمودى والمدراشى. أما تمثيلية ليلة الصيام «Der plint Messner» فقد ظهر أنها اسطورة هندية من كتاب البانتشاتانترا Pança-tantra.

وبعد أن بلغنا مع هانز زاكس العصر الحديث، نقترب من نهاية عرضنا الموجز الكثير الثغرات بسبب ضيق المجال والذى تناولنا فيه التأثيرات الشرقية على الادب الألمانى اثناء العصر الوسيط. ومن الطبيعى أن تلك التأثيرات كانت فى الغالب خارجية لا تتعدى العناصر القصصية، ولم تغير شيئاً من الفكر الألمانى أو من وجه الأدب الألمانى بحال من الاحوال. وكان التراث القصصى يستقبل كايحاء جديد، ثم يجرى العمل عليه، ويظهر أخيراً فى ثوب ألمانى. ومهما اشتد الجدال عند ظهور أمثلة متشابهة متوازية حول ما إذا لم يكن بالوسع تفسيرها كوليدة للظروف والاوضاع الإنسانية العامة، الأساسية والمتكررة دوماً، وأنها نمت وحدها وبأصالة تامة؛ إلا أن العدد الكبير من أوجه التطابق الشكلى يشهد على تدفق العناصر والموضوعات القصصية الشرقية بقوة على الغرب واندماجها فى الانتاج الأدبى الغربى. ولا مفر من ضرورة اعتبار الحضارة والأدب الغربيين فى العصر الوسيط، وبصورة أقوى مما جرى حتى الآن، على أساس الرقعة الشرقية المتوسطية الواسعة، ومن ضرورة البحث عن المصدر المشترك فى التراث الهيلينى فى أشكاله المحورة الجديدة: المسيحية منها والإسلامية. وقد أعرب الشاعر الالمانى جوته بشئ من المبالغة، ولكن باسلوب عبقرى، عن ذلك بأبياته:

Herrlich ist der Orient
Übers Mittelmeer gedrungen.
Nur wer Hafis kennt und liebt
Weiß, was Calderón gesungen.

يــا لبهــاء الشــرق
يحف بالأبيض المتوســط
لن يعى ما أنشد كالديرون:
سوى من عرف «حافظ» وأحبه

ترجمة: محمد على حشيشو

ألف ليــلة وليــلة

بقلم هوجو فون هوفمنستال

ما من أثر من آثار الأدب الاسلامى نشط خيال الأوربيين كقصص ألف ليلة وليلة. فمن خلالها تشكلت صورة الشرق فى أوربا عبر أجيال عديدة، وأكثر من رسام ومؤلف موسيقى ألمانى استوحوا من هذه الأقاصيص مادة لأعمالهم الفنية.
وقد ظهرت الترجمة الأولى لألف ليلة وليلة عام ١٧٠٤، حيث نقلها إلى الفرنسية الأديب أنطوان جالان Antoine Galland، وإن كانت بعض هذه القصص قد ذاعت من قبل فى الغرب بعد أن انتقلت إليه عن طريق إيطاليا. ولعله لا يمكن تصور ما طرأ من تطور على أدب القصص الخيالية الألمانية دون الرجوع لهذا العمل. فقد توفر جوته على دراسته والتغلغل فيه، كما أخذ عنه الكثير من أدباء ألمانيا فى عصرها الرومانسى طابعه الشرقى الذى طعموا به أساطيرهم الخرافية.
وتعد أساطير ڤيلهلم هاوف Wilhelm Hauff (١٨٠٢ — ١٨٢٧) مستمدة برمتها عن عالم ألف ليلة وليلة. كما استمع مؤلف الأساطير الدانمركى الشهير هانس كريستيان آندرسن (١٨٠٥ — ١٨٧٥) إلى هذه القصص العربية بينما كان يتردد وهو طفل صغير على حانوت أبيه الاسكافى، وقد تأثر بها فى أعماله التى أبدعها فيما بعد، مثل قصته: الحقيبة الطائرة.
ومن بين المؤلفين الموسيقيين الرومانسيين الذين طالما ولعوا بمعالجة الأساطير الشرقية فى أعمالهم كارل ماريا فون ڤيبــر Carl Maria von Weber (١٧٨٦ — ١٨٢٦) خاصة فى أوبراه المرحة «أبو حسن»، وفى «أوبيرون» التى لحنها عن قصة منظومة للشاعر ڤيلاند Wieland (١٧٣٣ — ١٨١٣) حيث لم تخل من عناصر الأسطورة العربية. ولم يدون حتى الآن بصورة كاملة تاريخ الروايات والمسرحيات الأوربية التى عالجت أثناء القرن التاسع عشر مواضيعا مأخوذة عن ألف ليلة وليلة، وإن كان الثابت أن معظم هذه الأعمال لم تكن من الناحية الفنية على مستوى رفيع.
ومع نهاية القرن الماضى وبداية الحالى بزغ فى أوربا الاهتمام من جديد بقصص ألف ليلة وليلة الأصلية؛ حتى لنجد أن شاعرين كبيرين ولدا فى عامين متواليين — ١٨٧٤ و١٨٧٥ — وهما هوجو فون هوفمنستال Hugo von Hofmannsthal وراينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke قد شغفا بالتطلع ومعاودة التطلع إلى عالم هذه الأساطير. حتى أن مقطوعتين من الآثار الأدبية التى ألفها هوفمنستال فى شبابه تنطقان بالطابع العربى المتغلغل فيهما، وهما: «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» (دونها عام ١٨٩٥)، وهى قصة مليئة بالرعب باعثة على الفزع، ومسرحيته القصيرة «زواج زبيدة» التى كتبها عام ١٨٩٩. كما أنه وضع الخطوط الأولى لقصة الأميرين أمجد وأسد، وإن لم ينفذها فى صورة عمل أدبى. ولا ننسى أن هوفمنستال قد صاغ أكثر من مرة قصائد من تأليفه باللغة الألمانية فى شكل الغزل العربى — الفارسى.
ويمكن أن نقتفى أثر عالم ألف ليلة فى حياته الأدبية إلى أن دون فى عام ١٩١٩ مسرحيته الشهيرة «المرأة بلا ظل»، التى لحنها ريشارد شتراوس. وقد أوردنا فى العدد الرابع من فكر وفن صفحة من أغنية الباز فى هذه الملهاة الغنائية الرومانسية.
وإلى جوار هوفمنستال وريلكه كان الشاعر ريشارد بير — هوفمان Richard Beer-Hofmann (١٨٦٦ — ١٩٤٥)، لا ينى عن تطعيم إنتاجه الأدبى بقصص ألف ليلة. ومن ذلك نجد أنه فى روايته «نعمان ووفاة جورج» يجعل البطل، حين يفجع بنبأ رحيل زوجه عن هذا العالم، يهيم باحثا عن سلوى:
«ثم تناول أحد الكتب، وإذ به جزء من ألف ليلة وليلة. وبينما كان فى الشهور الأخيرة يدفع عنه من فرط اضطرابه كل مجلد أو سفر، كان هذا هو الوحيد الذى استمر فى قراءته.
وبعيون صافية، لا يعتليها عذاب، تطلع الناس من هذا الكتاب، تحركهم مشاعر عارمة صادقة لا سبيل لانكار قدرها .. وعبر طرق عجيبة الثنيات مضت حياتهم معقودة على نحو غريب بحيوات الآخرين. وأدى إلى الهدف ما كان يشبه المتاهة؛ وتجمعت خيوط ما كان يبدو عليه وكأنه يدور سبهللا بلا خطة، فاذ به يتداخل فى أشكال حكيمة النظام شديدة التماسك

والتعاقد، كرسوم الأرابسكا الذهبية — المصطنعة من قبل — وهي منسوجة فى الحرير الأبيض لسجادة صلاة. فما من قدر أعمى باغتهم من خلفهم وانقض عليهم فى شر وغل فأسقطهم أرضا، وإنما كان مصيرهم يقف لهم على بعد بعيد بالمرصاد دون حراك، وعيونه مفتوحة عليهم بلا رحمة؛ وحتى يهربوا منه كانوا يغيرون السبيل إليه .. هكذا بدا وكأنه ليس فى مقدور أحد أن يصيب هؤلاء القوم بمكروه، طالما أن لكل مصيره المكتوب .. والآن كل ما صادفوه من سعادة وبؤس قد صار معقودا ببعضه دون فرح أو حزن، فهو ما كان سوى قضاء غريبا يستحق التسجيل.»
وإنه لما يهز الفؤاد أن الشاعر الذى تقدمت به السن كان يلتمس العزاء على ما ألم به عام ١٩٣٩ من كوارث فادحة فى بيت شعرى كان قد ترجمه هينيج Henning إلى الألمانية عن ألف ليلة وليلة، فأعاد هو صياغته مع تبديل خفيف جعله أكثر تعبيرا عن الروح الاسلامية:

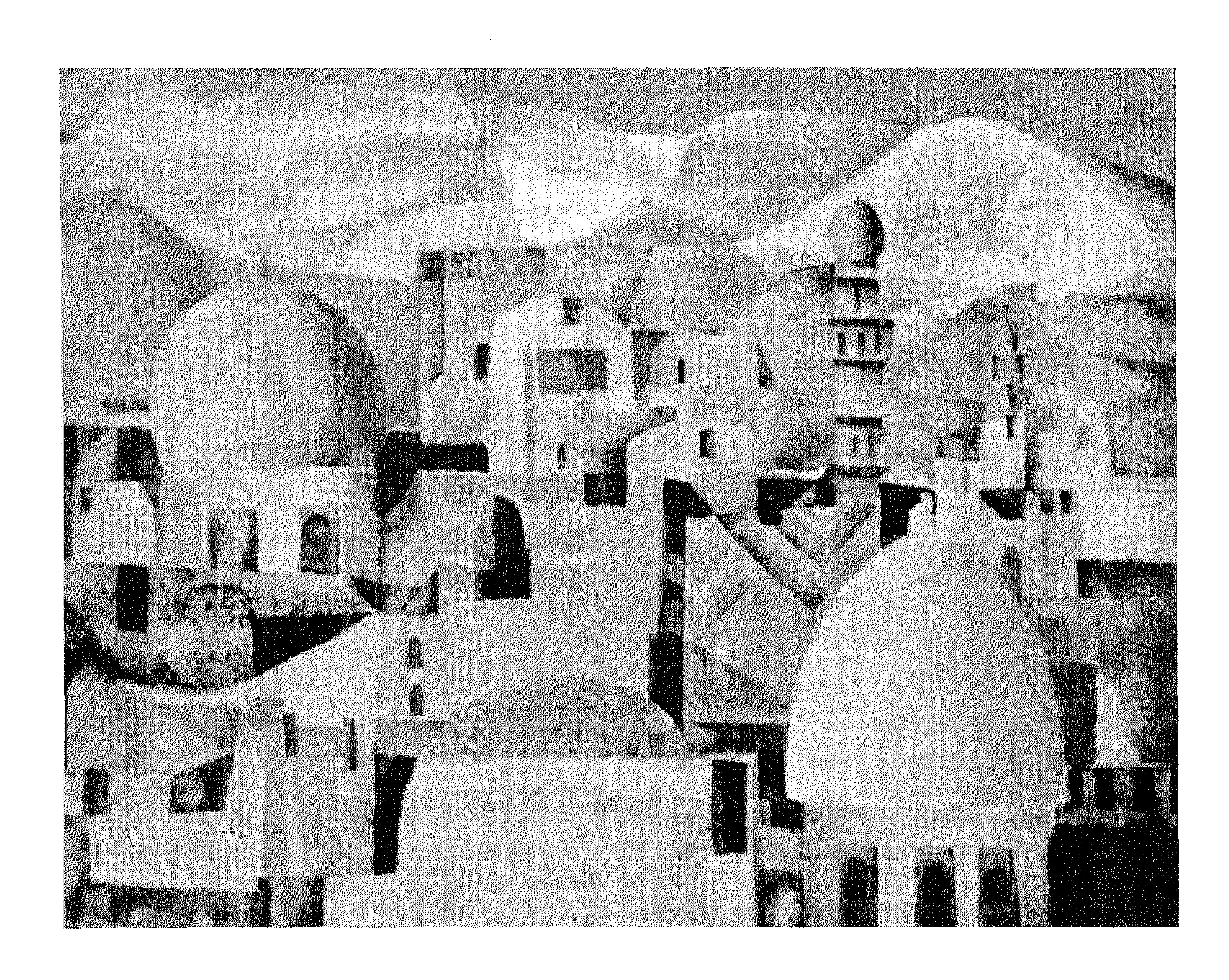
In seinen Zügeln laß getrost dein Schicksal laufen,
Und ruhe Nächtens ohne Bang vor seinem Walten —
Denn: zwischen deines Auges Auf- und Niederschlag
Kann Gott noch jedes Ding zu anderm Ding gestalten!

ويرجع الفضل إلى ريتشارد م. شيريتش Richard M. Sheirich فى التعريف بهذه الأبيات عن طريق نشرها لأول مرة عام ١٩٦٠ فى مجلة مكتبة جامعة هارفارد.

وهنالك عدد كبير من الأعمال الأدبية الألمانية الحديثة التى تأثرت بألف ليلة وليلة بدرجات متفاوتة. وإن ما يحس به القارئ الألمانى عند مطالعة هذه القصص هو ما عبر عنه هوجو فون هوفمنستال فى مقدمته التى صدر بها الترجمة الألمانية الكاملة لألف ليلة وليلة حيث قام بها «إنو ليتمان» على خير وجه وتولت نشرها دار إنزل Insel-Verlag وفيما يلى نص هذه المقدمة:

لم نبرح هذا الكتاب حين كنا غلمانا، وحين بلغنا من العمر عشرين عاما، وحسبنا أن شوطا بعيدا صار يفصلنا عن طفولتنا، عدنا إليه من جديد وعاد يجذبنا وكم عاد يجذبنا إليه! ذلك أنا ألفينا أنفسنا، فى طفولة قلبنا ووحدة روحنا، وسط مدينة فسيحة فسيحة، تموج بالأسرار وتوحى بالخطر والاغراء، كما هى بغداد والبصرة.(1) وفى خليط عجيب راحت تمتزج المغريات بالأخطار، وتملكت على قلوبنا الرهبة، واشرأبت نفوسنا فى تطلع المشتاق؛ وكنا نرتعد وحدة وضياعا، ومع ذلك جعل يدفعنا نحو الأمام دأب شجاع وإذ بنا ندور وسط متاهات، وسط وجوه تلاحقنا على الدوام، وإمكانيات، وثروات، وسحن مكفهرة نصف محجبة، وأبواب نصف مغلقة، ونظرات قوادة شريرة فى السوق الرهيبة. وكم كنا نشبه ذلك الأمير التائه بعيدا عن بلده، وأبناء التاجر الذى مات فأسلموا أنفسهم لمغريات الحياة، أجل كم اعتقدنا أننا شبيهون بهم؛ بلوح مسحور تطل منه جواهر كالعيون المتقدة، تصنع جسوما عجيبة غريبة، حتى التهب الكتاب واشتعل نارا بين أيدينا. وكما تشابكت وتداخلت السمات والرموز الحية المشيرة لتلك المصائر، هكذا تفتحت فى أعماقنا أغوار سحيقة من الصور والأحاسيس، ومن الشوق والشهوة.

وها نحن الآن، وقد صرنا رجالا، يقبل نحونا هذا الكتاب مرة ثالثة، فتحين لنا الساعة للمرة الأولى كى نمتلكه عن حق ويقين.
إن ما وقعت عليه أبصارنا فى السابق من هذا الأثر (ألف ليلة وليلة) لم يعد النقل عنه بتصرف، وعرض محتواه دون التزام بنصه؛ فمن ذا الذى يستطيع أن يعالج عملا شعريا كاملا فى قالب آخر دون أن يحطم أخص مقومات جماله وأعمق ما فيه من طاقه وقوة؟ .. ومن المؤكد أنه قد حوفظ على المغامرة فى حد ذاتها، فهى لم تندثر وإنما كان يروى مضمونها ويعاد روايته؛ غير أن الأمر هنا لا يتعلق بمجرد وقائع مغامرة — فماذا لو عرفنا هوميروس عن طريق مجرد سرد مضمون مغامراته؟ نحن هنا بصدد قصيدة، لا ريب أن أكثر من شاعر أسهم فيها، وإن كانت كما لو أنها صدرت عن روح واحدة، فهى كل متكامل وعالم قائم بذاته. ويالها من عالم! إن هوميروس ليبدو فى بعض الأحيان باهتا إلى جوارها مفتقدا إلى السذاجة. هنا عمق وتنوع، وخيال غزير مع حكمة بعيدة الغور؛ هنا أحداث لا تعرف النهاية، وأحلام وحكم، ومفارقات طريفة، وفحش معيب، وكنه غريب؛ هنا أجسر طاقات الفكر، وأشد نزوات الحس فى تداخل متعاشق، فى وحدة



فرانتس كوجلر Franz Kügler : منظر من مصر . بالألوان المائية.

واحدة. فما من حاسة فينا إلا وتحركت من أعلى عاليها لأعمق دانيها، وكل ما بداخلنا ينتفض هنا من جديد بالحياة، بينما نداء الاستمتاع يناديه.

إنها أساطير فوق أساطير تذهب حتى الشقاوة والعبث؛ وهى مغامرات وملح تمضى حتى الهزل والقباحة؛ ثم هى حوار معقود من ألغاز وأمثال وحكايات ذات مغزى ومرمز، تدور بالمرء حتى يلهث. غير أنه فى غمار هذا الكل لا تصير الشقاوة شقية، ولا القباحة دنية، ولا طول النفس باعثا على التعب، وإذ بالعمل ليس إلا كل رائع، تشده لبعضه البعض حسية كاملة متسامية معدومة المثيل.

حقا ما عرفنا شيئا حين ما عرفنا سوى وقائع هذا الكتاب، وما كانت تبدو لنا مخيفة مزعجة سوى لأنها كانت قد انتزعت من الجو الذى تحيا به وتتنفس فيه. فلا مكان فى هذا الكتاب لما يرعب أو يفزع، إنما هو غاص بكل ما فى الحياة من طاقات متفجرة. وإن الشهوانية الحسية البالغة فيه عنصر. عنصر يقابل فى هذا العمل الشعرى الضوء فى تصوير رمبرانت، واللون على لوحات «تيتسيانو».(٢) فلو أنه حد منه فى أى موضع، أو تعدى هذه الحدود فى مواضع متفرقة، لكان يمكن أن يخدش ويزعج، أما وهو يغمر بلا حد هذا الكل أو ذاك الكون، فهو — إذن — إلهام ورؤيا.

ننتقل من ذروة الدنيا لأحقر من فيها، من الخليفة للحلاق، ومن الصياد الفقير لتاجر الأمراء، وإذ بإنسانية تحيط بنا، وترفعنا على موجة خفيفة عريضة، وبينما نحن بين أشباح، بين سحرة وعفاريت نحس أنفسنا وكأننا لم نبرح دورنا. إن واقعية لا غنى عنها تصور لنا النافورة والقاعة الرائعة يكسوها بلاط باهر، وأم اللصوص العجوز يشغى رأسها بالقمل؛ وكذلك تضع المائدة، وتوزع عليها جميل الصحائف وغويط الصحون، وتجعلنا نشم روائح الأطعمة — الدسم منها والمفلفل والحلو— ومشروبات عصير الرمان المثلجة، واللوز المبشور تكسوه طبقات من السكر والتوابل المعطرة، وهى على نفس الهوى تقدم لنا حدبة الأحدب، وأفعال عجائز الرجال الأشرار بأفواههم المزبدة وعيونهم التى بها حول؛ وتدع الحمار يتحدث كحماره، والكلب المسحور يفوه كما يفعل تمثال من المعدن على هيئة ملك راحل، فما ينطق كل منهم إلا بالحكمة والواقع؛ وتروح تصور بنفس البساطة — بل بذات الدعة الرهيبة — حمولة حمار مطارد، وموكبا أميريا زاخرا بالعز والسؤدد، وإشارة لإيماءة تصدر بلا أدنى حرج عن حركات العشاق الصامتة ..

وهم فى مخدع منار يفوح بالعطر بعد أن مروا بألف مغامرة ومخاطـرة ..

من ذاك الذى تراوده نفسه على فتق مثل هذا النسيج الرائع؟ ومع ذلك فإن أمرا يغرينا بتحسس الوسيلة الفنية التى كان لا معدى عن استخدامها فى ألف موضع حتى لا تطبق على أنفاسنا تلك الكتلة الهائلة من المواد المعالجة بواقعية قصوى، وكى لا يصعب استساغتها مع الوقت. بل أن ما يحدث هو العكس من ذلك: فكلما أطلنا القراءة كلما كرسنا أنفسنا لهذا العمل على نحو أجمل وأروع، وكلما ضعنا وسط شعر ليس بعده من شفافية ولا سذاجة، وكلما امتلكنا أنفسنا بحق؛ كما يتلاشى ثقل المرء وهو يسبح فى ماء رقراق عذب، فيحس بدنه — عندئذ — مستمتعا مسحورا. وهنا يفضى بنا السبيل إلى أبعد أعماق طبيعة الشعر الشرقى، بل إلى نسيج اللغة الغامض الغريب؛ فإن هذا الغموض العجيب الذى يرفع عنا كل ضعة وضيق، عندما تبلغ مظاهر الحياة ذروة التعقيد، هو أعمق عنصر فى اللغة والشعر الشرقى على السواء: حتى أن كل ما فيها (لغة المشرق) مجاز مستمد من جذور سحيقة القدم، يمكن فهمه على أكثر من جانب ومحمل؛ وكل ما فيها يحوم .. وإن أول جذورها حسى بدائى، وجيز رهيب؛ ثم لا يلبث أن يمتد عبر تفرعات خفيضة الصوت، نحو معان جديدة مشتقة، يكاد ألا يربطها — بعد — أية صلة به؛ وإن كانت فى أبعد أبعادها لا تزال تبعث ببعض من ذلك الرنين الأصلى للكلمة، وتعكس — كما على سطح مرآة غائمة — ظلالا من صورة الاحساس الأول.

من هنا نرى كيان اللغة والشعر — وهما واحد فى هذه المرحلة — ، وكيف يصنع منهما أغرب الأشياء على الوعى، وأشدها خروجا على كل مألوف. وتبدو المادة فى وصف واقعى بلا حدود، وكأنها تكاد أن ترتمى علينا بكل عبثها: غير أن ما يقترب منا لدرجة خدش المشاعر، ولو كان يتحدد بدلالة الكلمة التالية وحسب، لا يلبث أن يذوب على شكل ضباب سحرى بفضل ما للتعبير الواحد من معان عدة. وبذا نستشعر من وراء المعنى التالى معنى آخرا عنه استعير الأول. ومع ذلك لا يضيع منا المعنى الأصلى الأول، وإنما حيث كان مبتذلا يتلاشى سر ما فيه من ابتذال، وكثيرا ما نتأرجح بإحساسنا المستقبل بين ما ينطوى عليه هذا المعنى من مفهوم مباشر، وما يربض خلفه على نحو أرفع وأكبر، حيث يفضى بنا فى سرعة الومض الى سنى الروعة والتسامى. إنى أريد أن أكون بسيطا فى تعبيرى وأن أفهم. ولكنى طالما أتحدث عن المجاز والدلالة الاستعارية

فإن ذهن القارئ سيمضى فى مجراه المألوف، وليس إلى حيث أريده، وعندئذ سيفكر فى معنى علوى ودلالة خافية رفيعة، بينما أريد أن أكشف عما هو أقل كلفة من هذا وأحلى منه بكثير، عن تلك الظاهرة التى تتخلل نسيج هذا العمل الشعرى بكامله: عن هذه اللغة — ثم أن الفضل يرجع إلى ترجمة ممتازة مكنتنا من أن نتحسس من خلالها لغة الأصل عارية، كما نرى جسد الراقصة من خلال الرداء —، إن هذه اللغة ليست مجرد مفاهيم مصقولة؛ فكلمات الحركة وأسماء الموضوعات فيها أصيلة أولية، صيغت لتقدم حياة عريقة عظيمة تمضى على هدى السلف الأوائل، وتعرض مسلك البدو الرحل فى كل ملابساته: حسيا، رهيبا، خالصا من أى ابتذال، متميزا بالصفاء، وهو فى حسيته وسذاجته غير مهموم متدفق الطاقة والعنفوان. ولكم نحن بعيدون هنا عن هذا الضرب الأولى من ضروب مبدء الحياة، فأين بغداد والبصرة من خيام الأجداد القدام. إلا أن هذا البعد ليس من البون — بعد — بحيث لا يسمح للغة غنية بالصور لم يصبها أدنى اندثار أن يلتحم جديدها بقديمها ألف التحام. إذ لا يوجد للتعبير عن حركة شهوانية، أو إقدامة صفيقة على آنية الطعام، أو التهام لذائذ المأكولات وابتلاعها فى سرعة واغتنام، أو التأديب فى غلظة، أو لفتة خوف أو لهفة سوى تلك الكلمات والعبارات الأولى التى يعلق بها على الدوام شىء من روعة وجلال، شىء ساذج يحث على الحبور، شىء من طبيعة طاهرة، وأحوال باهرة، وصفاء أزلى. فلا مكان هنا لتأنق متكلف، ولا إشارة إلى كيان علوى أو تمثيل مجازى، اللهم إلا إذا كان يصور الحس بما يفوقه حسية، وما هو حيا بما يزيد عليه حيوية: وما من فاه يتشدق بعالم علوى، فما أشبه الأمر بالتنفس من خلال المسام، وإن كنا نستنشق من مسام هذه اللغة الشعرية الساذجة هواء عالم أولى عتيق ذى هيبة مقدسة، تحوم فيه ملائكة وشياطين، وتوقر حيوانات الغاب والصحراوات كالملوك والآباء الأولين. هكذا لا يندر أن يصبح الشائع والعارى عن الحياء، بل عبارة التقريع والذم نافذة لنا نطل منها — كما نرى — على عالم الأجداد الأوائل مضاء بنور غريب غامض، بل على أسرار تعلونا بطبقات.

ولإن رأينا الانغماس فى المتع الحسية يستضىء — بكل انطلاقه — من باطنه بنوره، فإن هذا الكل مجدول فى آن واحد بروحانية شعرية نصعد معها — ونحن فى غاية الافتتان — من الادراك الأول للوعى الكامل. إن شعورا هائما، أو — قل — وجودا إلهيا لا سبيل لوصفه يرقد فوق كل هذه الحسيات. فإما أن تعلو دوما على هذا الخليط المائج من الانس والجن والحيوان خيمة الشمس ضاربة أشعتها أو سماء قدسية مرصعة بالنجوم والأجرام. وكريح لطيفة، صافية، كبيرة تهب عبر العمل كله تلك المشاعر الأزلية البسيطة المقدسة: إكرام الضيف، والتقوى، والوفاء على الحب. ولو أنى فتحت الكتاب على صفحة من ألف صفحة لوجدت فى قصة على شار وجاريته زمرد لحظة ما رضيت أن أستبدلها بأى موضع رفيع فى أكثر كتبنا مكانة. وهى — مع ذلك — لا تكاد أن تذكر. فالعاشق يريد أن يخلص حبيبته التى خطفها نصرانى عجوز شرير. وهو بعد أن يستكشف الدار، ويقف تحت نافذتها فى منتصف الليل، ويصير عليه أن يعطى شارة متفق عليها، ثم ينتظر قليلا بعدها، إذ تباغته سنة من النوم لا مرد لها، وما أسوأها فى هذا الظرف، وكأن قدرا مشئوما راح ينفخ فيه من الظلمة بما يشل حركته. وتقول القصة: بينما كان جالسا فى ظلمة الجدار تحت النافذة «غلب عليه النوم، سبحان من لا تاخذه سنة ولانوم.»

لست أدرى أى لحة من هوميروس أو دانتى يمكننى وضعها بجوار هذه السطور: هكذا من العدم يتفتح الاحساس بالله وسط مغامرة مختلطة مضطربة؛ كما يطلع القمر فى حافة السماء وينظر فى حياة الناس. وماذا يقال بعد ذلك عن الحكم التى تنطق بها الطيور والحيوانات، وسداد إجابات العذراوات الحسناوات، وما يمس شغاف القلب من أمثال وحقائق يقطرها الآباء وحكماء الملوك المسنين فى آذان الشباب، وحوار العشاق الذى لا يفرغ، والذى يدفعون به فى نفس واحد عن ذواتهم سعادتهم وثقل بهجتهم، وبذا يرفعونهما عن وجودهم كى يعودا إلى الوجود العام. وكما يرفعون سعادتهم على أنفسهم، حين يعبرون عنها بكلمات الشعراء وعبارات الكتب المقدسة، كذلك يرفع الصبى وجله عن ذاته، والسائل عوزه، والظامئ عطشه. وطالما كانت كلمات الشعراء مشاعا — كالهواء — على كل لسان، فقد ذهبت الضعة عن الأشياء؛ وصارت أبديتها تحوم نقية حرة فوق آلاف الأقدار المتشابكة، تعبر عنها ألفاظ أزلية الجمال لا تعرف الفناء. إن هذه المغامرات التى يعالج فحواها من أوله لآخره سعيا نهما دؤوبا، ومعاناة مؤلمة مضطربة، واستمتاعا أكيدا لتبدو وكأنها ما كانت سوى من أجل تلك القصائد الرفيعة التى تعلو عليها، وتحوم من فوقها — ولكن ماذا كانت تعنى

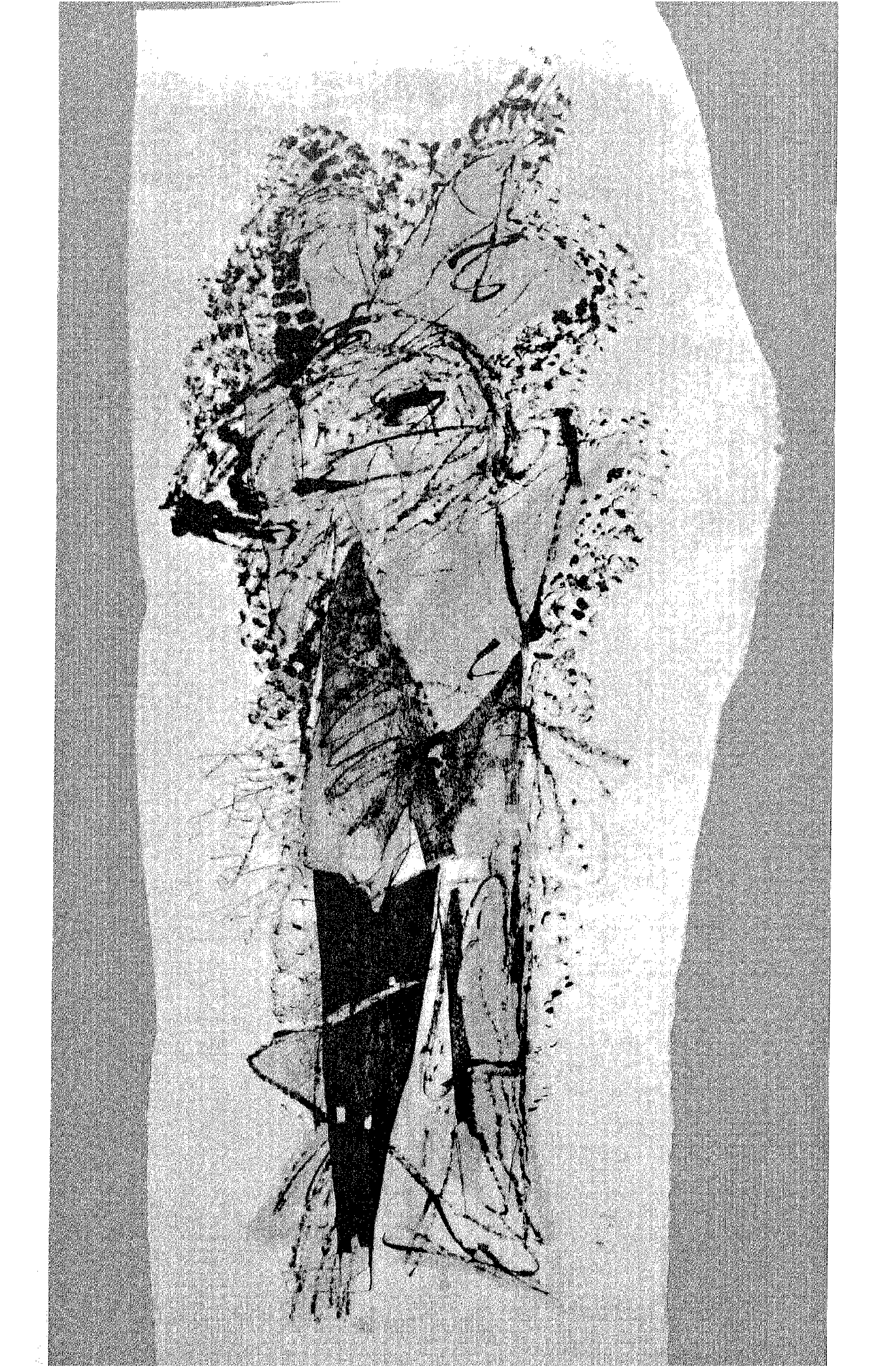
هذه القصائد، ماذا كانت تعنى بالنسبة لنا، لو أنها لم تنبثق عن عالم يتمخض بالحياة؟
إنه لا مثيل لهذا العالم الزاخر بالحياة، يتخلله مرح لا آخر له، مرح طفولى حار، مرح لا ينطفىء ولا يزول، به يتشابك الكل ويلتقى جسدا بجسد وروحا بروح: الخليفة بالصياد المسكين، والعفريت بزوجة البائع الجوال، وست الحسن والجمال بالسائل الأحدب. أين كانت بصيرتنا حين اعتبرنا هذا الكتاب متاهة وحسبناه مليئا بالوحشة والرعب؟ إنه مبهج للغاية، وتزيده أفعال الشر مرحا لا حد له ولا نهاية. العاشق يريد أن يخلص حبيبته، فيجلس فى منتصف الليل تحت نافذتها؛ وهى ترتقب — فى الظلام — شارته. وهنا تباغته سنة نوم عنيد. ويعبر الطريق لص كردى عملاق — وهو أرهب واحد من أربعين — فيرى النائم، ويتسمع على المرتقبة، ثم يصفق صدفة فتركب زمرد الحلوة على كتفيه، ويركض بالحمل الجميل الخفيف وكأنه لا يحمل شيئا. وتتعجب هى من بأسه وقوته. وتروح تسأل نفسها: «أهو على شار؟ ذاك الذى يبرطع من تحتى كالحصان؟ أيعقل أن يكون هذا حبيبى الذى كتب لى بأنه قد صار ضعيفا هزيلا من حزنه على وحنينه إلى، حتى شارف على الموت؟» وما زال يركض بها حتى يتزايد قلقها، ولما كان لا يرد عليها فقد تحسست وجهه بيديها: «وإذ بها سحنة الكردى اللعين، خشنة شائكة كفرطوسة خنزير كان قد ابتلع من نهمه دجاجة كاملة وهى حية فطلع ريش ذيلها من حلقه.»
إنه لعمل مشين أن نخرج هكذا الجزء من الكل — ولكن هذا الموقف، وذاك التأمل، وما يدور فى رأس الحسناء وهى تندفع بسرعة عبر الليل من فوق كتف اللص المتهور، ثم لحظة الاكتشاف وذلك التشبيه غير المعقول الذى يدفع بنا فى عز النهار إلى مراعى الريف فلا ننساه — لست أدرى أين نعثر على ما يشبه ذلك سوى فى أشد المواضع مرحا وسذاجة وصفاقة من كوميديات «لوپ دى ڤيجا» التى تسحر اللب. أين كانت بصيرتنا حين رأينا هذا الكتاب مروعا ومرعبا! إنه لمتاهة، ولكنها متاهة المتعة! إنه سفر يمكن أن يتحول به السجن إلى إقامة قصيرة. إنه كما قال عنه «ستندال»: الكتاب الذى يجب أن ننساه دائما كلية، حتى نعود لنقرأه باستمتاع دائم التجدد.

ترجمة: مجدى يوسف

---

١) فى ألف ليلة وليلة طبعا .. (المترجم).
٢) تيتسيانو ڤيتشيليو Tiziano Vecellio: من أروع المصورين الايطاليين فى استخدام اللون. عاش فى البندقية (١٤٧٧–١٥٧٦) واشتهر بلوحاته عن الحب العذرى والشهوانى. (المترجم)

◀ Gerhard Altenbourg, Zeichnung. جرهارد آلتنبورج، رسم؛ تصوير: جنيلكا.



الشاعر ريلكه يطوف الشرق

كان ريلكه فى الربع الأول من هذا القرن من أكثر الشعراء الألمان تأثيرا على أذواق معاصريه، ولا زالت أشعاره ومقطوعاته النثرية ورسائله نبعا لا يغيض إلى يومنا هذا. وهو، كشأن هوفمنستال وبير- هوفمان، عدا عن الكثير من سواهم الذين تأثروا بالشرق الاسلامى، لم يمسك عن الطواف بروحه فى هذا العالم حتى انعكس ذلك بوضوح فى نتاجه الأدبى.

وقد اهتم ريلكه بالاسلام فى مرحلة مبكرة نسبيا. إذ يرجع تاريخ واحدة من أروع قصائده — وهى «رسالة محمد» — إلى عام ١٩٠٧، أى بعد قراءته لترجمة ألف ليلة وليلة بسنة واحدة. وتعبر هذه القصيدة عن كبير إعجابه بالأسلوب البسيط المباشر الذى تميز به مفهوم الدعوة الاسلامية، وهو ما عاد وأكده فى رسائله التى كان يبعث بها من قرطبة.

وفى نهاية عام ١٩١٠ حط الرحال بالشاعر فى شمالى أفريقيا، وهو الذى لم يعرف طوال حياته سوى التنقل والتطواف — كانت تونس تغريه بزيارتها، كما كانت تغرى معظم معاصريه من الفنانين، لاسيا وأن بلوغها كان سهلا نسبياً. وفى رسالته التى بعث بها بمناسبة عيد الميلاد إلى زوجته الرسامة «كلارا ريلكه — فستهوف»، وابنته «روت» بأعوامها الثمانية آنذاك، راح يصف انطباعاته عن تنوع الحياة فى مدينة تونس، معرجا على سوقها، ناقلا ما يعبق فيها من أجواء:

إلى كلارا فى ١٧—١٢—١٩١٠

«فى السوق تأتى المرء أحيانا بعض اللحظات التى تصور له عيد الميلاد: الكوات الصغيرة مزدحمة بأشياء ملونة مدلاة منها، والأقمشة وفيرة مفاجئة، والذهب يلمع ويضوى بالوعد كأنه سيهدى إلينا غدا، وحين يواجه كل ذلك فى المساء فانوس واحد يشتعل ويهتز فى اهتياج لوجود كل ما سطع عليه نوره من أشياء، عندئذ تغمر ألف ليلة وليلة كل شىء، كل ما كان أملا لنا ورغبة وتحفزاً، ويصبح عيد الميلاد غير بعيد على الاطلاق. ولكنى حتى فى الصباح أعود لأشده من جديد لما تفعله الشمس حين تنفذ إلى الأسواق من خروم سقوفها، وكيف تعطى بلا نهاية حين ترمى هنا وهناك بأخضر شفاف، بأحمر ساخن، بـ«موف» زاه — اليوم كان الناس يطوفون بمزاد للجبب والجادوره وكأنهم بين أحجار كريمة، يتجهون إلى قطعة من النسيج ثم يمضون ببساطة إلى داخلها، إلى خضارها الرائق، إلى بنفسجها الزاهى، أو عبر صفرة ظلت ماثلة أمامنا بلا مبرر كصفاء مشع من السماء. وفى سوق العطارين أصبح لنا صديق إذا صافحه المرء ظل يصافحه طوال النهار، وعندما يأتى الليل أظل ساهرا إذ تبدو لى أصابعى وكأن روحا عجيبة لبستها. كنت قد طلبت منه عطر نبات العتر (وهو كثيرا ما يباع على أنه ماء ورد)، فأعجبه أنى طلبت هذا بالذات وليس عطر الورد، وأطلعنى على سره، وهكذا صرنا أصدقاء.»

وبعد ذلك بأيام قلائل زار الشاعر مدينة قيروان ذات التاريخ العتيق فخلفت فى نفسه أثرا بعيد الغور:* «كالرؤيا ترقد المدينة المسطحة البيضاء بروابيها الدائرية كالأبراج... كم هى غاصة بالأموات الراقدين أمام أسوارها فى كل مكان.»

ويهتز الشاعر خاصة لمرأى جامع سيدى عقبه: «ذلك الجامع الرهيب، الذى تجمعت فيه مئات الأعمدة من قرطاجنه** وكافة المستعمرات الرومانية الساحلية.»

وفى قيروان تكشفت له عظمة الاسلام وعصريته فى آن واحد على نحو لم يسبق أن بلغ لديه مثل هذا الوضوح: «المرء يحس هنا بروعة ما فى هذا الدين من بساطة وحيوية؛ وكأنما كان النبى هنا بالأمس وهذه المدينة مملكته.»

وكان ريلكه يعلم أن تجربته فى شمال أفريقيا لم تكن بسيطة سريعة ذات طبقة واحدة؛ فهو حين دون هذه الكلمات: «ها عالم الشرق قد بدأ يتفتح لى» كان يدرى أن هذه الرحلة ستؤثر فى عمله لمدة طويلة بعد أن نفذت إلى ما وراء ستار الشعور الواعى: «إنى أرى مقدما أنه

---

* يلاحظ أن كل ما بين قوسين فى هذا المقال مقتطف عن ريلكه.

** مستعمرة فينيقية شهيرة بالتجارة أغار عليها العرب وحطموها عن بكرة أبيها فى عام ٦٩٧ م.

قبل أن أتمكن من الافصاح عما يجوب فى نفسى سيمضى وقت طويل، مع أن كل شيء معروف لى تماما حين أتحسسه من حولى.»

وقد استعاد ريلكه ذكرياته فى تونس حين زاره الرسام «پاول كليه» (راجع الأفكار والفنون) فى عام ١٩١٥ وأحضر له معه عددا كبيرا من لوحاته التى صورها أثناء رحلته عبر شمال أفريقيا فى ١٩١٤. وقد احتفظ الشاعر طويلا بهذه اللوحات، وراح يتعمقها ويعيد النظر إليها مرات ومرات ..

ومن تونس مضى ريلكه إلى مصر ملبيا دعوة لبعض أصدقائه هناك — وكانت زوجته كلارا قد زارت وادى النيل فى ١٩٠٧ مما جعله معدا للتجربة التى فى انتظاره. وفى مصر قام برحلة نيلية منذ السادس من يناير ١٩١١ حتى العاشر من شهر فبراير من نفس العام، بدأها بالقاهرة عابرا بممفيس وأسيوط وأبيدوس والأقصر والكرنك وإدفو ثم أسوان. ولما كانت هذه الرحلة كلفته عناء كبيرا فقد استجم فى دار أحد معارفه فى حلوان حتى نهاية شهر مارس. غير أن تطوافه على صفحة النيل أثر فى نفسه الشاعرة أعمق التأثير. وها هو يكتب إلى صديقته «لو آندرياس سالومى» عن تلك الرحلة فى نهاية ذلك العام (١٨ — ١٢ — ١٩١١):

«... لعلى تعلمت ولو قدرا ضئيلا من الشرق؛ بل كنت أحاول تعلم العربية على سطح المركب النيلى، وربما صنع منى متحف القاهرة شيئا، مع أنى دخلت عليه وأنا فى حيرة كبيرة ...»

لاشك أن مصر القديمة هى التى هزت هنا ريلكه وتركت فى نفسه آثارا بعيدة الغور. وهذا هو يصف بكلمات طريفة عجيبة تمثال رمسيس الذى شاهده فى ممفيس وأوحى إليه باحدى قصائده: «ركبنا مطايانا ونحن نعبر طريق السعف*، حيث يرقد رمسيس الرهيب تحت فيض المكان .. كما لا يرقد سوى عالم منفرد بذاته.»

وتفاعل الشاعر بسر الكرنك الذى هز أحاسيسه — وفى ذلك يكتب إلى زوجته الرسامة:

«على الشط الشرقى العربى الذى نرسو عليه يوجد معبد الأقصر بأروقته العالية ذات عواميد اللوتس المتبرعمة، وعلى بعد نصف ساعة منه يقوم عالم معبد الكرنك المستغلق على الفهم. قصدته لأراه بمجرد وصولنا فى الليلة الأولى، ثم مرة أخرى بالأمس تحت القمر الذى بدأ يتضاءل ... رأيت ... عامودا على شكل قمع زهرة يقوم وحيدا، عامودا معمرا لا يفهمه أحد، وهو يقوم هكذا بالنسبة لنا فيما وراء الحياة .. وطالما أن سلسلة الجبال الليبية تقوم غربا على هذه الناحية .. هناك فيما وراء ذراعى نهر النيل والأرض الخصبة؛ فقد امتطينا اليوم ركائبنا عبر التل العظيم الذى فيه يرقد الملوك، كل تحت ثقل جبل كامل.»

ولكن أديبنا لم يهتم بماضى الشرق العظيم فحسب، وإنما راح كذلك يستقبل بعيون يقظة حياته الحاضرة، ويحولها إلى أشعار — وهكذا دون فى العام التالى مقطوعة نثرية «عن الشاعر» الذى «أدرك ذاته من خلال النوبى المغنى على ظهر القارب النيلى، الذى به انتقلنا من جزيرة فيله إلى منشآت السد الممتدة.»

وأخيرا يودع مصر، ويودع القاهرة بعالمها مرة أخرى، القاهرة التى كانت تبدو له من زوايا عدة:

«إن القاهرة تأتى بعالم يزيد على طاقة المرء ثلاثة أضعاف ولا يعرف الواحد كيف له أن يؤدى كل ذلك: إنها عاصمة فسيحة ممتدة فى نهم، وهنا الحياة العربية بكامل كثافتها حتى السواد، وخلفها تقف على الدوام رادعة مذكرة كالضمير أشياء مصر — تلك — الضخمة بلا رحمة ...»

بعد ذلك بما يقرب العامين طلع ريلكه فى رحلة جديدة إلى أقطار الجنوب — وكان الهدف هذه المرة أسبانيا. أسبانيا التى انعكست تجربته فيها على الكثير من أشعاره وآثاره الأدبية. كان يحب «رونـدا» Ronda وإن كانت زيارته لجامع قرطبه تعد واحدة من أكبر انطباعاته عن هذا البلد. وتدل على ذلك رسالته الضافية التى بعث بها فى ١٧—١٢—١٩١٢، أى بعد عامين بالتمام من وصفه للألوان الرائعة فى أسواق تونس، إلى الأميرة فون تورن أوند تاكسيس Von Thurn und Taxis. ولكم ثارت غضبته لمرأى هذا الجامع العظيم وقد بنيت فيه كنائس صغيرة عديدة، ووضع فيه معزف أرغل بعد أن حول بناؤه إلى كنيسة. ومرة أخرى فتنه فى الاسلام استقامته واتجاهه المباشر كما سبق أن افتتن به فى قيروان، وذلك على العكس من الورع السطحى الذى رآه فى أسبانيا وظل ينفره زمنا — وهو الكاثوليكى — من المسيحية.

«منذ قرطبة غمرنى شعور حاد ضد المسيحية؛ وإنى لأقرأ القرآن فيصبح صوتى فى بعض المقاطع — حين يتملك على كافة أحاسيسى وقواى، كالريح فى الأرغل .. وقد كان محمدا فى كل الظروف أقرب الناس إلى، كنهر عبر

* لايستبعد أن يكون الشاعر هنا يريد الاشارة بصورة ضمنية إلى حادث أحد السعف المذكور فى العهد الجديد. وهى على أية حال رؤية فنية تعنى المهتمين بالأدب المقارن.

جبالا وعرة يتخذ طريقه إلى الله الواحد الأحد، حيث يكالمه على هذا النحو الرائع كل صباح ..»

وقد دفع الشاعر مشهد جامع قرطبة إلى هذا القول المأثور: «الله كل شيء، الله فوق كل شيء».

من عمق اهتمام ريلكه بالعالم العربي نستطيع أن ندرك مدى كلفه بعالم ألف ليلة وليلة. فسحر فارس، بكل رتوش صورته المثالية فى ألمانيا، راح ينعكس فى واحدة من أروع قصائده، وهى «سونيت إلى أورفيوس» Sonette an Orpheus (١٩٢٢)، التى تغنى فيها ريلكه بـ«ورود وحدائق إصفهان أو شيراز»، وقارن حياة الانسان ببساط معقود على أروع طراز، لكل خيط فيه مكان هام وخاص — وإن هذا العنصر تصويرى شرقى أصيل أجمع على استخدامه كل الأوربيين الذين عالجوا الأساطير العربية. وتتيح لنا المقالة القيمة المنشورة عام ١٩٦٠ بقلم والتر ف. جروسمان تحت عنوان: ريلكه والليالى العربية Rilke and the Arabian Nights، فى مجلة مكتبة جامعة هارفارد، فرصة طيبة للتعرف على عظم اهتمام الشاعر بألف ليلة وليلة. وقد أخذنا عن هذه الدراسة القسم الأكبر من المعلومات التالية.

وفى إحدى رسائله كتب ريلكه عام ١٩٢٢، بعد أن مجد ورود إصفهان وشيراز، وتغنى بأريج الورود الشرقية: «كم أعجب رودان Rodin بهذه القصيدة الشرقية (فى تركيزها الغالب عليها) .. وكم أحبها. وما أكثر ما كان يأتى بكتاب مفتوح (هو ترجمة دكتور ماردروس Dr. Mardrus الشهيرة لألف ليلة وليلة Milles et une nuits والتى تحتوى على أبيات شعرية فى غاية العذوبة والدسامة) ليريني سطرين، بل سطرا واحد ... (فى هذه الوردة شيء من هذا الشعر، مع أن أريج القصيدة أنفذ وأكثر تركيزا من عبيرها الغض الشاب الذى لا يكاد أن يلحظ).»

وحسبما جاء فى رسالة شاعرنا المذكورة يتبين لنا أن أول عهد ريلكه بالترجمة الفرنسية لألف ليلة وليلة كان أثناء عمله سكرتيرا لرودان فى أبريل ١٩٠٦. وبعد ذلك بعام واحد كان يقرأ الترجمة الألمانية التى قام بها جريفه Graeve — لنفس هذا العمل الخالد — بحيث تضافرت قصص ألف ليلة ورسائل زوجته التى كانت تطوف مصر فى تلك السنة على إعطائه صورة عن الشرق. ولكنه عاد يتعمق ألف ليلة مرة أخرى قبل أن ينهض برحلته إلى شمال أفريقيا. وفى بداية العشرينات يتجدد لقاء ريلكه بالشرق من خلال المختارات المترجمة التى صدرت آنذاك لإنو ليتمان عن دار نشر «إنزل» فى ١٩٢٤. وقد حصل ريلكه على نسخة من هذا الكتاب فى نوفمبر ١٩٢٣؛ أما نسخته الشخصية منه فمحفوظة فى مكتبة جامعة هارفارد. وراحت تذكره هذه المنتخبات من قصص الورد فى الأكمام وأنس الوجود بترجمة ماردروس Mardrus الفرنسية، التى كان قد طلبها من زيوريخ واستمتع بقراءتها من قبل. بل أنه استعان بهذه الترجمة على تصحيح النص الألمانى، وأدى به ذلك إلى أن صاغ بشعر من عنده قصيدتين كان قد سبق لإنو ليتمان أن نقلهما إلى الألمانية فى ترجمة شعرية حرة. ويتضح الأثر الغائر العمق الذى خلفته ترجمة ماردروس فى النظرة المتأملة التى كان يلقيها ريلكه على الشعر العربى من رسالة بعث بها فى ١٩٢٢، أى قبل مدة طويلة من عودته إلى هذا النص، حيث يقول:

«إذا غضضت الطرف عن الديوان الشرقى للمؤلف الغربى (الذى حمل إلى الألمانية سعادة اكتشاف الشرق)، فقد تعرفت لأول مرة على القصيدة العربية من خلال تلك الأبيات التى كثيرا ما ضمنها «ماردروس» نصه المترجم عن ألف ليلة وليلة. وأحيانا ما كان يأتى إلى رودان من أجل سطور أربعة أو ستة، كى يجعلنى أشاركه للتو رؤيتها وهى تتفتح كالزهرة، كان يأتى إلى بكتاب مفتوح — أى رونق، أى زهرة، أى عين أى يد .. كل قصيدة منفردة لا تزيد على وصفة طبيب! وعندما حققت فيما بعد فى تونس ومصر تقدما سريعا فى قراءة العربية، آه، حسبما بدا لى ... زاولنى الأمل أن أتمكن ربما يوما من استيعاب هذه الأبيات وإعادة بنائها بنفسى (يقصد نقلها عن النص العربى مباشرة) ..»

إلا أن هذا الأمل لم يتحقق لريلكه، وإن يكن شاعرنا قد بذل لتحقيقه بعض المحاولات غير المباشرة كترجمته للقصيدتين المشار إليهما فى السطور الماضية. كما أنه نقد لجوء «ليتمان» إلى استعمال القوافى وفضل عليها التزام المترجم بنقل المعنى على نحو أقرب ما يكون للأصل .. ولقد بدا له أن ليتمان لم يوفق فى محاولته أن يكون «دقيقا بقدر الامكان» مع استخدام القافية فى آن واحد. يضاف إلى ذلك أن ريلكه قد وجد فى صورة المحبة الولهانة كما تعرضها قصة الورد فى الأكمام نموذجا من النساء طالما شغله وجذبه — تلك المحبة التى تهب نفسها للحب على نحو كامل مطلق. وهكذا يتبين لنا أن كلتى المقطوعتين اللتين ترجمهما ريلكه عن ألف ليلة وليلة ليستا مجرد تعبير عن مثله الذاتية وإنما تقدمان لنا أيضا صورة من أسلوبه فى سنواته الأخيرة، وتدلان على مدى عمق الأثر الذى خلفته قصص ألف ليلة وليلة فى زهرة الأدب الألمانى وواحد من أكبر رواده.

fiel ihr Blick auf die Krieger, und sie erschaute unter ihnen einen Jüngling, so schön von Gestalt und so lieblich von Antlitz, wie es keinen anderen gab; mit strahlendem Blick, mit lachendem Munde, mächtig und breit, so stand er da. Immer wieder blickte sie nach ihm hin, ja, sie konnte sich nicht satt an ihm sehen. Und sie sprach zu ihrer Amme: »Wie heißt der wunderschöne Jüngling, der dort unter den Kriegern ist?« »Meine Tochter,« erwiderte die Amme, »alle sind schön. Wen unter ihnen meinst du?« Sie fuhr fort: »Warte, ich will ihn dir zeigen.« Dann nahm sie einen Apfel und warf ihn dem Jüngling zu. Der hob sein Haupt und erblickte die Tochter des Wesirs am Fenster, als wäre sie der volle Mond, der im Dunkel der Nacht am Himmel thront. Und wie er seinen Blick wieder abwandte, war sein Herz von Liebe zu ihr erfüllt, und er sprach das Dichterwort:

Traf mich ein Schütze, oder haben deine Augen
Ein liebend Herz verwundet, als es dich wahrgenommen?
Ist der gekerbte Pfeil zu mir aus weiter Ferne
Von einem Heere oder vom Fenster her gekommen?

Als nun das Spiel beendet war, fragte sie ihre Amme wieder: »Wie heißt dieser Jüngling, den ich dir gezeigt habe?« Jene erwiderte: »Er heißt Uns el-Wudschûd«; das ist zu deutsch »Wonne der Natur«. Da legte die Jungfrau sich auf ihr Lager nieder und kleidete ihre Gefühle in Worte, indem sie daran dachte, daß Uns wa-Dschûd »Wonne und Huld« bedeutet, und indem sie seine Braue mit dem halbkreisförmigen Buchstaben Nûn, sein Auge aber mit dem mandelförmigen Sâd verglich:

Der irrte nicht, der dich Uns el-Wudschûd benannte,
O du, in dem die Wonne sich mit der Huld vereint!
Dein Antlitz gleicht dem vollen Monde, dessen Scheibe
In Weltall und Natur mit hellem Glanze scheint.
Ja, du bist einzigartig unter allen Menschen;
‚Du bist der Schönheit Herr' ist aller Zeugen Ruf.
Und deine Braue gleicht dem Nûn, dem schön geschriebnen;
Dem Sâd dein Augenstern, den der Allgüt'ge schuf.
Und ach, dein schlanker Wuchs ist gleich dem frischen Reise,
Das jeden Wunsch gewährt, der sich im Herzen regt.
Du übertriffst die Ritter der Welt an Kraft; du bist es,
Der aller Huld und Wonne und Schönheit Palme trägt.

Dann schrieb sie diese Verse auf ein Blatt, hüllte es in ein Stück goldgestickter Seide und legte es unter ihr Kissen. Eine ihrer Kammerfrauen hatte das gesehen, und dann wußte sie ihr das Geheimnis zu entlocken. Rose-im-Kelch sandte das Blatt durch die Alte zu Wonne-der-Natur; und nachdem der es gelesen hatte, schrieb er auf die Rückseite diese Verse:

صحيفتان من كتاب «انزل آلمانخ» (عام ١٩٢٤) تضمان قسما من ترجمة اينّو ليتمان لحكاية «الورد فى الأكمام وأنس الوجود» وترى تصحيحات ريلكه للمواضع التى لم ترقه من ترجمة ليتمان.

هذا الكتاب محفوظ فى مكتبة هارفارد Harvard College Library؛ ونشكر دارنشر هارفارد لتصريحها لنا بنشر هاتين الصحيفتين فضلا عن الصياغة الجديدة المدونة بخط الشاعر لهتين القصيدتين (على ص ٧٠ من هذه المجلة)

x Zum Vergleich siehe: Insel Alm. Seite 142. 3te Zeilen oben.

x): O Hauch, wenn morgen der Geliebte hier vorüberkommt, mit Zeichen von Verliebten, gieb ihm zurück von mir den Gruß als Duft. Denn ich weiß nicht, wo ich am Abend bin; weiß nicht, wohin die Reise geht. Sie führen mich hastig fort, und wenig wehre ich mich. Die Nacht wird kommen; draußen im Gesträuch der Vogel wird, was uns geschieht, beklagen: In seiner Sprache sagt er: „Schmerz, o Schmerz, grausamer Schmerz zu lassen, was man liebt!" Ich selber, als ich sah, wie sich die Schalen der Trennung füllten und man sie mir aufdrang, mischte Ergebung in die Bitternis. Doch aus Ergebung, ach, wird nie Vergessen! x

x Wem werf ich die Liebesklage zu, in der meine Seele befangen ist, wenn die Klagen der Angst um den entfernten Freund; wem klag ich das Brennen unter meinen Rippen? Aber ich werde schweigen, aus Furcht vor den Wächtern!

x ~~Vergl.~~ Insel = Alm. Seite 143, vierte Zeile von unten

Mein Leib ist dürrer geworden als der Span eines Zahnstochers, aufgezehrt von den Gluten, den Trostlosigkeiten der Abwesenheit und dem unaufhörlichen Jammern.

Wo sind die Augen des Freundes, dass sie sähen den trüben Stand der Verstörung, in den ich geraten bin, über dem Denken an ihn.

Sie haben ihr Recht überschritten, indem sie mich fortschleppten an einen Ort, wohin mein Geliebter nicht kommen kann.

Ich trage der Sonne auf, meine Grüße, zu tausenden, des abends und am Morgen, ihm zuzutragen, dem Geliebten, dessen Schönheit den Mond beschämt, den vollen, in seinem Aufgang, und dessen beweglicher Wuchs die Biegsamkeit der jungen Zweige übertrifft.

Fiele es den Rosen ein, seiner Wange nachzuahmen, ich würde den Rosen sagen: Unmöglich, ihr Rosen, seiner Wange zu gleichen, es sei denn, ihr wäret die Rosen auf seiner anderen Wange.

Sein Mund erzeugt einen Speichel, von dessen Süße die Glut eines Schlaflosen verginge.

ترجمة ريلكه لقصيدتين من حكاية «الورد فى الأكمام» بخط الشاعر.
وهى محفوظة فى مكتبة جامعة هارفارد، Harvard College Library, Cambridge, Mass.

Wem werf ich die Liebesklage zu, in der meine Seele befangen ist, wem die Klagen der Angst um den entfernten Freund; wem klag ich das Brennen unter meinen Rippen? Aber ich werde schweigen, aus Furcht vor dem Wächter./ Mein Leib ist dürrer geworden als der Span eines Zahnstochers, aufgezehrt von den Gluten, den Trostlosigkeiten der Abwesenheit und dem unaufhörlichen Jammern./ Wo sind die Augen des Freundes, daß sie sähen den trüben Stand der Verstörung, in den ich geraten bin, über dem Denken an ihn./

Sie haben ihre Rechte überschritten, indem sie mich fortschleppten an einen Ort, wohin mein Geliebter nicht kommen kann./

Ich trage der Sonne auf, meine Grüße, zu tausenden, des Abends und am Morgen, ihm zuzutragen, dem Geliebten, dessen Schönheit den Mond beschämt, den vollen, in seinem Aufgang, und dessen beweglicher Wuchs die Biegsamkeit der jungen Zweige übertrifft./

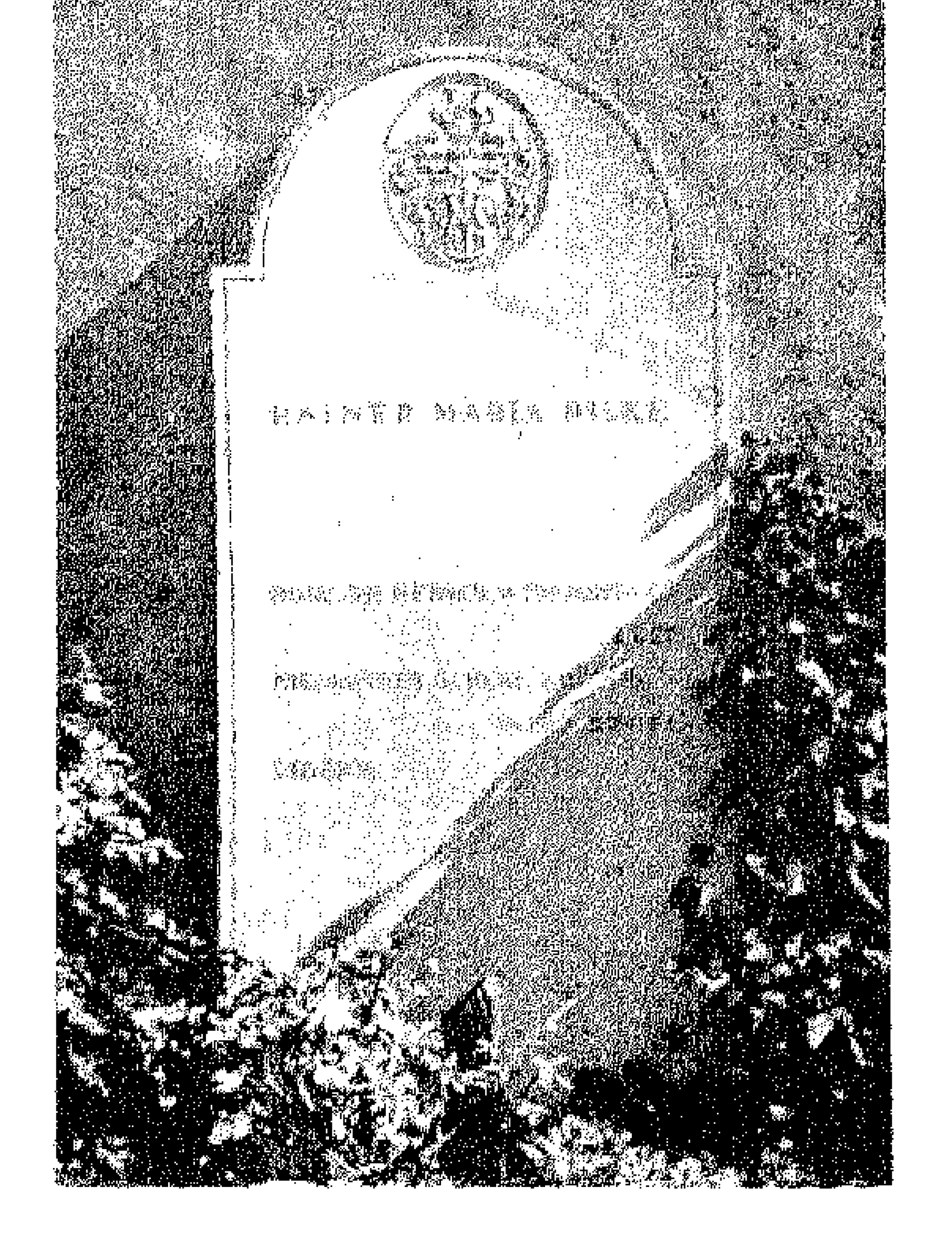
Fiele es den Rosen ein, seiner Wange nachzuahmen, ich müßte den Rosen sagen: Unmöglich, ihr Rosen, seiner Wange zu gleichen, es sei denn, ihr wäret die Rosen auf seiner anderen Wange./

Sein Mund erzeugt einen Speichel, von dessen Kühle die Glut eines Scheiterhaufens zerginge.

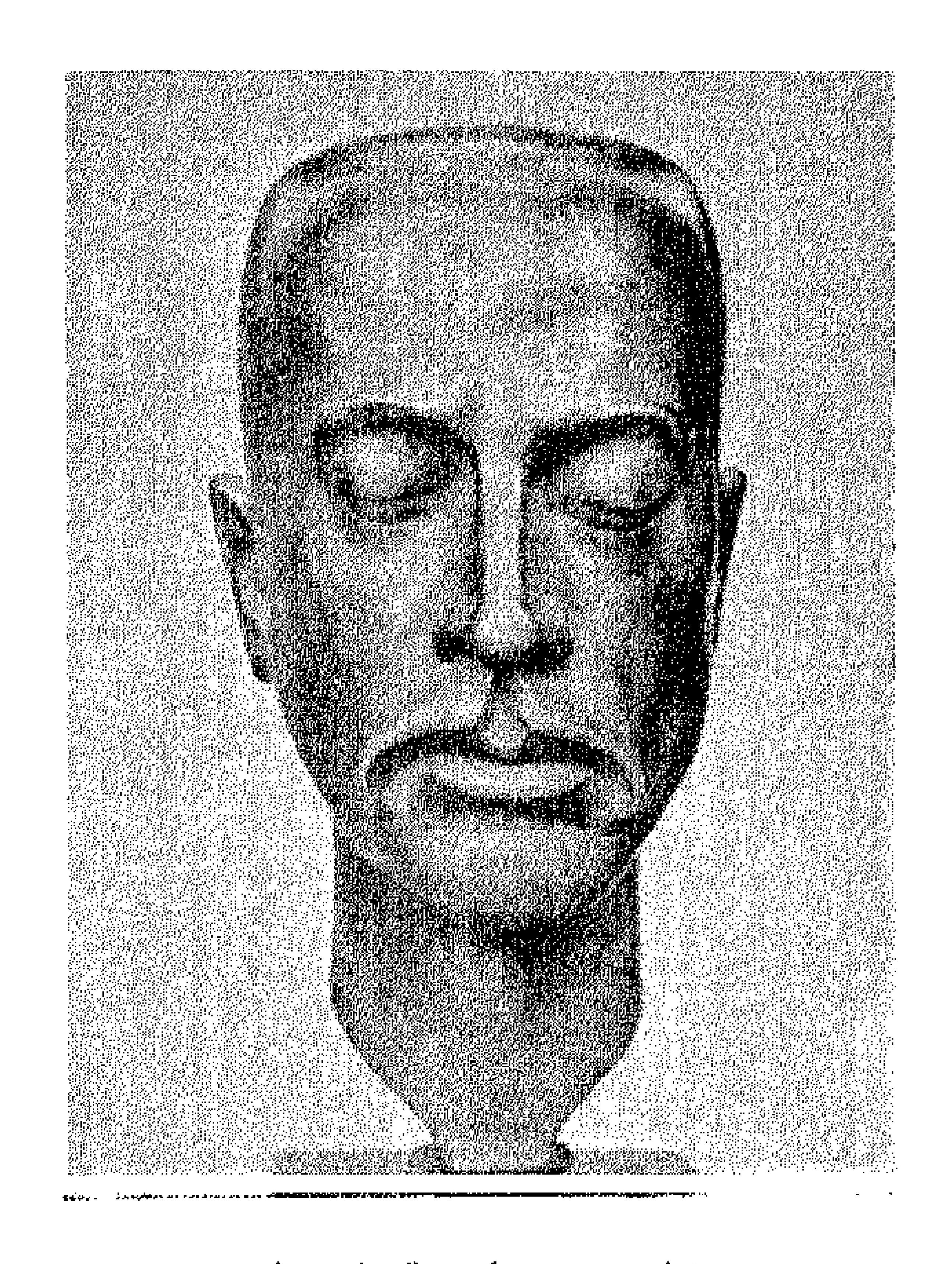
يا لمن اشتكى الغرام الذى بى
وشجونى وفرقتى عن حبيـــبى
ولهيـــب بين الضلـــوع ولكـــن
ولست ابديه خيفة من رقيبى
ثم اصبحت رق عـــود خـــلال
من بعاد وحـــرقة ونحيـــب
اين عين الحبيب حتى تـــرانى
كيف اصبحت مثل حال السليب
قد تعدوا على اذ حجبـــونى
فى مكان لم يستطعه حبيـــبى
اسأل الشمس حمل ألف سلام
عند وقت الشروق ثم الغروب
لحبيب قد اخجل البدر حسنـــاً
مذ تبدى وفاق قد القضيب
إن حكى الـــورد خـــده قلت فيه
لست تحكى إن لم تكن من نصيبى
إن فى ثغـــره لسلســـال ريـــق
يجلب البرد عند حر اللهيـــب
كيف اسلوه وهو قلبى وروحى
مسقمى ممرضى حبيبى طبيبى

O Haus, wenn morgen der Geliebte hier
vorüberkommt, mit Zeichen von Verliebten,
gieb ihm zurück von mir den Gruß als Duft.
Denn ich weiß nicht, wo ich am Abend bin;
weiß nicht, wohin die Reise geht. Sie führen
mich hastig fort, und wenig nehm ich mit.
Die Nacht wird kommen; draußen im Gesträuch
der Vogel wird, was uns geschieht, beklagen.
In seiner Sprache sagt er: „Schmerz, oh Schmerz,
grausamer Schmerz zu lassen, was man liebt.“
Ich selber, als ich sah, wie sich die Schalen
der Trennung füllten und man sie uns aufdrang,
mischte Ergebung in die Bitternis.
Doch aus Ergebung, ach, wird nie Vergessen!

بالله يا دار ان مر الحبيب ضحى
مسلما باشـــارات المحبيـــــنا
أهديه منا سلاماً زاكيـــاً عطـراً
لأنه ليس ندرى أين امسينا
ولست أدرى الى أين الرحيل بنا
لما مضوا بى سريعا مستخفينا
فى جنح ليل وطير الأيك قد عكفت
على الغصون تباكينا وتنعينا
وقـــال عنها لسان الحـــال واحربا
من التفرق ما بين المحبينـــا
لما رأيت كؤوس البعد قد ملئت
والدهر من هدفها بالقهر يسقينا
مزجتها بجميـــل الصبر معتـــذراً
وعنكم الآن ليس الصبر يسلينا



حجر قبر ريلكه فى رارون Raron بمقاطعة Wallis بسويسرا وعليه شعار عائلة الشاعر.



فرتس هوف Fritz Huf: راينر ماريا ريلكه، تمثال نصفى من البرونز، ١٩١٥.

وردة، ياتناقضا مجردا، متعة
نوم لا كان لأحد
تحت كل هذه الجفون ..

Rose, oh reiner Widerspruch, Lust
Niemandes Schlaf zu sein unter soviel
Lidern

طلب راينر ماريا ريلكه فى وصيته بتاريخ ١٩٢٥/١٠/٢٧ أن تنقش هذه الكلمات على قبره، وأن يكون حجر مقبرته عتيقا فرنسى الأصل. وقد نفذت وصيته. وكانت شوكة وردة قد جرحت ريلكه فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٢٦ مما أدى إلى إصابته بسرطان الدم. وتفاقمت حالته بسرعة حتى أسلم الروح فى ٢٨ من ديسمبر عام ١٩٢٦.

*Rainer Maria Rilke * Mohammeds Berufung.*

Da aber als in sein Versteck der Hohe,
sofort Erkennbare: der Engel, trat,
aufrecht, der lautere und lichterlohe:
da tat er allen Anspruch ab und bat

bleiben zu dürfen der von seinen Reisen
innen verwirrte Kaufmann, der er war;
er hatte nie gelesen — und nun gar
ein solches *Wort, zu viel für einen Weisen.*

Der Engel aber, herrisch, wies und wies
ihm, was geschrieben stand auf seinem Blatte,
und gab nicht nach und wollte wieder: Lies.

Da las er: so, daß sich der Engel bog.
Und war schon einer, der gelesen hatte
und konnte und gehorchte und vollzog.

المَغرِب الأقصَى في لوحَاتي

بقلم اوسكار كوكوشكا

صدرت فى شهر يناير من هذا العام عن دار نشر Marlborough Fine Arts (لندن) مجموعة من ثمانية عشر لوحة مطبوعة على الحجر بلون واحد تحت عنوان: مراكش؛ وهى للفنان الكبير أوسكار كوكوشكا الذى قدم لها بالمقال التالى*:

فى شتاء عام ١٩٦٤ رسمت الأوديسه فى أربع وأربعين لوحة مطبوعة على الحجر. وكان الشتاء فى «ڤيلنوڤ» Villeneuve باردا ومشبعا بالضباب، مما جعلنى أرحل وزوجى فى نهاية شهر يناير إلى المغرب الأقصى. وفى القطار المسافر من الدار البيضاء إلى مراكش، عبر الخط الحديدى الذى أقيم تحت إدارة الجنرال «ليوتى» Lyautey، كان يجلس رجل وزوجه فى غاية التصلب. ولم يبد عليهما الابتهاج بصعودنا إليهم فى الدرجة الأولى. وكنا قد قضينا اليوم بطوله فى الطائرة والقطار، ونسينا أنه لا توجد عربة مقصف، ولما كنا سنبلغ الفندق أثناء ساعة متأخرة من الليل فقد افترضنا أننا لن نجد هنالك أيضا ما نتعشى به. لذا فقد أدرنا وجوهنا فى احتشام عندما أخرج رفاق رحلتنا أطعمتهم من لفائف معقمة وصفوها أمامهم. وكانت على ظهور حقائبهم شارات سويدية. ثم صعد فى أحد المحطات الكثيرة الواقعة على الطريق واحد من أهل البربر مرتديا جلبابا، وفى صحبته زوجه التى كانت محجبة، وسألا فى أدب عما إذا كانت الأماكن خالية. ولما كان الزوجان المتصلبان قد انزويا فى الركن فقد دعوت القادمين للجلوس. وإنى لأحب مثل هذه المقابلات أثناء الرحلات. والبربر ليسوا بعرب، وإنما هم من أقدم السلالات التى عاشت فى شمالى أفريقيا، وتأثرت بهجرة الأقوام المغايرة لتلك المنطقة كالغوطيين والونـدليين Vandalen. فمن بينهم ذوى الشعر الأحمر والعيون الزرق والقامة الفارعة العملاقة، وهم فى ذلك يتباينون تماما عن السلالات المختلطة فى مصر الحديثة والساحل الشمالى لأفريقيا. ويحتوى الأطلس على صور رسومهم التى خلفوها على الصخور فى عصر «لا — تن» La-Tène. — كان قد أحضر الرجل على كتفه زكيبة ذات حجم ضخم. ودار فى رأسى: «ماذا يحمل يا ترى فى زكيبته؟» لقد وضعها فى الممر وجلس هو والسيدة. وزاد السائحان من نكوصهما عنا. ولو انتظر المرء فى هدوء، وراعى أصول الكياسة، لكان من اليسير لمثل هذه اللقاءات أن تصبح مسلية مبهجة؛ إذن فقد عرضت عليه سيجارة. فقبلها شاكرا وناولها لرفيقته، التى بدا عليها أنها لازالت شابة، وإن كانت محجبة. ودخنت لفافتى بينما راح السائحان يأكلان ويشربان*. لم يقوم الناس بالأسفار والرحلات إذا كانوا يحجبون أنفسهم هكذا عن الواقع، ذلك الواقع الذى يشذب ويهذب العلاقات الانسانية فى المجتمع؟ وفجأة، عند غروب الشمس يفتح رجل القبيلة زكيبته، ويخرج منها برتقالا وتمرا ومكسرات، ويقدم لنا منها، ثم تشعل له رفيقته اللفافة بعد ذلك. وهنا لاحظت أننا كنا فى شهر رمضان. وبينما كنا نتناول معهم الطعام بدأت السيدة الشابة فى أن تفتح لنا صدرها أثناء الحديث، وخلعت الحجاب عن وجهها. وقد علمنا — فيما بعد — أن ذلك كان تكريما كبيراً لنا. وكانت فى غاية الجمال. ودعونا لزيارتهما فى مزرعتهما؛ غير أنهما غادرا القطار — للأسف — قبل مراكش بكثير، حيث كانت غرفنا محجوزة من سلف فى الفندق. إذن لم يكن لقاؤنا بهما أثناء الرحلة مدعاة للملل، كما أننا اصطحبنا معنا البرتقال الذى أهديانا إياه، بينما تركه السائحان دون أن

---

* من الجدير بالذكر أن كوكوشكا وإن اشتهر كرسام كبير إلا أنه شاعر وكاتب مسرحى هز فى مطلع القرن ما كان متوارثا من أساليب التأليف الأدبى باللغة الألمانية. (المترجم)

* يلاحظ أن التدخين أثناء تناول الأخرين طعامهم عادة ليست مستحبة خاصة فى أوربا. والأرجح عندى أن كوكوشكا فعلها عن شبه عمد تعبيرا منه عن استيائه من هذين السائحين. ويلاحظ أيضا أنه لم يلقبهما صدفة «بالسائحين»!! (المترجم)

يلتفتا إليه. وبلغنا الفندق فى منتصف الليل. ونظر إلى رئيس الاستقبال، الذى أخذ جوازى سفرنا. وهو يقول: «لقد تبين لى من دفتر زوارنا أنك نزلت فى هذه الدار قبل خمس وثلاثين عاما.» وأخيرا قدم إلينا الطعام أيضا فى ذلك المساء. ولقد قمنا بالكثير من الرحلات لما وراء الأطلس، وعدت بعدها بالعديد من الرسومات، التى طبعت — كالعادة — لدى «ڤولفنسبرجر». وفى نهاية الرحلة صادفتنا مفاجأة. فقد استرعى انظارنا أنه فى جميع الطرقات المؤدية للمدينة كانت تتزايد الخيول المحملة بالزكائب والعلف، بينما تمضى إلى جوارها أحصنة أخرى مطهمة صالحة للركوب، وإن لم تكن مسرجة. ماذا كان يعد هنالك؟ حين بلغنا مراكش علمنا أنهم كانوا فى انتظار الملك، حيث أعدوا له حفلا كبيرا. فقد كان الملك الحسن يقوم برحلة عبر المغرب الأقصى كله يتفقد أحوال بلاده، وكان على مرافقيه أن يقطنوا بفندقنا الواقع مباشرة بالقرب من سور المدينة. وفى آخر يوم قضيناه هناك قبل أن نرحل كانت تغطى كلا من السهل الملىء بأشجار الزيتون والساحة الفسيحة المشرفة على جدار المدينة آلاف من الخيام المصنوعة من وبر الإبل الأبيض، ومن بينها خيام البدو ذات اللون الأسود، وفى الوسط خيمة كبيرة حمراء. ومنذ الصباح الباكر تكاثرت جموع المشاهدين بالآلاف، فلاحون بجلابيبهم وبدو رحل بعباءاتهم ونساء وأطفال عن قرب وبعد، ورغم أنه لم يكن هنالك شرطى واحد، إلا أن النظام كان سائدا. وكان طريق السباق الذى سيقدم فيه الفرسان ألعابهم خال لا يمر به أحد. وسرعان ما ركضت فيه، من أوله لآخره، مجموعة من خمسة أو ستة خيالة. كانوا يحملون غدارات ثمينة قديمة موشاة بالفضة، وتبلغ من الطول والثقل ضعف الحديثة. وكان عليهم أثناء الركض بالخيل أن يلقوا بهذه الغدارات فى الهواء، ثم يعودوا ليلتقطوها ويطلقوا منها النار فى دفعة واحدة، بحيث تغطيهم لبعض الوقت سحابة من الدخان. وأثناء كل ذلك كان المتفرجون حكاما. فقد كانوا يعينون بتصفيقهم أى مجموعة من أى قرية هى الأحسن. وبكراس رسوماتى الكبير وقفت محشورا وسط الجموع المتأرجحة، وكلما أقبلت علينا الخيول الراكضة وتراجعت أفواج الزحام، أفسحوا لى مكانا فى أدب وتطلعوا بأنظارهم من فوق كتفى بسيماء الخبير العارف. وكذلك زرنا تلك الخيام الفاخرة. ولدى الشيوخ الموسرين وأسرهم كانت هنالك دواوين جلوس وراقصات وضاربون على الدفوف وموسيقى المزامير، ونسينا الزمن والفندق الحديث القائم على الناصية، وما به من مصعد كهربائى وغرف استحمام، وشعرنا أننا انتقلنا إلى أساطير ألف ليلة وليلة. فالخيول والحمير مربوطة إلى بعضها البعض، والحملان تثغو. وعندما أقبل الليل راح يشوى الضأن على النار فى الخلاء، وأقيمت مطابخ لسلق اللحم وأخرى لصنع القهوة. ومن أعلى سطح الفندق كان منظر هذا السهل الفسيح، بعد أن أشتعلت فيه نيران الحراسة، كقرية كبيرة للغاية. وفجأة خطرت لى لوحة معلقة فى ميونخ، ما أشد حبى لها: موقعة الاسكندر، لألبرشت آلتورفر.*

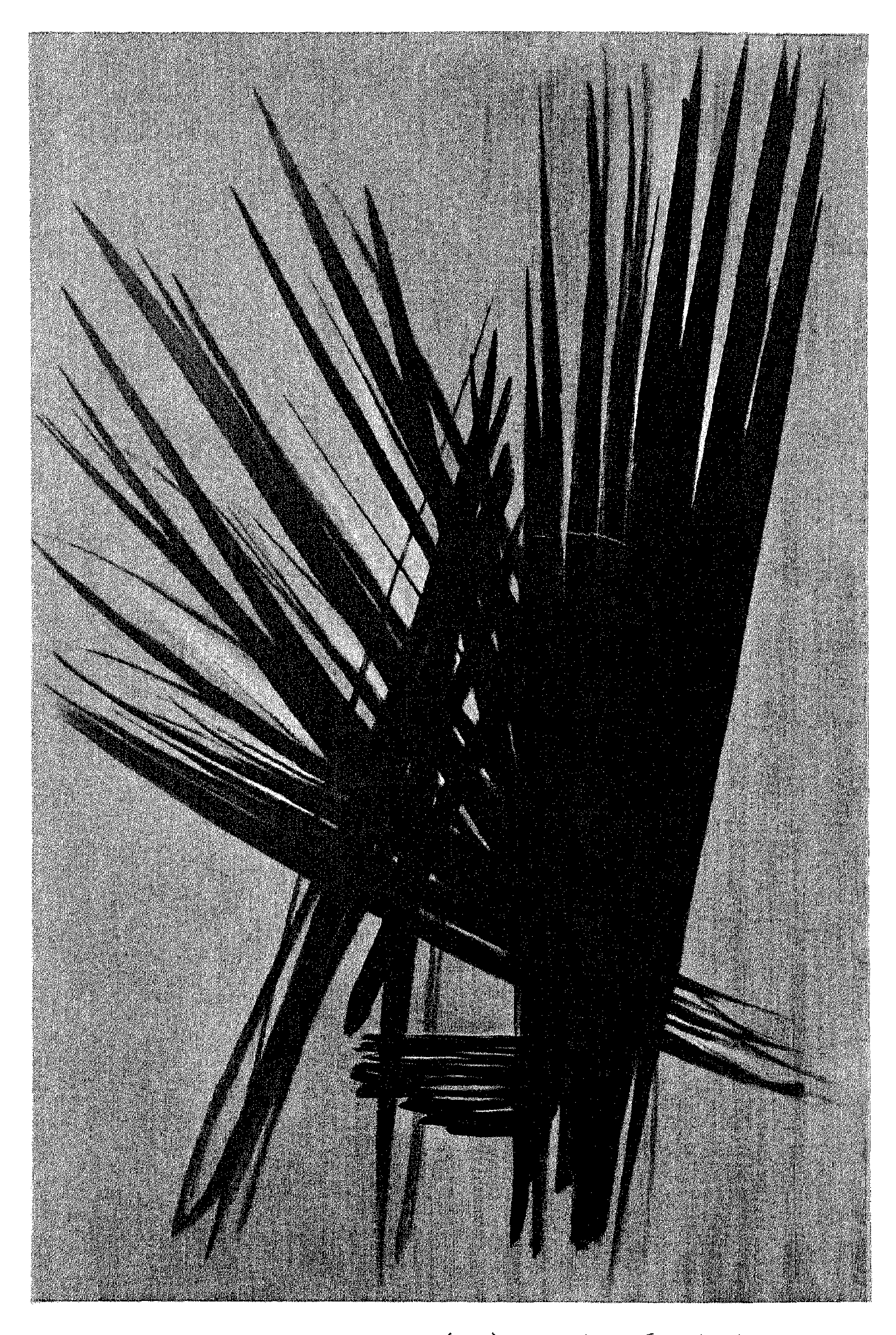
ترجمة: مجدى يوسف

* انظر فكر و فن ٩، ص ٥.

Hans Peter Keller:	هانس بيتر كيلر:
WARTE	صبرا
und	ولو
wenn es die Luft kostet	كان الثمن الهوا
Luft zu Wind ausgefranst	هواء تفصد صار ريحا
Warte	صبرا
solange du kannst	ما استطعت سبيلا
auch Gold rostet.	الذهب نفسه يبلى بالصدا.

ترجمة: مجدى يوسف

Aus: Auch Gold rostet. Gedichte von Hans Peter Keller, Limes Verlag Wiesbaden, 1962.



هانس هارتونج، كومپوزيتيون ت ١٨،٥٥ (١٩٥٨)
عن كتاب: Paul Vogt, Das Muscum Folkwang, Essen, Verlag M. DuMont Schauberg, كولونيا 1965.

تيبريوس ڤوخر Tiberius Wocher (١٧٢٨ – ١٧٩٩): شرقى متأمل بجوار قبر. نشأت عام ١٧٧٦، وهى من مجموعة Öffentliche Kunstsammlung Basel.



بمزيد من الأسى والأسف ننعى هنا من جديد وفاة مستشرقين شهيرين توفاهما الله فى اوائل شهر حزيران (يونيو) من العام الحالى ١٩٦٧ وبذلك كانت خسارة العلم فادحة بفقدهما. إنهما هيلموت شيل Helmuth Scheel وفرانتز بابنكر Franz Babinger — وكان كل منهما مبرزاً فى حقل الدراسات التركية.

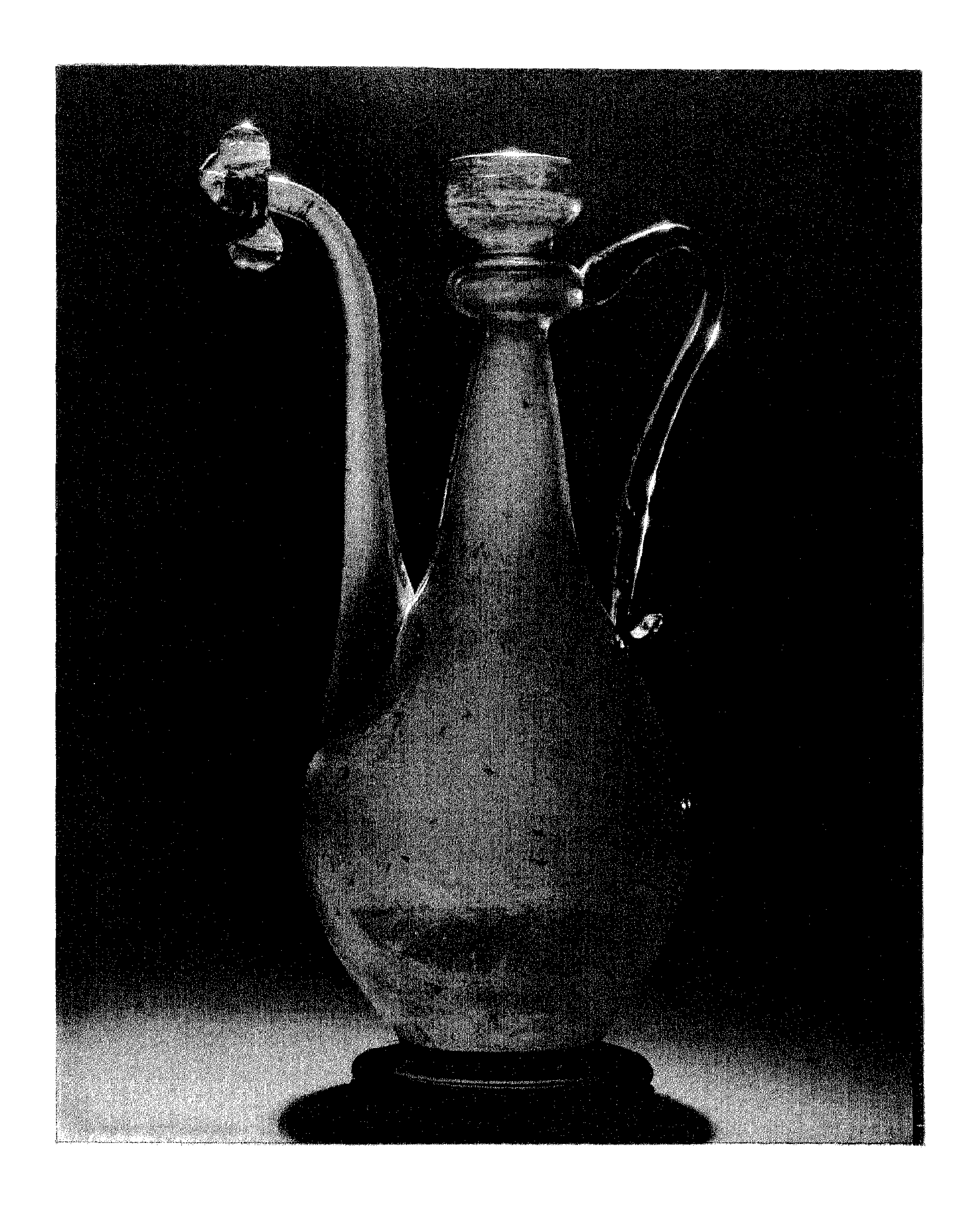
ولد هيلموت شيل فى ١٩–٥–١٨٩٥ فى برلين، وأصبح فى عام ١٩٣٢ مدرساً فى جامعة برلين. وبعد ذلك بستة أعوام أصبح موظفاً فى اكاديمية العلوم البروسية، التى عين مديراً لها عام ١٩٣٩. وبعد الحرب احتل عام ١٩٤٦ مقعد الاستاذية لتدريس العلوم الاسلامية فى جامعة ماينز.

وكان الميدان الرئيسى الذى تفرغ له شيل هو اللغة التركية والتاريخ التركى، وخاصة التاريخ الديبلوماسى والحقوقى. وقد عالج فى بعض مقالاته مسائل العلاقات الديبلوماسية التركية – الأوروبية وخاصة فى القرن الثامن عشر. وفى عام ١٩٤٢ نشرت له دراسة موسعة بعنوان: «الوضع الحقوقى والسياسى للأسافقة والبطارقة فى تركيا القديمة». وفى هذا البحث عالج علاقة الدولة العثمانية بزعماء الأقليات المسيحية. ولكن أهمية شيل الحقيقية بالنسبة لتاريخ العلم لا تكمن كثيرا فى هذه الدراسات

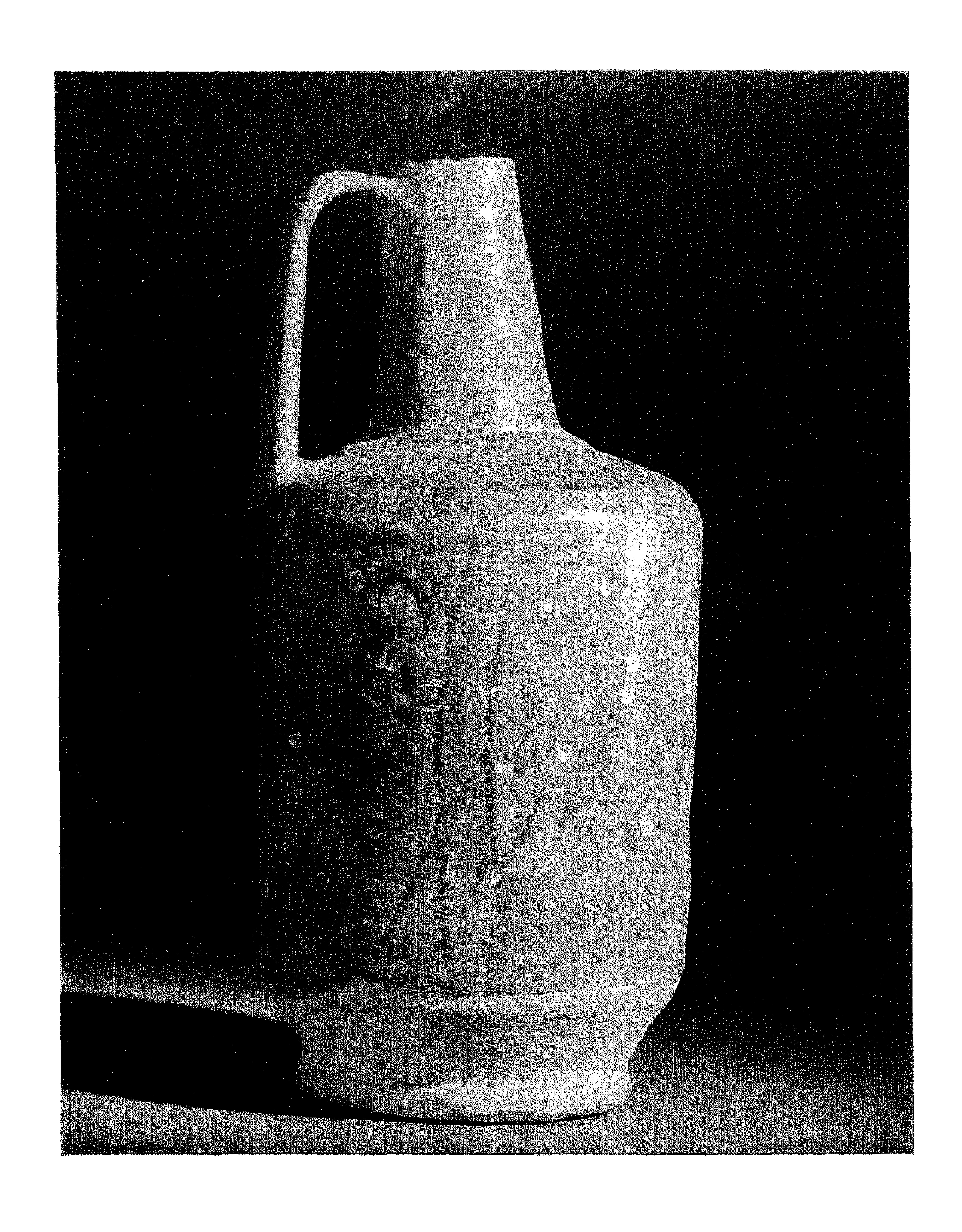
أو فى معرفته الممتازة للمخطوطات والوثائق التركية، وإنما فى نشاطه التنظيمى العملى. فقد كان لأعوام كثيرة الامين العام لجمعية المستشرقين الألمانية، وبهذه الصفة أفسح المجال للمستشرقين الألمان بأن يلتقوا على الدوام حتى فى أيام الحرب العصيبة وفى فترة ما بعد الحرب، كما كان يتيح لهم امكانات العون والمساعدة من كل ناحية، وتحمل اعباء إصدار مجلة جمعية المستشرقين الألمانية والإشراف على نشر عدة أبحاث علمية. وكانت مؤتمرات المستشرقين فى برلين أثناء الحرب من بوارق الأمل النادرة فى تلك الأعوام القاسية. وساهم شيل بعد الحرب أيضاً فى إعادة بناء الدراسات الشرقية بنفس الهمة والنشاط، فقد تعهد بانقاذ مخطوطات قيمة من الوقوع بأيدى سلطات الاحتلال السوفيتية فى برلين وتأمين وصولها إلى ألمانيا الغربية. كما أنه اهتم بصفته رئيساً للجنة الشرقية فى اكاديمية العلوم التى انشئت بعد الحرب فى ماينز بتقديم المساعدة والتشجيع الخاصين لنشر أبحاث من حقل الدراسات الشرقية كلها. ونلمس اقتراحاته مدرجة فى جميع منشورات اللجنة الشرقية. وكما قام شيل أثناء الحرب، عندما لم تكن تتوفر امكانات طبع المؤلفات العلمية البحتة، بالاشتراك مع ريشارد هارتمان بنشر مؤلف جميل جامع يضم مقالات تتناول جميع فروع العلوم الشرقية مع تركيز خاص على الأبحاث الإسلامية، فقد انكب بعد الحرب خاصة على خلق موسوعة اساسية جامعة للدراسات التركية، يشترك فى تأليفها علماء من جميع أنحاء العالم. وقد قامت عدة جمعيات علمية بتقدير جهوده ونشاطه، وقد مثل الاستشراق الألمانى فترة طويلة فى منظمة اليونسكو العالمية. وكان يعرف كيف يسيطر على أصعب المواقف بروح الفكاهة والمرح، كما أن مرض قلبه لم يعقه عن العمل ولم يقلل شيئاً من طاقته الانتاجية. ولحسن الحظ أن المقادير شاءت أن توفر عليه الاضطجاع الطويل فى سرير المرض، إذ فاجأته المنية وهو يعمل بنشاطه المعهود فى الاكاديمية فى ماينز. وسيذكره الاستشراق الألمانى دوماً بالشكر والامتنان.

أما فرانتز بابنكر فقد تناولت ابحاثه كذلك دراسة التاريخ العثمانى بالدرجة الأولى. وكان قد ولد فى ١٥—١—١٨٩١ فى ڤايدن، فى بفالز الاعلى (فى شمالى شرقى باڤاريا) وأصبح بعد اتمام دراسته فى ميونيخ مدرساً جامعياً فى برلين. وبعد ذلك بثلاثة اعوام احتل مقعداً جامعياً للتدريس. وفى عام ١٩٣٥ استدعى إلى جامعة بوخارست، وفى عام ١٩٣٧ إلى جاسى فى رومانيا، ومنذ عام ١٩٤٨ أخذ يعمل كأستاذ كرسى فى جامعة ميونيخ. ويكشف أول مؤلف كبير لبابنكر وهو «مؤرخو العثمانيين» عن حقل اهتمامه الخاص: فقد جمع من عدة فهارس ودواوين مخطوطات مجهولة تضم تراجم مؤرخى الدولة العثمانية، وأصبح هذا الكتاب مرجعاً قياسياً، رغم أنه، كأول خطوة فى حقل يكاد يكون مجهولا، بحاجة إلى تصحيحات فى عدة اماكن فيه. وكان الاهتمام بالتفاصيل التاريخية الطابع المميز لبابنكر. وإذ كان يجيد لغات البلقان بالاضافة إلى لغات الشعوب الإسلامية، فقد كان بابنكر يعرف أفضل من أى قرين له جميع الفهارس ودوائر المحفوظات التى كانت موجودة فى المناطق العثمانية السابقة، كما كان يعرف أصغر السجلات والمحفوظات الإيطالية التى وجد فيها وثائق لا تقدر بثمن من حيث أهميتها فى إيضاح العلاقات بين دول المدن الايطالية والامبراطورية العثمانية. ويظهر كتابه الخالد عن السلطان محمد الفاتح، الذى لم يلق استقبالا حسنا بين الأتراك المعجبين بهذا السلطان العظيم بسبب موقف الكتاب النقدى، قلما يظهر هذا الكتاب إلماماً ممتازاً بجميع المصادر التى لا تكاد تخطر على البال. واهتم بابنكر كذلك بدراسة شخصية عجيبة وهى شخصية الصوفى والثائر القاضى بدر الدين السماونوى، وكان من اهتماماته الخاصة أيضاً الميادين المجاورة لتاريخ الفن — سواء أعالج فى ذلك دراسة صناعة الورق فى الدولة العثمانية، وهو أحد ابحاثه المبكرة، أم تناول وصف صور الأمير التعيس جم سلطان، ابن محمد الفاتح، الذى لعب دوراً خاصاً كذلك فى العلاقات بين الدولة العثمانية والمماليك، والذى اتجه اخيراً إلى البقاع المسيحية، حيث كان يقيم تارة تحت الإشراف الفرنسى وتارة تحت الإشراف البابوى، إلى أن مات عام ١٤٩٥ فى نابولى. وقد عاد بابنكر كثيراً إلى التعرض لذكر هذا الأمير ذى الموهبة الشاعرية الفذة والحياة المأساوية. واهتم بابنكر كذلك بطوبوغرافية مدينة استانبول، كما أن مقالاته التأبينية التذكارية لمؤرخى الفن أمثال إرنست كونل E. Kühnel وفريدرش زاره Friedrich Sarre (انظر فكر وفن العدد ٧) تظهر ميله إلى الفن الإسلامى كما تظهر فنه فى تصوير الشخصيات، ذلك الفن القائم على تدقيقه فى دراسة المصادر. وقد وافته المنية كذلك وهو فى وسط عمله وذلك أثناء حضور مؤتمر للدراسات البلقانية فى يوغوسلافيا.

وهكذا، فبوفاة شيل وبابنكر، وبالرغم مما قد يكونان عليه من اختلاف فى الطبع، ينتقل آخر ممثلين للمدرسة الكلاسيكية فى الدراسات العثمانية إلى العالم الآخر.



إبريق من زجاج، إصفهان، القرن السابع عشر Staatliches Museum für Völkerkunde, München.
عن فهرست معرض الفن الايرانى فى كراسة المعرض الخاص بالمتحف الإثنولوجى، بميونيخ، ١٩٦٣.



ابريق من الفخار، عليه زخارف على هيئة نباتات متسلقة، محفورة من تحت طلاء الخزف. سلطان اباد، ايران، القرن الرابع عشر.
Staatliches Museum für Völkerkunde, München.



Abu'l Qasim Firdousi, Das Königsbuch, deutsch von Helmhart Kanus-Credé. Lieferung 1, Buch 1—5. Verlag J. J. Augustin, Glückstadt 1967.

لم يتوقف اهتمام المستشرقين بهذه الملحمة الفارسية الكبرى. وإذ عرفت للمرة الأولى فى ألمانيا عام ١٧٩٣، وفى عام ١٨٢٠ قام «جوريس» Görres باصدار ترجمته الألمانية الحرة لهذه الملحمة، وكان قد نقلها عن بعض المخطوطات الفارسية، ثم أتى بعد ذلك كل من الدوق شاك Schack والرائد الكبير فريدريش روكرت فترجما هذا العمل الخالد أو بالأحرى الشطر الأعظم منه شعرا إلى الألمانية. وقد توالت بعد ذلك عدة ترجمات ألمانية حرة وملخصة لهذا الأثر الشعرى الجليل، ولاقت ما لاقت من انتشار وذيوع؛ بل أنه من ألمانيا صدر قاموس «فردوسى» الأول والوحيد من نوعه لمؤلفه «فريتس فولف» Fritz Wolff. ولا زال أمام البحث العلمى كثير الكثير قبل أن يلفظ كلمته الأخيرة بصدد هذه الملحمة الفريدة، لاسيما وأنه لم ينجل الكثير من غوامضها بعد، كما أن تحقيق نصها — الذى لا يخفى أهميته القصوى — قد بدأ لتوه فى روسيا، ولن يفرغ منه إلا بعد مدة طويلة. — والحين ها هو مستشرق ألمانى يقدم لنا بلغته ترجمة نثرية جديدة لهذا العمل الشعرى الفحل، بعد أن ظل مشغولا به زمنا طويلا. غير أنه يبدو لى هنا أن ترجمته هذه — بغض النظر عن أخطائها اللغوية — لم تبلغ الصيغة المثالية؛ فهى لا تقرأ بسلاسة كما أنها تفتقد إلى الكثير من الملاحظات والهوامش اللازمة للترجمات العلمية. ومع كل ما بذله المترجم من جهد فاننا لا نزال نفتقد إلى ترجمة «مثالية» لـ«شاه نامه»، ولا زلنا نعود لقراءة الترجمة الشعرية التى خلفها «روكرت» لقربها إلى حد كبير من روح الأصل.

Otto Spies, Türkische Märchen. Eugen Diederichs Verlag, Düsseldorf — Köln, 1967.

لقد اتيحت لنا الفرصة من قبل للتحدث هنا عن الاساطير العربية التى قام ماكس ڤايسفايلر Max Weisweiler بنشرها فى مجلدين من مجموعة أساطير الأدب العالمى التى أصدرتها دار نشر Diederichs Verlag فى الاعوام الأخيرة. وقد قمنا كذلك بنشر مقتطفات من مجلد الأساطير المصرية القديمة الذى أصدرته ايما برونر — تراوت Emma Brunner-Traut فى السلسلة نفسها. ولذا فان من دواعى سرورنا أن نعلن هنا عن كتاب الاساطير التركية الذى ترجمه ونشره أوتو شبيس، مؤلف مقالة: الشرق فى الأدب الألمانى. ويظهر شبيس فى المقدمة التى أسبق بها حكاياته الخرافية الستين أن تركيا لعبت دور الجسر الثقافى فى نقل الأساطير والحكايات بين الشرق والغرب. ومما يزيد من قيمة الكتاب بالنسبة لباحث الأساطير والقصص الخرافية ثبت خاص بالمصادر ودليل بأنواع الأساطير ونماذجها المختلفة، وتسد الترجمة ثغرة حقيقية فى ميدان أبحاث الأساطير والحكايات الخرافية.

Dietrich Brandenburg, Islamische Baukunst in Ägypten. Verlag Bruno Hessling, Berlin 1966.

يقدم هذا الكتاب أول عرض جامع لفن البناء الاسلامى فى مصر، ولذلك فهو يعنى كل مهتم بالفن الاسلامى عامة، فضلا عن المهندسين المعماريين وزوار مصر التواقين إلى التعرف على تاريخها. وإذا كان المؤلف قد اقتصر على القاهرة بالذات فهو أمر طبيعى لما تزخر به هذه المدينة من جوامع أقيمت فى مختلف عهود الاسلام، مما يجعلها بمثابة كتاب حى مفتوح لتطور أسلوب المعمار الاسلامى.

يبدأ المؤلف بعرض تاريخى موجز لفتح العرب لمصر فى ٦٤٠م حتى العصر الحاضر — ويكمل هذا المختصر جدول زمنى على خير وجه. ثم يتعرض بعد ذلك لتاريخ فن المعمار الاسلامى خاصة فى مصر؛ يعقبه فصل عن أسلوب البناء الاسلامى فى مصر وقوالبه الأولية. ويبدو لى هذا الفصل على قدر كبير من الأهمية لكل زائر لوادى النيل والأقطار الاسلامية عامة،



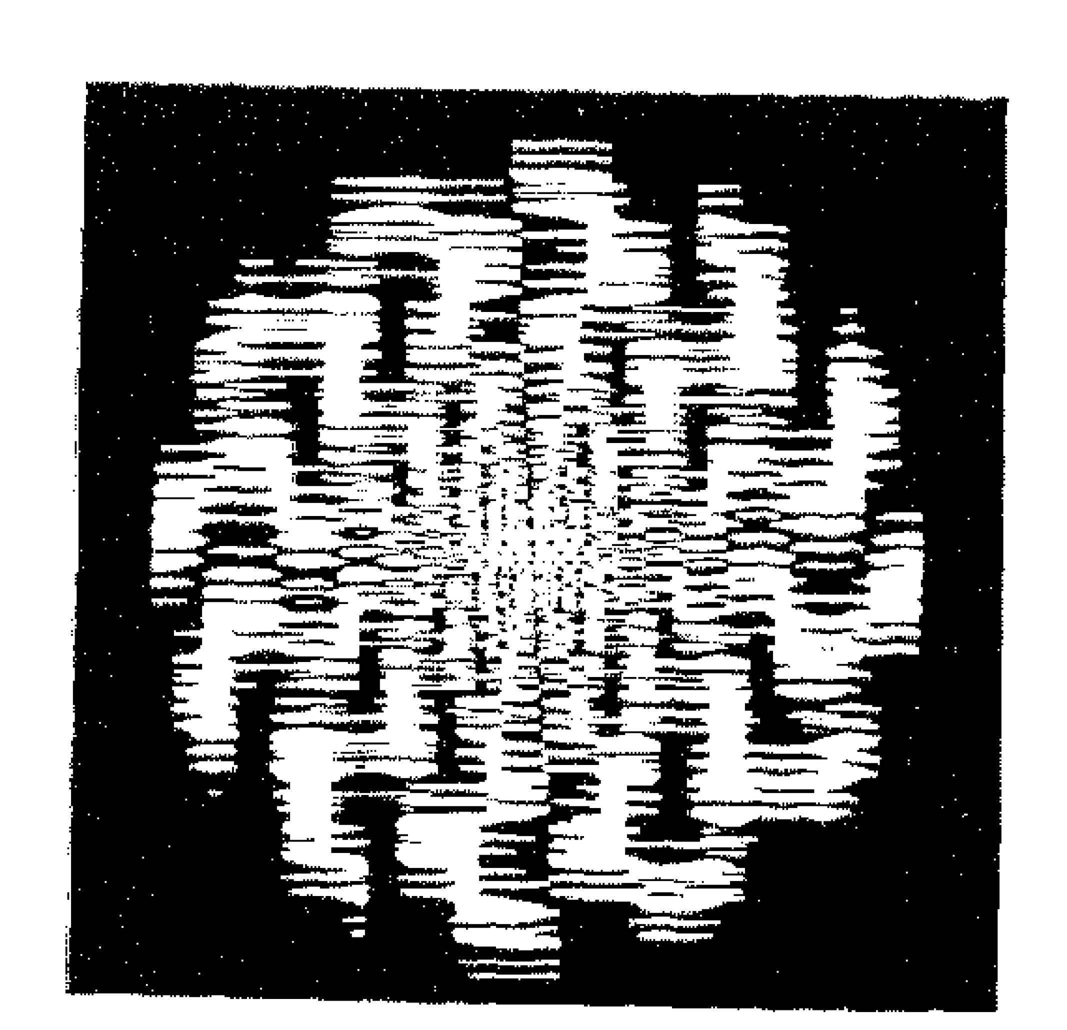
الملكة برينيتشه الثانية، مصر، عهد بتولومايوس الثالث أوليرجيتيش الأول (٢٤٦–٢١١ ق م).
عن كتاب:
Peter R. Franke und Max Hirmer, Die griechische Münze, Hirmer-Verlag, München 1964.

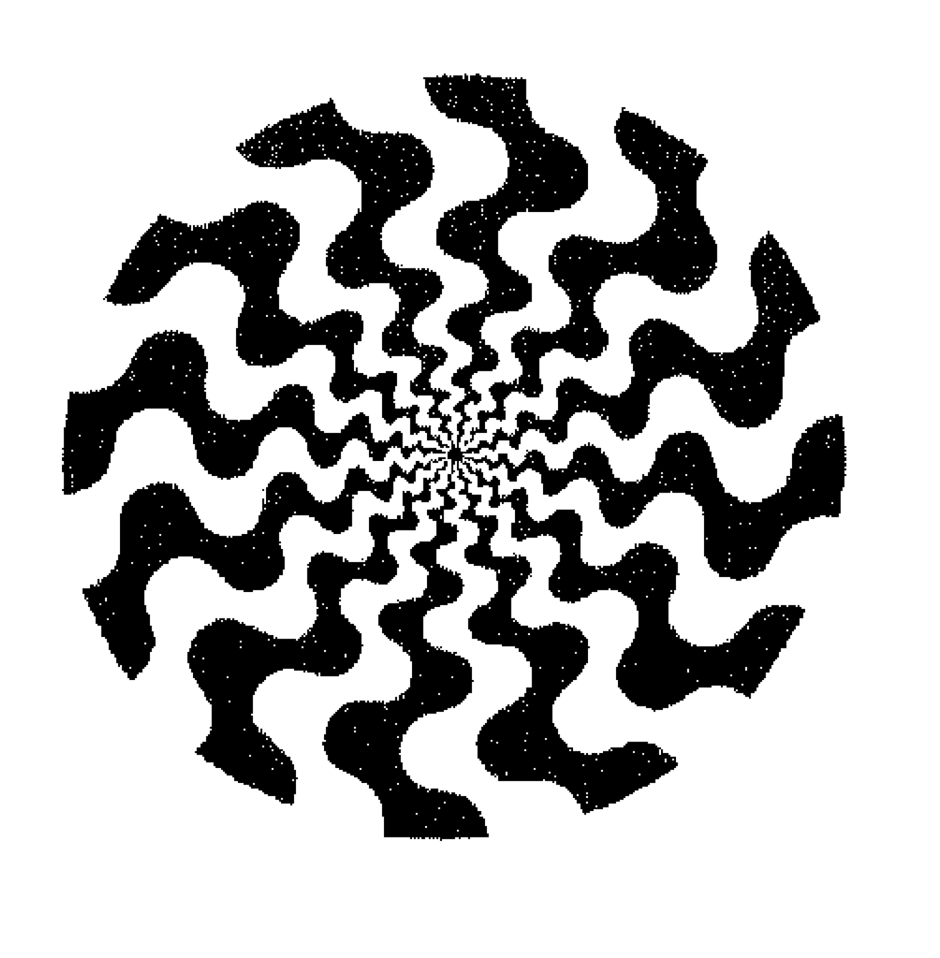
إذ يتعرض لمختلف أشكال الأقواس والمآذن، وأنواع الأعمدة والشرفات، ويعرج بعدها على زينات الحائط التى تحلى جدار المبنى من الخارج، ونماذج البنايات ذات اللونين (الأبلق)، والمقرنس، ومختلف أشكال البوابات بمصراعيها والمشربيات والقمريات الرائعة، ومن ثم التجهيزات الداخلية لاسيما بالرخام وصنوف الزينة والزخرف — حيث يدور البحث حول الفئات الرئيسية الثلاث للزخرفة الاسلامية وإن يكن بشئ من الاقتضاب : النقش العربى (ويجدر بنا هنا أن نحيل القارئ إلى كتاب ممتاز عنوانه «مسائل الأسلوب» لمؤلفه ا. ريجل، A. Riegl, 1896 حيث عرف الأرابيسك لأول مرة من الوجهة التكنيكية) ثم الزخرفة الهندسية والخط (نسخا ورقعة وكوفيا). وقد وصف النسخ المربع خطأ بأنه الخط الكوفى الشطرنجى ذو الشكل الخاص المعروف. وقل ما نعثر على معلومات سريعة ومفيدة عن أشكال زخرفة البناء الاسلامى مثلما نجد فى هذ االعدد القليل من الصفحات وقد أضاف هانس رويتر إلى هذا الكتاب ملحقا خاصا ببناء القبة وفق الفن الاسلامى فى مصر.

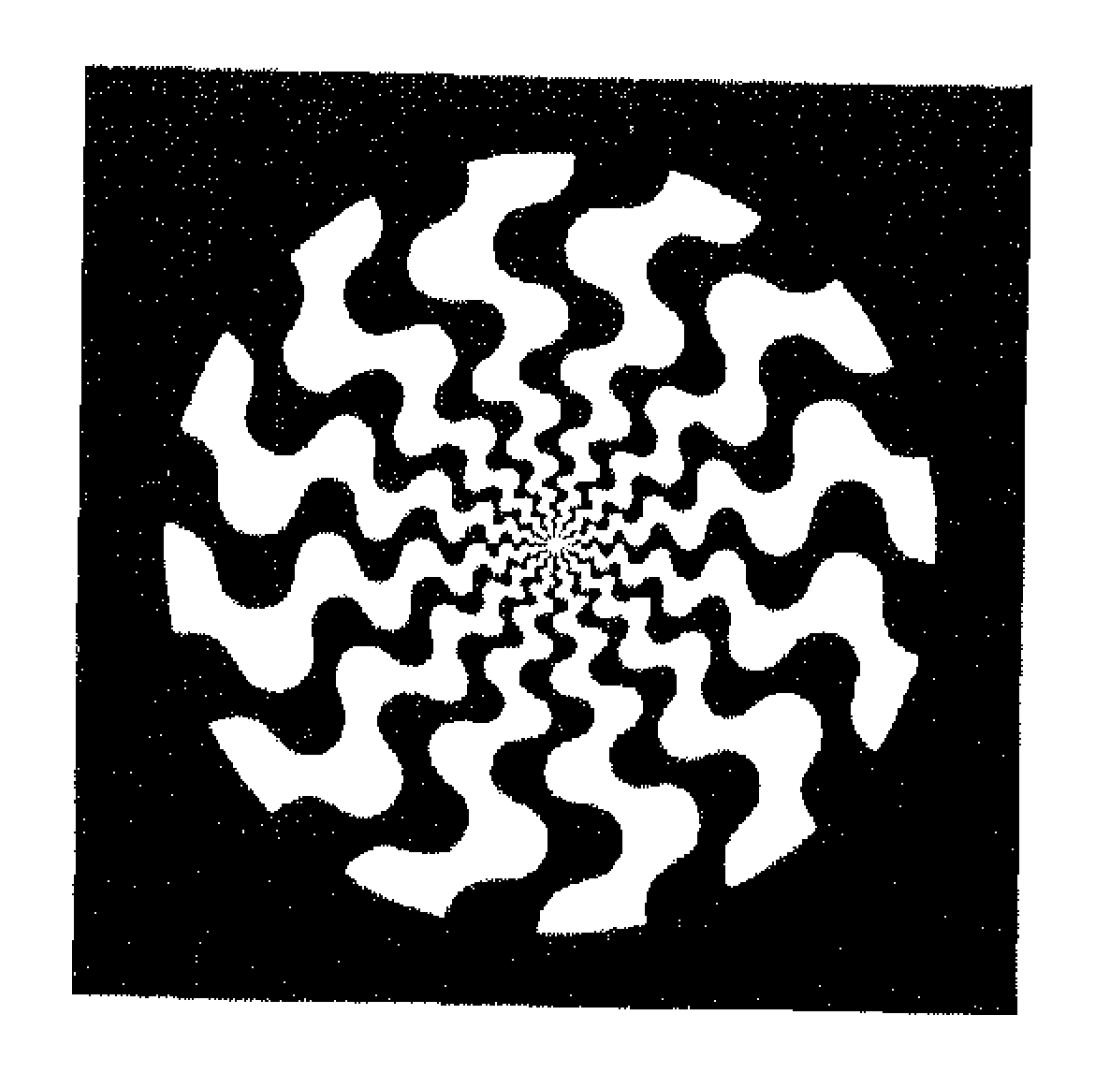
يلى ذلك الفصل الرئيسى : ويتناول تبويب مجموعات البناء، ومن ثم المقطع التاريخى الطولى لمختلف نماذج كل مجموعة من مجاميع مبانى العبادة مبتدءا بمسجد عمرو ومسجد ابن طولون حتى المبانى الفاطمية ومساجد المماليك الفاتنة وجامع محمد على. وتأتى بعد ذلك المقابر التى تزخر بها القاهرة: فمقابر المماليك والخلفاء لعلى درجة كبرى من الأهمية سواء من ناحية تاريخ الحضارة أم تاريخ الفن؛ وينتهى هذا العرض الشامل بمزار أغا خان المبنى حسب الطراز الفاطمى. — ومما يثلج الصدر أن الكتاب قد أفرد عددا وفيرا من صفحاته لعرض المبانى العامة، بل أنه لم يقتصر على مقياس الروضة، الذى كثر الحديث عنه، وبوابات القاهرة الشهيرة (باب النصر — باب الفتوح — باب زويله) والقلعة، وإنما تطرق أيضا إلى دور السكنى والقصور التى قل من يعرفها والتى شيدت بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر. كما ذيل الكتاب بكشف يضم عددا من كبار المهندسين المعماريين والصناع الفنيين، فضلا عن قاموس للمفردات والتعابير التكنيكية، وثبتا مفصلا للمصادر والمراجع ملحقا بالفصول التمهيدية.

ولا يوجد ما يؤخذ على الجانب التكنيكى ولا ذلك المتعلق باستعراض تاريخ الفن الاسلامى فى هذا المرجع الذى زودت معظم فصوله بالعديد من الرسوم والمقاطع الطولية والعرضية وبصور المساقط الأفقية للمبانى. وبرغم العرض الموضوعى لهذه المبانى نستشف بجلاء ما يكن المؤلف من حب بالغ لهذا الفن وأنه توفر على دراسته وتقصاه فى أعماقه.

وإذا عنت لنا بعض التنقيحات فى هذا العمل القيم فانما نعنى الجانب اللغوى فيه. ذلك أن المؤلف قد نحى نحوا صحيحا حين سلك الطريق الوسط ونقل العبارات العربية بنطقها إلى الحروف اللاتينية حتى يتمكن الغربى الخالى الذهن من اللغة العربية من نطق هذه العبارات بما يقترب من الصحة على قدر الامكان؛ غير أننا كنا نرجو لو أتى المؤلف بكل لفظة عربية أو اسم علم عربى حسب طرق النسخ العلمى، ولو عند ظهور العبارة لأول مرة. ومن ذلك كلمة «مسجد» مثلا التى كان يمكن توضيحها لقراء الألمانية بسرد اشتقاقها عن فعل سجد، كما أن «السبيل» ليس من «الهبة السخية أو الجود» وإنما ما يفعل فى سبيل الله، والأفضل أن يعرف السفاح بالألمانية Blutvergießer (سافك الدماء). ونقرأ فى ص ٨٥ أن المتصوفين كانوا يرتدون ثوبا من الكتان، وصحة ذلك أن رداءهم كان من الصوف. إلا أن هذه الهنات لا تعكر صفو قراءة هذا العمل القيم الجميل الذى عالج موضوعه برساحة تجعله مرجعا ثمينا لكل مهتم بمصر والفن الاسلامى. وإنا لنرجو أن يلقى انتشارا واسعا بين القراء.







هاينتس جرافهورست، تبديلات فوتوغرافية؛ عن كتاب Meisterphotos der photokina. دار نشر J. B. Bachem, كولونيا، 1966.

A) = Anthologie الأفكار والفنون)

B) = Besprechung نقد الكتب)

Ü) ت = Übersetzung ترجمة)

فهرس الأسماء

فهرس المقالات غير المهورة بتوقيع

Ungezeichnete Beiträge, allgemeine Überschriften

فهرس الأسماء بالألمانية

فهـرس الموضوعات

d) Arabische Gedichte mit deutscher Übersetzung — د) قصائد عربية فى ترجمة ألمانية

I 54; I 83 (A 45); II 34; II 59 (A 105); II 60 (A 106); II 98; III 81; IV 38; IV 41 (A 173); IV 60; IV 79 (A 147); IV 92; V 34; VI 37; VI 88; VII 39; VII 64; VII 84; VIII 76, IX 22, 29, 78, 84; X 12, 13, 86

e) Übersetzungen arabischer Prosa — هـ) ترجمات ألمانية لمقطوعات نثرية عربية

III 56; VII 61

f) Persische Gedichte mit deutscher Übersetzung — و) قصائد فارسية فى ترجمة ألمانية

II 59 (A 105); II 60 (A 106); II 98; II 101; III 44 (A 80); III 45 (A 81); III 46 (A 82); IV 39; IV 40 (A 172); IV 80; IV 88; V 86; VII 39; cf. VIII 87; IX 23; X 96

g) Türkische Gedichte mit deutscher Übersetzung — ز) قصائد تركية فى ترجمة ألمانية

II 61 (A 107); II 99; III 45 (A 81); III 50 (A 86); IV 86

h) Sindhi-Gedichte mit deutscher oder arabischer Übersetzung — ح) قصائد سندية فى ترجمة ألمانية

III 44 (A 80); IX 81

B) Erziehung — B) دراسات تربوية

IV 68; IV 81; V 4; VIII 6; X 6

C) Geschichte, Religionsgeschichte — C) دراسات فى التاريخ العام وتاريخ الأديان

II 17 (A 28); II 45; II 96; III 21; IV 23 (A 159); VI 60; VII 21; VIII 26; VIII 59; X 30

D) Geschichte der Orientalistik — D) تاريخ الاستشراق

I 98; IV 44 (A 178); V 57 (A 190); V 88; V 90; V 93; VI 40 (A 203); VI 86; VII 48; VII 82; VII 84; VIII 44; IX 33; X 55

E) Naturwissenschaften, Medizin — E) دراسات فى علوم الطبيعة

I 86; I 97; II 4; II 62; II 77; III 7; IV 11; V 71; V 73; VI 19 (A 149); VI 25; VI 38; VI 85; VII 32; VIII 35; IX 44, 60; X 14

F) Philosophie — F) دراسات فلسفية

I 6; IV 4; IV 66; V 6 (A 6); VI 7 (A 18); VII 10; VII 15; VII 22; VIII 4; IX 4

G) Kunst — G) الفنون الجميلة

I 15; I 17; I 21; I 22 (A 99); I 28; I 36; I 57; I 66; III 18 (A 59); III 52 (A 88); III 54 (A 90); III 55 (A 92); III 61 (A 135); III 66 (A 140); III 81; III 99; IV 91; VII 25; VII 41; VIII 78, IX 20; IX 25, 81; X 18, 37, 46, 70, 87

انظر ايضا : معارض

H) Ausstellungen — H) المعارض الفنية

I 100; III 100; V 94; VI 88; VII 85—88; VIII 88, 89

I) Musik, Oper — J) دراسات موسيقية

I 41; I 51; VI 50

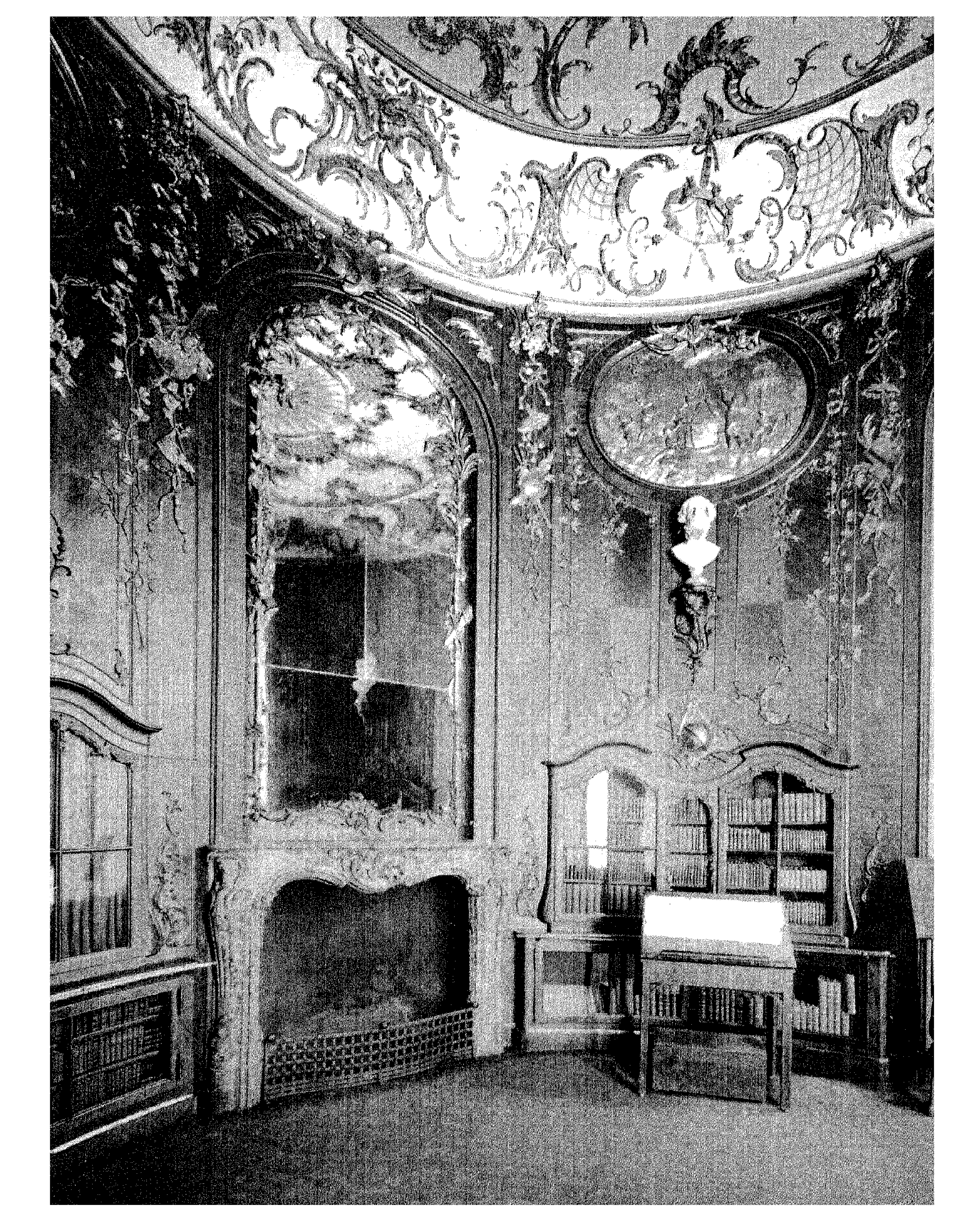
K) Allgemeines — K) عموميات

I 2, 3; III 4; VII 4

L) Bücherbesprechungen — L) طلائع الكتب

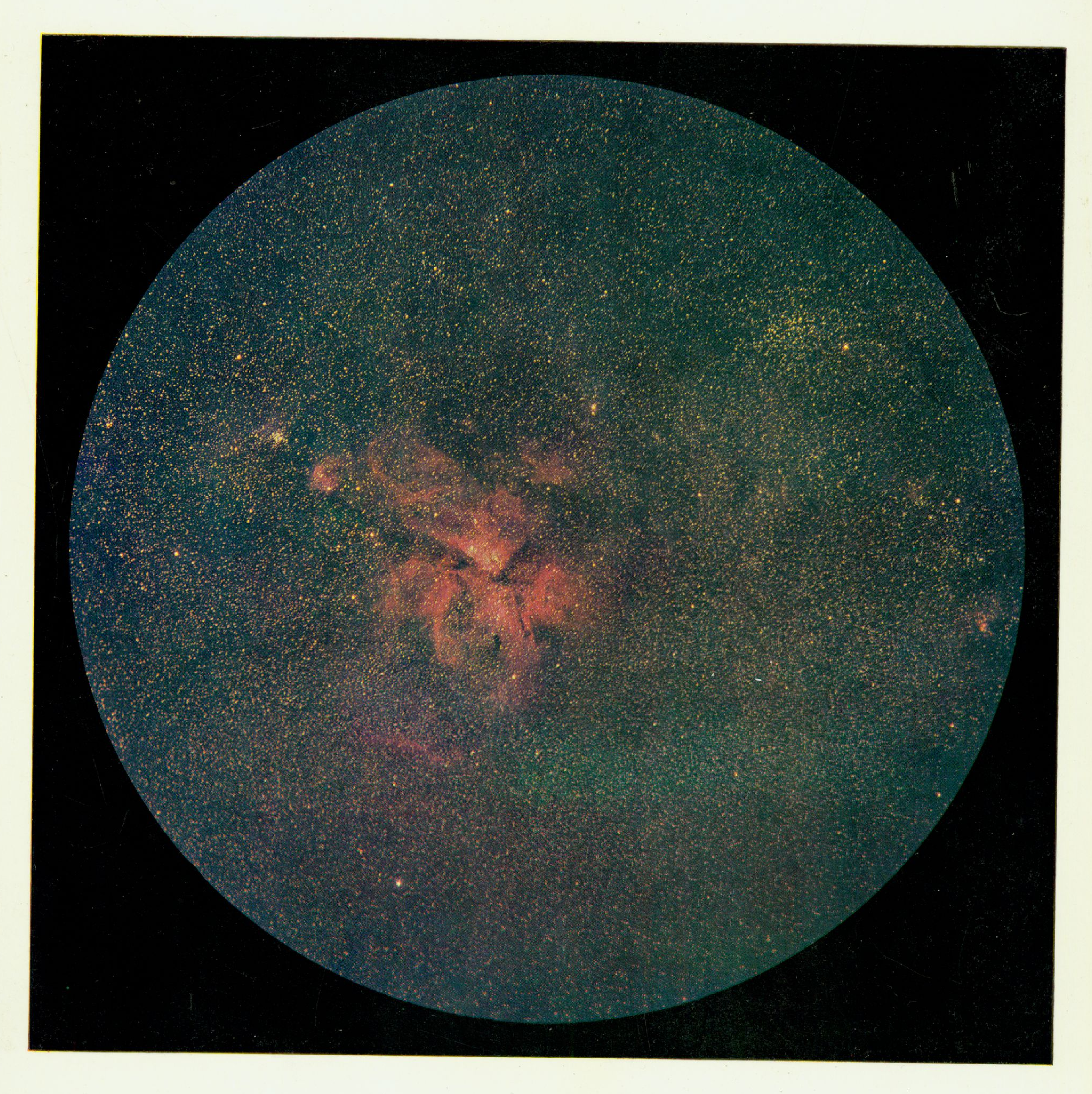
I 102, 104; II 101—104; III 102, 103; IV 94, 95; V 96; VI 89—96; VII 89-96; VIII 90—96; IX 89—96; X 92—96

◀ Deutsche Fotothek, Dresden : تصوير. مكتبة الملك فريدريش الثانى الكبير فى قصر سانسوسى قريب من مدينة پوتسدام



FIKRUN WA FANN

11



ÜBERSEE-VERLAG · HAMBURG